الأفكار والرغبات

بين الشيوخ والشباب

تأليف الشيخ

محمد تقي فلسفي

تعريب وتعليق

علاء الدين الأعلمي



مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

الأفكار والرغبات
بـــين
الشيوخ والشباب

الطبعة الثانية

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات

بيروت - طريق المطار - قرب سنتر زعرور

هاتف:٤٥٠٤٢٦ / ٠١ - فاكس:٤٥٠٤٢٧ / ٠١

صندوق بريد: ٧١٢٠

Published by Aalami Est.

Beirut Airport Road

Tel:01/450426 Fax:01/450427

P.O.Box.7120

E-mail:alaalami@yahoo.com

http://www.alaalami.com

الأفكار والرغبات
بين
الشيوخ والشباب

تأليف

الشيخ محمد تقي فلسفي

تعريب وتعليق

علاء الدين الأعلمي

الجزء الاول

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

بسم الله الرّحمن الرحيم

المحاضرة الاولى :

اختلاف الرغبات بين الشباب والشيوخ

﴿قل كل يعمل علىٰ شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدىٰ سبيلاً﴾ .

[القرآن الكريم]

مشكلة كبرى :

إن اختلاف الشباب والكهول والشيوخ في الأُسرةِ والمجتمع هو من المشكلات الكبرىٰ الموجودة بدرجاتٍ متفاوتة ، في ماضي وحاضر الشعوب والأُمم . وكثيراً ما يحدث أن تؤدي الخلافات والمشاجرات بين هذه الفئات الثلاث إلىٰ حدوث فوضىٰ في العلاقات الأسريَّةِ والنظام الإجتماعي وبالتالي وقوع مصائب كبيرة . وأحياناً يفر الأبناء الشباب من البيت ويختفون نتيجة للمشاجرات العنيفة بين أفراد الأُسرة وأحياناً تدفع هذه المشاحنات والخلافات بالزوجةِ الشابة إلىٰ تركِ زوجها وأطفالها والذهاب إلىٰ مكان مجهول ، كما تُؤدِّي إلىٰ الجريمة ، فيقدم الفرد علىٰ الانتحار أو القتل .

منشأ الاختلاف :

ينشأ الاختلاف والمشاجرة بين الشبان والكهول والشيوخ من سببين أساسيين : أحدهما غريزي ، والآخر مكتسب .

القسم الغريزي يرتبط بقانون الخَلق وسننهِ . ومن هذهِ الجهة يختلف أُسلوب تفكير هذهِ الفئات الثلاث اختلافاً طبيعياً . وهذا الاختلاف في التفكير هو منشأ قسمٍ من اختلافاتِهم . فاختلافُ الفئاتِ الثلاث ناتجٌ من نوعِ التربية في الطفولةِ وتمسُّك المُجتمعِ بالقيمِ الأَخلاقيَّةِ وتحديدِ القوانينِ لغرائِزِ الناس ومُيولِهم النفسِيَّة في مختلفِ الشؤونِ وشدةِ الطِّباعِ السيِّئةِ والعادات الذميمة في المجتمع ، ولإزالة هذا الاختلاف أو تذليله على الأقلِ يجب :

أولاً : أنْ تُعرفَ الفوارقُ النفسيَّةُ الناشئةُ من تبايُنِ الأَعمار بينَ هذهِ الفِئاتِ الثلاث مع ملاحظةِ ما تقتضيه متطلّبات الزمن ، وأَنْ تعرفَ كلُّ فئة فِكْرَ الفئتين الأُخريين وتفعل ما يُناسبُ وضعهما وحالَهُما النفسية قَدْرَ المستطاع .

ثانياً : أَن تُنَظمَ البرامجُ التربويَّةُ البنّاءَةُ للناس وكذلك القوانينُ الاجتماعيةُ والأُصول الأَخلاقيةُ التي هي الميزانُ لتقويم الغرائز والمعيارُ لاتصالِ الناس تنظيماً صحيحاً عادلاً يستجيبُ لمطالِب الفئاتِ الثلاث استجابةً تنالُ كلُ فئةٍ في ظِلّها حقّها الطبيعيَّ والاجتماعي ، وتُرْضي رغباتِها إرضاءً سَليماً لا إفراطَ فيه ولا إسراف .

شرطان أساسيان :

إن معرفة الوضع النفسيّ للشباب والشيوخ وما ينجذبونَ إليه ، ووجود المقرّرات القانونية والأخلاقيةِ الصحيحة لتنظيم علاقات هؤلاءِ هما شرطانِ أساسيّانِ متلازمان لتقليل الخِلافاتِ الأسريةِ والإجتماعيةِ ، وفقد أحدِهما فقدٌ لهذهِ الثمرة .

تقدم علم النفس :

منذ زمنٍ بعيد حقق علماء الغرب نجاحاً كبيراً في مجال علم النفس ، واستطاعوا أن يعرفوا الوضع النفسي للشباب والكهول والشيوخ ، وأوضحوا لهم سُبُلَ الاتّصالِ ببعضهِم في النشرات العلميّة والبرامج الثقافية ، وأوصوا المجتمع بتنفيذ توصياتِهم .

وبهذه النتيجة أي بمعرفةِ نفسيّةِ الفئاتِ الثلاث تحقق الشرطُ الأوّلُ لتفاهُم هـذهِ الفئـات إلاّ أنَّ الخـلافَ والتخـاصُمَ والـظلمَ والعـدوان بقيت في الأسـرةِ والمجتمـعِ في دنيا الغـرب ، وما زالَ النـاسُ في عناءٍ وعـذابٍ لفِقدانِ الشـرط الثاني ، وهو انعدامُ المقرّرات الصحيحة العادلة .

الحريات المضرة :

في الشرح الذي سنقـدمهُ في الفصـول القادمـة سيتبين أن العالم الغـربي ارتكبَ خطأً كبيراً بمنحهِ حريات تتعدىٰ نـطاق المصلحة العـامة للنـاس ، إذ إن واضعي القانون لم يكونوا يريدون أو لم يستطيعوا وضـع مقياس صحيـح لغرائـز ورغبـات الناس بـواقعية ويحفـظوا المصالـح الفردية والإجتمـاعيـة ، فـوضعـوا القوانين غير الصحيحة وأعطوا الحريات المضرة والخطرة ، وبـذا أجـازوا الكثيـر من الأمـور الشائنـة والشريـرة ، ودفعـوا النـاس نحـو الإفـراط فـواجهت الـدولُ مشكلاتٍ عظيمةً ، ومهدوا لظهور التناقضات والاختلافات وحدوث الجرائم .

الاسلام والغرائز البشرية :

إنّ نبيَّ الإسـلام العـظيم اهتم قبـل أربعـة عشر قـرنـاً بـالمميـزاتِ الـروحيـة والحالات النفسية للشباب والكهول والشيوخ من وجهة النظر الطبيعيـة ، وأوضح لأتباعهِ ذلك ، وبيّن في روايات متعددة أسلوب التقارب وكيفيـة مواجهـةِ أحدهم الآخر وحدد واجباتِ الفئات الثلاثِ في الأسرةِ والمجتمع .

وباعتباره صلى الله عليه وآله وسلم يحتل مقامَ التشريع ووضع القوانين فقد أزال ما يُقِرُّ الباطـل ، وكـذلك الأنـظمة القـديمة غيـر الصحيحة التي هي منشـأ الكثيـر من المفـاسـد والإختـلافات التي تؤدي إلىٰ إضـاعةِ الحقـوق الـطبيعيـة والاجتمـاعيـة للفئـات الثلاث .

ومن جهةٍ أخرىٰ حـدّد الغرائـز والرغبـات النفسيّة للبشـر بطريقـة صحيحة ورسم في ظل الوحي الإلٰهي طريق السعادة ومصلحة الإنسان ، وَمهّدَ للإنسجام والمسالمةِ بين الأجيال المختلفة .

إن أياً من الغرائز لم تكبت في الدين الإسلامي ، كما لم يعطِ حرية مطلقة لإشباع أيٍّ من الرغبات كما في الغرب .

سنتناول في هذا الكتاب الحديث عن معرفة النفس لدىٰ الشباب والكهول والشيوخ واختلاف أفكارهم ،مستفيدين سن الروايات الإسلامية والتحقيقات العلمية للعلماء .

ويتناول البحث قسماً من التعاليم الدينية والمقرّرات التي لها دور مؤثر في إزالةِ اختلافات الفئات الثلاث مع إشارات إلىٰ بعض الآداب والتقاليد لعصر ما قبل الإسلام ، وكذلك إلىٰ قسمٍ من الأوضاع الحالية في عالم ا لغرب .

أول عامل للاختلاف :

إنّ أوّل عامل لاختلاف الشباب والشيوخ هو تبايُنُ رغباتهم النفسية وأساليبِ تفكيرهم .

فسنوات العُمر لا تُؤثر في الجسم وقُواهُ وتميّز بينَ الشبّانِ والكهول والشيوخ فحسب ، وإنّما تُؤَثِر أيضاً في حالاتهم النفسية والعاطفية والروحية . إن أفكار الشيوخ تختلف كثيراً عن أفكار الشباب وتصوراتهم .

علاقة الجسد والروح :

بعبارةٍ أُخرىٰ تظهر تغييرات عميقة في القوىٰ الجسميّةِ ونشاطات الخلايا والتفاعلات الكيمياوية بتقدُّمِ العُمر .

وبما أن النفس والجسم متحدان ومرتبطان مع بعضهما البعض وأحكام كلٍ منهما تسري على الآخر ، فإن تغييرات الجسم وتحوُّلاته تؤدِّي إلىٰ تحوُّلاتٍ في الحالات الروحية والعواطف النفسية تماماً كما أن التحولات النفسية والتغييرات الروحية أيضاً تؤثر في الجسم .

ولكي يتضح الموضوع أكثر يجب تقديم توضيح لاتحادِ النفس والجسم

وعلاقة الجسم بالروح .

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال :

«الروح في الجسد كالمعنى في اللفظ»[1] .

إن مسألة اتحاد النفس والجسد وتأثير كل واحدٍ منهما في الآخر من المسائِل التي قبلها الفلاسفةُ والحكماء في الماضي ، وكذلك العلماء والمحققون اليوم ، وجاؤوا بشواهد كثيرة في كتبهم العلمية لإثبات ذلك .

وهنا نشير إلىٰ قسم منها :

النشاطات النفسية والجسدية :

«يقول الدكتور كارل : من الواضح أن النشاط العقلي يتوقف على وجوه النشاط الفسيولوجي . فقد لوحظ أن التعديلات العضوية تتصل بتعاقب حالات الشعور . وعلى العكس من ذلك ، فإن حالات وظيفية معينة للأعضاء هي التي تقرر الظواهر السيكولوجية . . . ويعادل الكل المكون من الجسم والشعور بالعوامل العضوية والعقلية أيضاً . . . فالعقل والجسم يشتركان معاً في الإنسان مثلما يشترك الشكل والرخام في التمثال ، فالإنسان لا يستطيع أن يغير شكل التمثال دون أن يحطم الرخام . . . .

تعادل نمو الدماغ والذكاء :

ينمو الدماغ والذكاء عند الأطفال في وقت واحد . . . وعندما يحدث ضمور الشيخوخة ينقص الذكاء .

يتعرض النشاط العقلي لتغييرات مؤقتة تحت تأثير الكحول الذي يحمله الدم من المعدة إلى الخلايا العصبية . ويعطّل انخفاض ضغط الدم ـ نتيجة للنزيف ـ جميع ظواهر الشعور . . . وبالجملة

---

(١) سفينة البحار . مادة روح . ص ٥٣٧ .

يلاحظ أن الحياة العقلية تتوقف على حالة المخ .

حقيقة الأمر أن المراكز المخية لا تتكون من المادة العصبية فحسب إذ إنها تشتمل أيضاً على سوائل غُطست فيها الخلايا وينظم تأليفها بواسطة مصل الدم . . . ويحتوي مصل الدم على إفرازات الغدة التي تنتشر في الجسم كله ، ولما كان كل عضو موجوداً في النخاع الشوكي بواسطة الدم والليمفا ، فمن ثم فإن حالاتنا الشعورية مرتبطة بالتركيب الكيميائي لأخلاط العقل مثل ارتباطها بالحالة التركيبية لخلاياه . وحينما يحرم الوسيط العضوي من إفرازات غدد السوبرارينال فإن المريض يسقط فريسة للانقباض الشديد ـ ويشبه حيواناً شرساً ـ وتؤدي الاضطرابات الوظيفية لغدة الثايارويد إما إلى الهياج العصبي والعقلي أو إلى البلادة وفقد الإحساس . وقد وجدَ معتوهون وضعاف عقول ومجرمون في أُسر أصبح تغيير تركيب هذه الغدة فيها بسبب إصابتها بجروح أو بأمراض ، مسألة وراثية»[(١)] .

«يكفي أن يُحرم بلازما الدم من بعض المواد لتزول أعلىٰ تجليات الروح ، فإذا لم ترشح الغدة الدرقية (التيروكسين) في الدم يزول الذكاء والشعور الأخلاقي والجمالي والديني . كما أن زيادة أو نقص الكالسيوم يسبب اختلالاً نفسياً وهكذا يتأكد أن الوضع النفسي يرتبطُ بحالةِ الجسم .

إن الفعاليات الفكرية والعاطفية تنشأ عن الأوضاع الفسيولوجية والكيميائية للبدن»[(٢)] .

إن موضوع ارتباط النفس بالجسد هو حقيقة مُسلَّم بها لا تقبل الشَّك ، وتظهر آثارُهُ منذ عهد الطفولة بصور وأشكال مختلفة وتبقىٰ ثابتة ووطيدةً خلال

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

(٢) سبل الحياة ـ ص ٢٦ .

جميع مراحل الشباب والكهولة والشيخوخة .

حيوان بالفعل وانسان بالقوة :

عندما يولد الإنسان من الأُم فهو حيوانٌ غريزي يؤدي أعمالهُ بالغريزة ، كما أنه إنسانٌ يؤدي أعمالهُ باطلاعٍ مكتسب .

فالفكر والفهم والذهن والتخيّل ، وبقية التفاعلات النفسية ، والمدّخراتِ الروحية تزدهر بالتدريج وبموازاة تقدم الجسم وقوة البدن ، حتىٰ تصل إلى النمو النهائي .

وهذاالأمر يوضح هذهِ الحقيقة وهي أَن الجسد والروح لدى الإنسان مرتبطان منذ الطفولة .

الكلامُ هو أحد الأعمال الجسمية المتعلّقة باللسان والحبال الصوتية والنشاطات الرئوية ، ولكن هذا العمل الجسمي له علاقة مباشرة مع الوضع النفسي للإنسان أيضاً .

وبعبارةٍ أُخرىٰ إن الوليد في الأشهر الأُولىٰ من ولادتهِ غير قادر على النطق ، وبعد مدة يقلّد الأصوات ، وبعد مضي سنة يتحدّث بصورة تدريجية .

إن عجز الوليد ليس ناتجاً عن الضعف الجسمي وقواه ، وإنما لعدم النضوج الروحي والضعف النفسي اللّذين لهما سهمٌ كبير في هذا العجز .

ولهذا السبب فإن انطلاق لسان الطفل وقدرتَهُ علىٰ التحدّث دليلٌ علىٰ اتّزانِ نمو الجسم والروح وانسجامهما مع نمو الطفل .

النمو المتوازن للجسم والروح :

«يقول غاستون ويو : اختُبِرَ ذكاء الأطفال بنفس الطريقةِ التي اختبِرَ بها ذكاءُ القردةِ أو بطرائقَ مشابهة .

وكانت مقارنةُ تصرّفات القِردة والأطفال منذ البداية ، مُفيدَةً جداً

حتىٰ إنَّ علماء النفس رَبَّوا قِرْداً وطِفلاً معاً ، وقارنوا بينهما ابتِغاءَ أنْ تكون المقارنةُ في غايةِ الدِّقة .

وربَّىٰ كلوك طِفلَهُ الذي كان عمرهُ حينذاك أقل من سنة ، مع قرد صغير لمدة تسعة أشهر .

وفي عام ١٩١٤ رأى (بوتان) من سُكّان مدينة (بوردو) الفرنسية أن يقوم بمقارنة الحركات الذكية للأطفال والقردة . وكان هذا الشخص أوّل من استطاع أن يوضِّح موضوعاً مهماً وهو أنَّ قوةَ (النُطق) هي الحدّ الحقيقي الفاصل بين الإنسان والحيوان .

يقول بوتان :

إنّ الطفل الذي يبدأ (الكلام) يتصرف كإنسانٍ صغير ، ولكن تصرفات الطفل الذي لا (يتكلم) كتصرفات القرد الشبيه بالإنسان .

إن الطفل البالغ من العمر سنة واحدة يشبه فكرهُ فِكْرَ القردة الشبيهةِ بالإنسان . فهذا الطفل غالباً يحل أكثر المسائل المطروحة للقردة . ولهذا السبب سُميت السنة الأُولىٰ من العمر (سنة القرد الشمبانزي) ولكن هذا الطفل يَتعلَّمُ الكلام تدريجياً فإن نموهُ يزداد ويتقدّم علىٰ القرد وتُصبح الكلمات والإرتباط بينها وسيلة لنقل وانتقال أفكاره وحفظِ ذكرياتهِ عليه في الوقتِ نفسه .

والطفل بعد استطاعتهِ الكلام يتمكن من تصوّر الأشياء التي لا يُدركُها بصورة مباشَرةُ ، فتزدهر إمكانياتهُ الفكرية بشكلٍ مذهل»[١] .

---

(١) ماذا أعلم ؟ الذكاء ص ٤٣ .

اتساع الخيال مع الكلام :

«إنَّ اتساع خيال الأطفال وتَقدُمَ كلامهم ، ولا سيما في بدايةِ التكلم يتخذانِ درجةً واحدة .

ولا تزيدُ قدرةُ تخيُّل الطفل الذي لا يتكلَّمُ علىٰ قدرةِ تخيُّلِ القرد وهذهِ القدرة ضعيفة ضعفها لدىٰ القرد . وبالعكس فإن الطفل الذي يتكلم قادر بالإمكانات التي يكتسبها من مشاهداتهِ ، أن يتخيَّل ، أو تنمو لديه قوة التَخيّل . وهذا الارتباط القوي الموجود بين التخيّل والكلام قد تأكد لدىٰ (هد) بالمشاهدات والتجارب التي أجراها علىٰ المرضىٰ المصابين بعمىٰ الذهن»(١) .

الخلاصة هي أنّ جسد الطفل مرتبط بِروحه وأن الطفل يتدرج في نموهِ الجسمي خلال سنوات ، ومع هذا النمو تزدهر جميع الأُمور النفسية لديه الواحد بعد الآخر ، وتظهر في حالةِ الفعل . إلاّ أَنه كما يبقىٰ الطفلُ غير البالغ مِنْ حيث المظهر والجسم ، وبقية الصفات طفلاً ، تبقىٰ تخيلاتُه ورغباتُه وأفكارهُ بل جميعُ حالاتهِ النفسية طفولية أيضاً .

ونكتفي ، حول هذا الموضوع ، بالتوضيح المختصر الذي قدم عن علاقة جسد الطفل بروحه . والآن سنبحث موضوع التحولات الجسمية والتغييرات الروحية للشباب والكهول والشيوخ علىٰ أساس العلاقة الموجودة بين الجسم والروح .

بداية تحولات البلوغ :

وتنتهي أيام الطفولة ، ويُصبح الطفل في سن الثانية عشرة ، وتبدأ مرحلة التحول والبلوغ . وفي هذهِ المرحلة العاصفة المتشنجة التي تستمر لأربع سنوات تحدث تقلّبات شاملة وعميقة ومختلفة إثر ترشحات هرمونات البلوغ في

(١) ماذا اعلم ؟ الذكاء ص ٩٥ .

وجود الإنسان ، حتىٰ إنّ بعض العلماء يسمّي هذهِ المرحلة باسم (الولادة الجديدة) .

والشاب الذي يطوي هذهِ المرحلة ، فإنه يجتاز مرحلة الطفولة ، ويدخل (مرحلة الشباب) المملوءة بالنشاط والمحبة والأمل ، وينظر من بعيد إلىٰ المناظر الجميلة للحياة ، ويتقدم بشوق نحو المستقبل اللذيذ الطيِّب .

في هذهِ المرحلة تنمو سريعاً عظام البدن بصورة عامة ، وبصورة خاصة عظام اليدين والساقين ، حتىٰ تصل المرحلة الأخيرة من النمو الطبيعي . وكذلك الأعضاء الداخلية والعضلات تطوي بهذهِ الطريقة مسيرة نموِّها بسرعة لكي تصل إلىٰ كمالها النهائي . وفي هذهِ المرحلة تتسعُ الحَنجرة ويزداد طول أوتارها الصوتية إلىٰ ضعفين ، وبالتدريج يكتسب صوت الطِّفل الرقيق طنينَ صوت الإنسان البالغ ، وينمو الشعر في وجه الشاب وأماكِنَ أُخرىٰ من جسمه ، ويتخذ طفلُ الأمسِ مظهر وهيكل الإنسان البالغ في نهاية هذهِ المرحلة .

والجدير بالذكر أنَّ تحولات البلوغ لا تنالُ عظامَ الطفل وأعضاء جِسْمِه ، وتُغيِّرُ وضعَه الجسمي فَحَسْب ، وإنما تُغيِّر أوضاعه النفسية وميولهُ الروحيَّة تغييراً موازياً للتغيرات التي تظهر في البَدَنِ علىٰ أساسِ ترابُط النفس والجسم . ويحدثُ بهذا التحوُّل أن تختلف أفكارُ الإنسانِ غير البالغ عن أفكار الإنسان البالغ .

تغيُّر الرغبات الروحية :

«عندما يجري الحديث بيننا حول كلمة (البلوغ) ، فإنّنا نفكر بشكل سريع في سرعة نمو البدن ، والتغييرات الداخلية ، التي تؤدي إلى أن تتمكّنَ أجهزة الجسم من أداء جهود فترة التكامل والنضج . إن أوّل ما يلفت النظر هو سرعة نمو الجسم إذن فإن أوّل خطوةٍ لدراسة البلوغ ستكون سرعة النمو هذه . ولكن في هذا الوقت يظهر لنا شيءٌ جديد ، وهو أنه نتيجة ليقظة الرغبات والأمنيات في

هـذهِ السن تـظهـر حسـاسية في المشـاعـر تتحكّم بـالنشـاطـات والفعالياتِ النفسية حتىٰ لدىٰ ذوي الطبائِع الفعّالة والجدية .

إذن مـع سرعـة نمو الجسم يبـدأ (نمو) في القلب أيضـاً . وتقارب مسير هذين الخطين معاً ليس مُصادفةً ، وإنّمـا هو دليـل من الأدلّةِ علىٰ ارتبـاط الحياة الـذهنية بـالحياة الخـارجية التي تُـرىٰ مـظاهِـرُ وجودِها في كلِّ مرحلةٍ من المراحل»[١] .

«إن كل حركـة من حركـات عضلاتنـا وكل حـالةٍ مُعتـادةٍ لها معنىٰ نفسي خاص يجب أن لا يغفُلَ عن دراستهِ العالِمُ النفسِيُّ . بعبارةٍ أخـرىٰ يُظهِـرُ جسمُ الإنسان معـالِمَ الحياةِ الـروحية ، والشبـاب لا يُستثنون من هذه القـاعدة ولكن يجب أن لا نخلط بين النشـاطات النفسية والجسدية بالرغم من عمق العلاقات بينهما»[٢] .

والشباب البالغون حديثاً لهم وضعٌ خـاص بهم مِن الناحيـة النفسية فهم لا يُفكِّرُون كالصبيـان ولا كالـرجال الـذين هم في سن الثلاثين والأربعين . ولهـذا السبب أعَدَّ العلماءُ الباحثون حقلاً خاصاً لعلم نفس الشباب ، وقاموا بسلسلةٍ من التحقيقات العميقة والأبحاثِ الخاصَّةِ لمعرفةِ نفسية الشباب .

اختلال التوازن :

«موريس دبس يقول : يختل التوازن الجسمي والروحي لدىٰ ذوي سن الثـانية عشـرة والثالثـة عشـرة ، وتحـدث تغييـرات عميقـة في الجسم ويفقدون أخلاقَهُم وسلوكَهم وثبـاتَهُم واستقرارهم ويتـركون عادات الطفولةِ فيقذفُ الطِفلُ الكُرةَ والـدُّمية ، ويتّسـع خيالـهُ حتّىٰ يضُرَّ دراسته»[٣] .

(١) ماذا أعلم ؟ البلوغ ـ ص ٢٢ .
(٢) ماذا أعلم ؟ ـ البلوغ ـ ص ٤٢ .
(٣) ماذا أعلم ؟ ـ البلوغ ـ٨ .

«إن الشباب يتأثرون أسرع من الأطفال الذين هم في سن العاشرة فكلمة واحدة أو كناية أو إشارةٌ كافية لإيجادِ ثورةٍ لديهم . فتحمرّ وجوههم بلا سبب . وهذهِ الإثارات لا تُخلُّ بأعمالهم وحركاتهم فقط بل تشل فعالياتهم الفكرية والثقافية»(١) .

«ويترك الغضب الطفولي مكانه للحقد والكراهية ، وتحتلُ الرأفة والترحُّمُ مكانَ رقة الطفل و (الماليخوليا) التي لا وجود لها لدىٰ الأطفال هي إحدى الإنفعالات الخاصة في سن الخامسة عشرة»(٢) .

«في الوقت الذي يعيش الطفل حاضره . يبحث الشاب البالغ حديثاً عن مفهوم الزمن الروحي في الماضي والمستقبل ، والفعاليات الفكرية التي تهتم أكثر بالماضي والمستقبل تضع الحاضر في الدرجة الثانية من الأهمية ولهذا السبب فإنه من الصعب علىٰ الشاب البالغ حديثاً أن يواجهَ الحقيقة»(٣) .

حب الشاب للمجهول :

«إن الشباب يحبون الأُمور المجهولة ، لأنها أشياء جديدة توافق مولوداتِهم الذهنية أفضل من معلوماتِهم المستحصلة من التجارب . وهذهِ أهم مرحلة في الحياة إذ يتعلَّقُ الإنسان بالخيالات الشبيهةِ بالأساطير والأفكار الجميلة الباطلة خاصة لدىٰ الفتيات الشابات ، بشكل يصعب معهُ قبولهم لواقع الحياة . ومن الممكن أن تحدث اختلالات في بعض الأدمغة الرقيقة والحساسة»(٤) .

(١ ـ٢) ماذا أعلم ؟ البلوغ ص ٤٦ و ٤٧ .
(٣ ـ ٤) ماذا أعلم ؟ البلوغ ـ ص ٤٨ ـ ٤٩ .

«لاحظ (ماندوس) أن الشباب في الغالب يسعون إلىٰ أن تنسجِمَ البيئةُ معهم . لا أنْ ينسجموا هم معها . وتُحيرهم القرارات والضوابط الإجتماعية التي يواجهونها بعد خروجهم من الأُسرة والمدرسة ، فبعضهم يضطربون بشدّة ، وآخرون يخضعُونَ لها . وعدد قليل ينسجم معها ومن هنا يظهر التمرد وأساليب الفوضىٰ»[1] .

«تُصبح عبارات الشباب من حيثُ استخدام الكلمات وانسجام المواضيع أكثر غنىً مِن عباراتِ الأطفال في توضيح الأفكار العميقة ولكنّها في أغلبِ الموارد ليستْ سوىٰ ألبِسةٍ غير مُتناسبة» .

«في البدء يقلدون (بوسويه) في حين أنّ البحث لا يعدو موضوعاً معتاداً للمجلس الزراعي . والسبب هو أنهم تعلّموا كلماتٍ متعددة في مدةٍ قصيرة ، ولم تسنح لهم فرصة كافية لهضم وامتصاص هذهِ الكلِمات وتحديد موارد استعمالِها فيتصورون أنهم فهموها ، ولكن فهمهم في الغالب فهمٌ نصفيٌّ أو ناقِص»[2]

الشاب والعقل :

«إن الشباب لا ينسجمون مع العقل وهم يستصغرون الأحكام العقلية ويرونها تليقُ بالشيوخ ، فهم يفكرون مثل (إمرسون) الذي كان يريد أن يربط عربتهُ بأحد الكواكب»[3] .

الخلاصةُ هي أَنَّ ظاهرَ الشابِّ يتغيَّرُ بتحوُّلاتِ البلوغ ، فتتبدَّلُ قامتُه ، ويخرج من صفِّ الأطفال ويترك رغباته الطفولية ، ويلتحق بمجموعة الرجال ، ولكنه من حيث الحالات الروحية والنفسية ذو وضعٍ خاصّ به . ولعدمِ تأثير البلوغ في عقلِهِ تأثيراً عميقاً ، ولعدمِ تفتّحِ عقلِهِ يكونُ منطقهُ واستدلالُه وبرهانهُ

---

(١) ماذا أعلم ـ البلوغ ـ ص ٨٣ .

(٢ ـ٣) البلوغ ـ ص ١٠٧ ـ ١٠٨ .

غيـر موزونٍ وضعيفـاً ، ولا يُعنىٰ باستِـدلالِ ذوي الفَهْم ، ولاشتدادِ الأحـاسيس وبلوغها أوْجَها يكونُ مِزاجُ الشابِّ مستعداً دائماً للانتفاض والهياج . فالأحاسيس تتحكم وتسيطرُ على وجودِهِ بكلّ قوة . وتدفَعُه إلىٰ التصـرّفات العـاطفية الحـادة غير العقلانية .

مرحلة التخيلات :

إنّ مرحلة الشباب هي مرحلة التخيلات والأوهـام ، مرحلة الجـرأة والتهـور والإفـراط في العشق والمحبة ، مـرحلة الهيجـانـات الشـديـدة والعـواطف غيـر الموزونة . ومع كل ذلـك يجب أن لا يُتَّخَذَ الشـابُ موردَ لـوم أو توبيـخ ، لأن النفسية المضطربة للشبانِ ظاهرة طبيعية ومقدمـة لِلتكامـل ، أساسُهـا حكمةُ اللّهِ سبحانه وتعالىٰ في نظام الخلق .

قـال الإمام علي عليه السلام : «جهلُ الشباب معذورٌ وعِلمُهُ محصورٌ»(١). ولو كان الشبـاب علىٰ اتصال مـع الرجـال المُسنين العـالمين بـالأمـور يستشيـرونهم في تصمِيمـاتِهم الحـادة قبـل تنفيـذهـا ، لاستـطاعُـوا أن يجتـازوا مـرحلة الشبـاب المضطربة القصيرة بسلام ، ويستديموا حياتَهُم بسعادة وهناء .

سنوات الشباب :

أيـام الشباب العـاصفة التي وُصفت بـ (غـرور الشبـاب) قصيـرةُ المـدّة ، فجماعة مِن العلماء يحدّدونها بخمسِ سنوات ، ويقولون إن مرحلة الشباب تبدأ من سنِّ السادسةَ عَشْرة ، وتنتهي في سن العشرين .

ومـرحلةُ الشباب في رأي علمـاءَ آخرين عَشـرُ سنواتٍ تبـدأُ مِن الخامسـة عَشرة وتنتهِي في الخامسة والعشرين .

يُبتلىٰ الشباب في السنة الأُولى والثانية بعد البلوغ باضطرابٍ روحيّ وعدم

---

(١) غرر الحكم ـ ص ٣٧٢ .

اتـزانٍ نفسيٍّ شديـد ، حتّىٰ إنَّ طائفـةً مِن حالاتِهم تصـطبغُ بلونٍ من الجنـون . وَعدَّ فئةٌ مِن العلماء هذهِ الحالات ثماراً لسِمُومِ هرموناتِ البُلوغ .

جنون الشباب :

«أتْبـاعُ مدرسـة (كوبلن) يقـولون : إنِ جنـون الشبـاب هـو ضعفٌ عقلي سـريع يـظهر عنـد البلوغ ، ومن المحتمل أن يكـون نتيجـةً لِتسمُّمٍ داخلي ، واضطرابِ غدد الإفراز الداخلية»[١] .

كلما ابتعد الإنسـان عن مـرحلة الشبـاب ، ومـرحلة أزمـةِ البلوغ هَـدَأت عـاصفةُ الأَحـاسِيس وقلَّ عـدم الاستقرار النفسيّ ، ونَضَـجَ الشّـابّ عَقـلاً وفكراً واتَّزنت أخلاقُه واستقامَ سلوكهُ تدريجيّـاً ومدة هـذا التحول لـدى الشُّبَّانِ تتفاوت بحَسَبِ أوضاعِهم الطبيعيّةِ والتربوية فهي ليست واحِدَةً لدىٰ الجميع ، ولذا يَصِلُ بعضُهُم منزلة النضج والكمال مُبَكّراً ، ويصِلُ غيرُهُ متأخِّراً .

«أنتم تعـرفـون أن الفتيات والفتيـان الـذيـن يمـرون في ظـروف حياتيـة قـاسِيـة جدّاً ينتقلون من مرحلة الصِّبـا إلىٰ مرحلةِ الكمـال سريعاً ، ويبلُغونَ النُّضجَ وهم في حدود الثامنـة عَشرةَ من العمـر ، علىٰ العكسِ من ذلك أُولئِكَ المُتـرفُونَ المنعمـون ، فقد يَقضُـون الطُّفُولـةَ والبلوغ ، ويبقون علىٰ مـا هم فيه ، حتىٰ إنَّ بعضهم يبلغُ الثـانية والعشـرين أو الثالثـةَ والعشرين ولا يكـون رجلاً . ومـرحلة البلوغ كمرحلة الرشد ، قد تسرع وقد تتأخر»[٢] .

مرحلة الكهولة :

وتمضي أيامُ الشباب ، وتبدأ مرحلةُ الكهولةِ مِن سنِّ الحادية والعشـرين أو في الأكثـر من سنِّ السـادسـة والعشـرين . وَمَـعَ انتهـاء مـرحلة الشبـاب تنتهي

---

(١) الطب النفسي د . مير سپاسي ص ٢١٨ .
(٢) ماذا أعلم ؟ البلوغ ص ١٠ .

التحولات الجسمية والروحية والأزمات النفسية والبدنية . ونمو جسم الإنسان يصل في سنِّ العشرين إلىٰ نهايته وتثبتُ هَيئَتُه وإذا حَدَث فيه تغييرٌ كانَ طفيفاً جِدّاً . وأمَّا المخُّ الذي هو مركز العقل والفكر ومركز الصفات النفسية ، فلا يصل إلىٰ نهايةِ نموهِ في سِنِّ العشرين ، وإنما تمتدُّ أُحوالُ التكامل الطبيعي لأعمال المخ إلىٰ حدود سنِّ الخامسة والثلاثين .

نمو أعمال المخ :

«يعتقد (لانغ ورثي) أن نشاط المخ الإدراكي النفسي له ارتباط وثيق بسرعة تراكم مادة (ميلين) علىٰ سلسلة الأعصاب فإن أكثر سلاسل الأعصاب في المخ والنخاع مغطاة بمادة (الميلين) . ويمكن القول : إن هناك علاقة مباشرة وقريبة بين نمو الأعمال في المخ وتغطية سلاسل الأعصاب بمادة (الميلين) ، فأكثر سلاسل الأعصاب في المخ تُغطىٰ بهذهِ المادة حتىٰ سِنِّ البلوغ ، ولكن بعض سلاسل الأعصاب في قشر المخ تُغطىٰ تماماً في سني أواسط العمر»[١] .

يختلف الشبّانُ والكهول في الوضع النفسي وطريقةِ التفكير ، فالشباب كما أُشرنا يخضعون لتأثير عواطِفِهم الجيّاشة ، وينظرون إلىٰ كل شيء بمنظار الأحاسيس .

إن مرحلة الشباب هي مرحلة التمرد ، وعدم الإستقرار ، والهيجان والوهم والخيال والإفراط ، أي إنها مرحلة الأفكار غير المدروسة . وبالعكس ، ففي مرحلة أواسط العمر تخمد هيجانات الأحاسيس ، وتزدهر قوة العقل ، وكلّما تقدّم العمر ازدادَ الازدهار ، فتزداد بذلك ذخائر التجارب . ولهذا كانت مرحلة أواسط العمر مرحلة النظم والاعتدال ، والفَهْم والفكر والمحاسبَة والدراسة الواقعية وإدراك الحقائق أي : إنَّها مرحلة النضج والكمال .

---

(١) أمراض سلسلة الأعصاب في الأطفال . مرحلة الطفولة والبلوغ ص ٨ .

ومن الشواهد على ارتباطِ الجِسم والروح ، والنفس والبدن هو تأثير ترشُّحات الغدد الجنسيَّة على الحالات النفسيّة والصفات الأخلاقية . ويرى العلماء المتخصصون أنَّ للهورمونات الجنسيَّة دوراً كبيراً في التحوُّلاتِ الروحيَّة للشباب والرجال الذين هم في أواسط العمر .

الغدد الجنسية والحالات الروحية :

«يقول الدكتور كارل : الخصيتان هما أكثر الغدد المرشّحة في الداخل تأثيراً في قُدرتنا وحالَتِنا الروحية ، ولقد كان للفنانين والشعراء الكبار والقديسين والغزاة بصورة عامة رغباتٌ جنسيَّةٌ شديدة . إن إزالة الغدد الجنسيَّة حتى عند الأشخاص البالغين تؤدي إلى تغييرات في الحالات النفسية .
والنساء يُصبن بحالةٍ كآبة لدى إزالةِ المبيض لديهن ويفقدن قسماً من نشاطهن الفكري والحس الأخلاقي وأما الأشخاص الذين تُزال الخصيتان منهم بالعملية الجراحية فإنهم يفقدون شخصيَّتهم بالتدريج»(١) .
«يقول ويل ديورانت : في الخامسة والثلاثين يبلغ الرجل ذروة نضوجه ، محتفظاً بما يكفيه من أهواء السنوات الماضية ، ولديه النظرة الشاملة المستمدة من التجارب الواسعة والإدراك الناضج وربما كانت هذه الحالة موازية لدائرة الشهواتِ الجنسيَّة ، لأن الشهوة الجنسيَّة أيضاً تصل إلى ذروتها في الثانية والثلاثين ، وتكون في منتصف طريق يُوصل بين سن البلوغ وسن الفضيلة والكمال . وقد أظهرت (آليس) أن أكثر الرجال والنساء النوابغ في انجلترا ولدِوا من آباء وأُمهاتٍ كانت أعمارهم بين الثلاثين والثانية والثلاثين»(٢) .

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ١٣٦ .
(٢) مباهج الفلسفة ص ٤٩٦ .

الفوارق بين الكهل والشّابّ :

يأخذ العمل والإحساس بالمسؤولية محل اللعب واللهو للشباب ، في سنّ أواسطِ العمر ، ويتبدل التخيّل والأفكار الشاعرية إلىٰ المنطق والواقعيّة ويخضع التمرد وعدم الاكتراث لدىٰ الشباب إلىٰ السننِ الإجتماعية والقرارات العامة ، ويحل السكون والنُّضْجُ محل عدمِ الاطمئنان والصخب ، ومن ثم تأخذ أحاسيس الكهول مع تقدّمهم في السن تدريجياً نحو العجز الواضح ، وهذا العجز يؤثر في أفكارهم وأعمالهم ، ويحطم غرورَهم .

«إن قسماً من المحافظة المتزايدة التي يبديها من هم في أواسط العمر يعود إلىٰ العِلم والإطلاع علىٰ العادات والتقاليد المعقدةِ والأعراف ومعرفةِ معايب ونقائص رغباتهم ، ولكن القسم الآخر يعود إلىٰ النقص في القوىٰ الذي يؤدّي إلىٰ العِفَّةِ والأخلاق لدىٰ كبار السنّ . في البدء لا نصدق ولكننا عندَ اليأس نجدُ مخزنَ القوىٰ لا يمتلىءُ بما يستخرج مِنه أو كما قال شوبنهاور : إننا نأكلُ مِن رأسمالِ المال لا مِنْ عائداتهِ .

إن هذا الإحساس يَجعلُ الحياةَ لمدةٍ من الزمن مُظلِمةً كئيبة مفعمةً بالشكوىٰ مِنْ قصر الحياة»(١) .

«ولهذا نجد أن مرحلة الكهولة تجد سعادتها وكمالها في العمل والعناية بالأطفال . وكما نرى أن آمال مرحلة الشباب تتحول إلى العمل الجاد الهادىء الصبور في سنوات الكهولة ، فإن لذة الأعمالِ المنجزةِ تأخذ مكان أوهام غزو العالم ، وتُرَجِّحُ سِنُّ النضج جزيرَةً حقيقيةً علىٰ قارّة خيالية»(٢) .

---

(١) مباهج الفلسفة ص ٤٩٦ .

(٢) الفلسفة ص ٤٩٧ .

الكهولة والعقل والأخلاق:

خلالَ مرحلة أواسط العمر يصلُ مخُّ الإنسان إلىٰ كمالِه النهائي، وتزدهر قوة العقل بصورة جيدة، أما الأخلاق التي تعتبر جسر الإرتباط الاجتماعي ورمز الانسجام مع الناس فإنها ترسو على شاطىء الاستقرار. إن الرجال الذين بلغوا أواسط العمر يواجهون خلال فعاليّتهم مسائِل مختلفة، ويحصلون علىٰ تجارب كثيرة هي ذخيرة ثمينة في حياة الإنسان.

ولكن مع انتهاء سن الأربعين تنتهي مرحلة الكهولة وتبدأ مرحلة الشيخوخة مع كل ما فيها من ضُعفٍ وانهيار وبتقدّمها يزدادُ هذا الضعف.

بدء التقهقر:

«بعد سن الأربعين تظهر تغييرات تراجعية علىٰ جسم الإنسان، أي أن بعض الأنسجة تتحلل أو تصابُ بالتصلب، وتقل القوىٰ الحياتية بالتدريج، إلى جانب حدوث نقص في فعاليات الجسم.

وهذهِ الخسائر الظاهرية هي في الواقع مقدّمة لمرحلة الشيخوخة»[1].

«يقول الدكتور كارل: كلما تقدّمنا نحو الشيخوخة ازداد البروتوئين في سائِل الدم، وتغيَّرتْ خصائصه، خاصةً أن بعض المواد الدهنية تتفاعل مع الدم تفاعلاً يؤثر في بعض الخلايا فتقلل من سرعةِ تكاثرِها.

تبدأ الأنسجة الأصيلة في الجسم بفقدان فعاليتها بصورةٍ تدريجية، ويتم ترميمها ببطء، وأحياناً لا يمكن ذلك، ولكن سرعة هذهِ التغييرات تختلف في الأجسام، وبدون أن نعلم السبب الحقيقي لذلك نرىٰ أن بعض أعضاء الجسم تظهر عليها الشيخوخة أسرع من الأعضاءِ الأُخرىٰ، وتشمل هذهِ الشيخوخة

---

(١) كتاب الانسان ص ٤٦.

الموضعيّةُ أحياناً الشرايين أو القلب أو الكِلىٰ أو الخ»[1] .

ضعف الطفولة والشيخوخة :

إنِ المرحلة الأُولىٰ لحياة الإنسان أي مرحلة الطفولة ، وكذلك مرحلة آخر العمر ، أي : الشيخوخة ، يواكبها الضعف والعجز ، والإنسان في هاتين المرحلتين يحتاج إلىٰ مساعدة الآخرين والحدُّ الفاصلُ بين الطفولة والشيخوخة هو مرحلة قوة الشباب وأواسط العمر .

﴿اللّهُ الذي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضعفاً وشَيْبَةً يَخلُقُ ما يشاءُ وهو العليمُ القدير﴾[2] .

ينتهي الضعف والعجز قبل البلوغ مع بدء أيام القوة والشباب ويتوجه الأطفالُ بقلب مملوء مِن الأمل نحو هذهِ المرحلة ، وكل يوم يمضي عليهم يقتربون بمقداره من مرحلةِ الشباب ، فيُحسُّون بسعادةٍ وفرح . وبالعكس فإن الضعف والارتخاء والعجز بعد مرحلة أواسط العمر ينتهي إلى الشيخوخة ، فكلّ يوم يمضي من عمر الإنسان في هذه المرحلة فإنه يقترب بقدر يومٍ إلىٰ مرحلة الشيخوخةِ والهرم .

ازدياد العجز :

«كلّما كان الإنسان شاباً ازداد نماؤُهُ ، وكذلك يزداد الضعف والشيخوخة يوماً بعد يوم ، فكما أن الطفل لدىٰ ولادتهِ يحفظ بنوعٍ مِن التخدير والارتخاء ، كذلك يصحبُ سنَّ الشيخوخة نوع من عدم الإحساسِ والتخدير وضعف الإرادة فقبل أن يقوم الموت بعملهِ النهائي فإنَّ الطبيعة تُولِدُ نوعاً من التخدير العَامّ . وكلما كانت درجة القوة والحساسية في المشاعر منخفضة كان النشاط ضعيفاً وتحوِّله الرغبةُ في الحياةَ إلىٰ عدم اكتراثٍ وانتظارٍ صبورٍ

---

(١) الانسان ذلك المجهول ص ١٦٤ .

(٢) سورة الروم الآية ٥٤ .

للموت ، ويختلط الخوفُ مِنَ الموت بشكلٍ عجيب مع الرغبة في الإستراحة»[1] .

قال علي عليه السلام :

«فهل ينتظر أَهْلُ بَضاضَةِ الشَّبابِ إلاّ حَواني الْهَرَم»[2] .

وعنه عليه السلام : «ما أقرب الدنيا من الذهاب والشَّيبَ مِن الشباب»[3] .

أعراض الشيخوخة :

مع التقدم في العمر نحو الشيخوخة تحدث تغييرات في الجسم والروح ، وكلما طال العمر اتّسعت مظاهِرُ الشيخوخة وأخذت قُوىٰ الجسم بالإضمحلال تدريجياً وبموازاة ذلك تحدث تغييرات نفسية أيضاً ، حيث يدب الضعف في الذاكرة وفي خزن المعلومات ، وتسير قوة الذكاء والفكر نحو الركود وفي النهاية يواجهُ الجسم والنفس عوارض آلام الشيخوخة .

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ في الخَلْقِ أفلا يَعْقِلون﴾[4] .

أي سنبدل قوته بضعف ، وكماله بنقص ، وذاكرته بنسيان ، ونشاطه بخمول ، واقتداره بعجز ، وحيويته بذبول ، وجماله بقبح .

اختلاف الأوضاع :

الجدير بالذكر أن البشر يختلفون من حيث بنية الجسم ، ولهذا السبب فإن ظهور عوارض الشيخوخة ليست متساوية بين الأشخاص ، فالبعض تظهر عليهم الشيخوخة في سنٍ معيَّنة إذ تكون هذه الظواهر شديدةً وبارزةً في الجسم والنفس بينما نجد أشخاصاً آخرين في نَفْس السن لا تظهر عليهم الشيخوخة بنفس تلك النسبة وربما تعرضوا لذلكَ بعد سنواتٍ أيضاً .

---

(١) مباهج الفلسفة ص ٥٠١ .

(٢) نهج البلاغة . خطبة ٨٢ .

(٣) غرر الحكم ص ٧٥٤ .

(٤) سورة يسٓ الآية ٦٨ .

الشيوخ والذكاء والذهن :

«يقول شارل ريشيه : تضعف قوىٰ الذهن وجميع القوىٰ المتعلقة بها بالتدريج حتىٰ سن الخامسة والأربعين ، وبعد هذهِ السن تضعف بسرعة . والأشخاص الذين يعمّرون كثيراً ويضعفون تزول عنهم قوة الذهن ، ولكن بالعكس فإن قوة الإبداع والابتكار ، التي تنبع من الذكاء والفراسة ، تصلُ إلىٰ ذروتها بين سنّ الثلاثين والأربعين حتىٰ الخمسين ، ثم تأخذ بالضعف بعد سِنّ الخامسةِ والخمسين والستين بالتدريج ، وتصابُ بالركود في الخامسةِ والسبعين رغم أنه يوجد في مثل هذهِ المرحلة نوابغُ في العالَم جعلوا هذا الافتراض أو القاعدة في موقع التردد والشك»[1] .

تجارب العمر :

والأشخاص الّذين يجتازون مرحلة الشباب والكهولة ويعيشون في الشيخوخة ، لهم أفكارهم الخاصة ، ولهم رغبات تنسجم مع ضعف وعجز الجسم والتحولات الروحيّة . وهؤلاء قد ذاقوا الحرَّ والبرد واجتازوا تضاريسَ كثيرةً في الحياة ، وتلقوا في مدرستها تجارب فنضجت أفكارُهم . ولكنهم مع الأسف فقدوا أيام الشباب التي هي مرحلة التحرك والنشاط ، وأصبحوا ضعفاء الآن . وعندما يرون تسرُّعَ الشبابِ في اتّخاذِ رأيهم دون دراسة ومحاسبة ، ينظرون إلىٰ أسلوبِ تفكيرهِم باستصغار ويأسَفون علىٰ غفلتِهم وعدم تجربتهم .

«إنّ أكثر الناس في سِنّ الأربعين ليسوا غير ذكرىٰ ورمادٍ لنارٍ كانت ملتهبةً يوماً ما ، والشيء المحزن في الحياة هو أن العقل والحكمة يكتملانِ في وقتٍ يكون فيه الشباب قد مضىٰ . ليت الشباب كان يَعْلَم ، وليت الشيخوخة كانت ذات قوة !!»[2] .

---

(١) ابق شاباً لمائة وخمسين عاماً ـ ص ١٤ .

(٢) مباهج الفلسفة ـ ص ٤٩٢ .

الشيوخ والحياة الهادئة :

وهؤلاء عندما يرون جسمهم الضعيف وأعصابهم المتزلزلة يقلقون ويخافون من الأعمال التي تستلزم القوة والنشاط الشديد ، ويبتعدون عن الأعمالِ المستلزمةِ للحركةِ ، ويأملون أن يعيشوا في جوٍّ اجتماعي وأُسَرِيٍّ هادِئ ، ليتمكنوا مِن قضاءِ مرحلةِ الشيخوخة براحةٍ وطمأنينةٍ وإمضاءِ بقيةِ العمر في سكون وهدوء .

«إننا كلما انسجمنا مع البيئة التي نعيش فيها خشينا متاعِبَ الانسجام المجدَّد في حالة حدوث تغييرات جديدة أساسية . إننا نفضل بعد سن الأربعين أن تصبح الدنيا هادئة وصامتة وأن تتجمد صورة الحياة المتحركة فتصبح لوحة ثابتة»[1] .

خلاف الأجيال :

الشباب والكهول والشيوخ مجبرون علىٰ العيش والإنسجام مع بعضهم البعض رغم أفكارهم المختلفة والمتناقضة والمتضادة ، وأن يتعاونوا في جميع الشؤونِ الماليةِ والإقتصاديةِ والثقافية والسياسية والأخلاقية والعملية ، ويبذلوا المساعي في جميع الأُمور. وهم يعيشون معاً في صفاءٍ ومحبَّة وسلام عند اتفاقِهم ولكنهم قد يختلفون في بعضِ الأُمور ، فكل طرف ينظر إلىٰ الموضوع بمنظاره ، ويعمل وفقاً لذلك ، ويريد أن يفرض رأيهُ علىٰ الآخرين، وبسبب ذلك تقف كل مجموعة بوجهِ المجموعة الأُخرىٰ وتبدأ مرحلةُ التنافر والعداء .

تناقض الشيخوخة والشباب :

«يقول ويل ديورانت : إن عمل مرحلة الشباب يتمثل في شوقٍ حادٍّ إلىٰ الأفكار الجديدة ، ويرىٰ في ذلك وسيلة ممكنة للسيطرة

---

(١) مباهج الفلسفة ـ ص ٤٩٦ .

الكثيرة علىٰ البيئة ، بينما عمل الشيخوخة معركة لرفض الجديد لا ترحم .

وهذا النضال هو لامتحانِ قدرة الفكر الجديد قبل أن يُعمل به في المجتمع . وأما عمل مرحلة الكهولة فهو التوفيقُ بين الأفكارِ الجديدةِ ومحدودياتِ العمل ، والسعي لإيجاد الطرق الكفيلة لتنفيذ ذلك قدر الإمكان . الشباب يقترحون والشيوخ يُخالفون ، ومتوسطو العمر يُعيِّنون كلفة ذلك وحجمه .

إن مرحلة الشباب تعني سيطرة الدور الثوري ، ومرحلة الشيخوخة تعني سيطرة العادات والتقاليد ، ومرحلة الكهولة تعني مرحلة البناء الجديد .

يقول نيتشه : إن عمل الإنسان يُشبِهُ صنع الفحم في الغابة ، فبعد إخماد نار الشباب وتبديل الخشب إلىٰ فحم يصير معدّاً للإستفادةِ منه . ولكن إذا كان هناك نار ودخان ، ربما تكون جيدة ، ولكنها تكون غير مريحة ولا مفيدة .

إنَّ الشباب يعني عصر الخيال والرومانطيقية ويغلب عليه الإحساس والخيال . وأما الشيخوخة ، فتعني الرغبة في القديم و (الكلاسيك) وتميل إلىٰ النظام والمحافظة أكثر من الهيجان والتحرّر .

ومرحلة الكهولة هي بين تلكما المرحلتين وتستفيد منهما في عملها وتمدُّنا بإرادةٍ منظمة وصفاء ذهن لإيجاد اعتدالٍ في رغباتِنا ومطالِبنا»[1] .

---

(١) مباهج الفلسفة ص ٤٩٧ .

متطلبات مراحل العمر :

«لكلِ سنٍ من سني العمر محاسن وعيوب ، ولها تكاليف ولـذّات كما أَنَ ارسطو يرىٰ الفوقَ والحكمـةَ في الطريق الأوسط . ويمكن تنـظيم صفـات الشبـاب والـذين هم في أوسطِ العمـر والشيـوخ بشكلٍ يصبح معه بالإمكانِ تقسيمُ حياةِ الإنسان وفقاً لذلك مثلاً :

ميولُ مراحلِ العمر :

الشباب	الكهولة	الشيخوخة
الغريزة	الاستقراء	البرهان
التجدّد	العادة	العادات والتقاليد
اللعب	العمل	الاستراحة
الخيال	الذكاء	الحافظة (الذهنية)
النظرية	العلم	الحكمة
التفاؤل	الاعتقاد بالسعي	إساءة الظن
التسرع	التحرر	المحافظة
الاستغراق في المستقبل	الاستغراق في الحاضر	الاستغراق في الماضي
الشجاعة	الاحتياط	الخوف
عدم المبالاة	النظام	السيطرة
التردد	الاستقرار والثبات	الركود والجمود
عدم التجربة	التجارب	النّضْج»[١]

عوامل عدم التفاهم :

النتيجـة المستحصلة أن أول عـامـل من عـوامـل التفـاهم بين الشبـاب والكهـول والشيوخ في الأُسـرة والمجتمع ، هـو الاختلاف الـطبيعي في أُسلوب

---

(١) مباهج الفلسفة ـ ص ٤٩٥ .

التفكير وفي أخلاق هذهِ الفئات الثلاث ، فكل فئة تنظر إلى المسائل من زاويتها الفكرية ، ومعيارهم لصحة أو عدم صحة ذلك هو فكرهم وتصورهم حيث يعملون وفقاً لما يمليه عليهم تشخيصهم للمسائل بينما من المحتمل أنهم في الكثير من المسائل يخطئون حيث يمكن أن تكون هذهِ المسائل مخالفة لمصالح الأسرة والمجتمع .

﴿قل كل يعمل علىٰ شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدىٰ سبيلاً﴾[1] .

ومن الممكن ، مع ملاحظة مطالب الشباب والشيوخ ، أن يطرح هذا السؤال : لماذا خلق الله تعالىٰ رغبات هذهِ الأجيال الثلاثة مختلفة ؟ ألم يكن من الأفضل لو أنه سبحانه وتعالىٰ خلق أُسلوب تفكيرهم واحداً لكي لا يبرز اختلاف في الأُسرة والمجتمع ؟ أم هناك فائدة من وجود الاختلافات والتضاد تصب في سعادة الفرد والمجتمع ؟ .

الجواب : إن مسألة تضاد الموجودات ، من السنن الإلٰهية في جميع المظاهر الطبيعية والاجتماعية ، فالخالق القادر ، ولحكمةٍ منه أوجد نظام العالم المخلوق على أساس التخالف والتضاد وجعلهما وسيلة لبقاء العالم وتكامل موجوداتهِ .

إن قوتي الجذب والدفع قوتان متضادتان خلقتا بأمرٍ إلٰهي ، وقد قام نظام الأجرام السماوية علىٰ أساس هاتين القوتين . القوة الجاذبة تجذب الأجرام السماوية الصغيرة نحو الأجرام السماوية الكبيرة ، وأما القوة الدافعة فهي تحدث التعادل وتمنع التصادم بينها ، وبالتالي فإن الجرم المجذوب يبدأ بالحركة في مدار معين حول الجرم الجاذب .

الحياة والموت قانونان متضادان وجدا بحكمةٍ إلٰهية في نظام الخليقة ، فقوة الحياة ، وضمن شروط خاصة ، تبعث الحياة في العناصر الطبيعية والمواد

---

(١) سورة الإسراء ؛ الآية : ٨٤ .

المعدنية ، وهي تحفظ الموجودات الحية ، طالما هي حية ، وأما قوة الموت فهي تقضي على الأشخاص المعمرين والمستهلكين ، وتعمل العناصر الطبيعية على تجزئةِ أجسامِهم وتعود بها إلى مخازن الطبيعة ، وبهذهِ الطريقة تمهد لإعادة البناء في عالم الموجودات الحية .

قال علي عليه السلام : «ضادَّ النُّورَ بِالظُّلمَةِ وَالوُضُوحَ بِالبُهمَةِ والْجُمُودَ بِالبَلَلِ وَالحَرُورَ بِالصَّرْدِ مُؤلفٌ بَيْنَ مُتعادِيَاتِها ، مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا ، مُقَرِّبٌ بَيْنَ مُتَباعِداتِها مُفَرِّقٌ بَيْنَ مُتَدانِياتِها»[1] .

تضارب الأفكار والتطور العلمي :

إن التضاد والمخالفة الطبيعية والاجتماعية من أكبر عوامل تحرك الإنسان ، ومن أقوى وسائل التقدم . إن ضغط التضاد يُنشط الكفاءات الكامنة في الإنسان ، فتزدهر الطاقات الإنسانية الكامنة ، ويفتح أمامهُ طريق السمو والتكامل .

إن لم يكن هناك تضاد الجوع والحياة لما سعى الإنسان للحصول على الغذاء ، ولما تقدّمت الزراعة هذا التقدم العلمي . وإذا لم يكن هناك تضاد بين الصحة والمرض لما توصل الإنسان لمعرفةِ خواص المواد الطبيعية والأعشاب ، ولما تقدم هذا التقدم في علم الكيمياء ، ولما وُفق في صناعة التركيبات الكيمياوية ، وإذا لم يكن هناك تناقض بين الظلام وفعاليات الحياة لما توصل الإنسان إلى السر المحيّر للقوّة الكهربائية ولما أضاءَ عالمهُ المظلم هكذا .

وإذا لم يكن تضاد أفكار العلماء في المباحث العلمية ، وقيام مجموعة بنقد النظريات العلمية لمجموعاتٍ أُخرى لما تقدم العلم البشري بهذهِ الصورة ولما وصل إلى درجةٍ عالية . ولولا تضاد الغرائز الحيوانية والتحكم الوجداني الأخلاقي لما وُجد الأشخاص ذوو الإرادة الذين يتسلطون على أهوائهم فيصلون

---

(١) نهج البلاغة . خطبة ٢٢٨ .

بذلك إلىٰ المقام الشامخ للتقوىٰ ومكارم الأخلاق .

الخلاصة : إن هذهِ الأمثلة وعشرات الأمثلة الأُخرى تكشف عن هذهِ الحقيقة وهي أن التضاد والمخالفة توجد في جميع الشؤون الإجتماعية والطبيعية ، والضغوط الناتجة عن التضاد ، تدفع بالإنسان نحو الفعالية والنشاط ، وبهذهِ الطريقة يُفتح أمامهُ باب التقدم والرقي فيَصِل الإنسان بالتالي إلى مدارج العلو والتكامل .

الحرب والتقنية :

باعتقاد العلماء أن القسم الأعظم لتقدم الصناعة والتقنية حَصَلَ الإنسان عليه أثناء الحروب واشتداد المواجهة والمعارك العسكرية . فضغط الحرب والإحساس بالخطر كانا يهزّان العلماء بشدة ، فكانوا يضطرون للإستفادة من المصادر الطبيعية إلىٰ أقصى حدّ ، وأن يزيدوا من سرعةِ وقدرة المحركات عبر ابتكاراتهم الجديدة ، وأن يزيدوا من صنع أسلحة أكثر دماراً وتخريباً ، لكي يتمكنوا عن هذا الطريق من قمعِ العدو ولحفظ بلادهم من السقوط والدمار الكامل .

«يقول راسل : لقد كانت الحرب الوسيلة الأساسية للوحدة الاجتماعية عبر التاريخ . ومنذ المرحلة العلمية صارت الحرب أكبر محرك للتقدم التقني»[1] .

«يقول جون ديوي : إذا لاحظنا جيداً أهمية ودور الغريزة الكبير في حياة الإنسان ، فإننا نواجه أحد أكثر الجوانب سلباً في تاريخ الإنسان ، ونكتشف هذهِ الحقيقة البارزة وهي ضآلة تأثير العقل وقيادتهِ في تقدم الإنسان وبالعكس ، ومدىٰ تأثير الحضارة من الحوادث والوقائع غير المترقبة .

---

(١) تأثير العلم على المجتمع ص ٥٥ .

مثلاً إننا مدينون للقسم الأعظم من تقدمنا المحيّر والتغييرات الاجتماعية ، للحروب ، والانقلابات ، وظهور الرجال الكبار ، والهجرات الجماعية نتيجة نشوب الحرب ، وكذلك المجاعة وقد لوحظ مراراً أن ظهور قبيلة وحشية ، يؤدي إلىٰ أن تَدُبَّ حياةٌ جديدة في جسم الشعوب المتعب»[1] .

التضاد الداخلي للانسان :

الجدير بالذكر أنه لم يوجد فقط تضاد وخلاف بين الإنسان وقسم من الموجودات في هذا العالم ، بل يوجد تضاد أيضاً في داخل الإنسان نفسهِ وفي رغباتهِ ، وهذا التضاد هو من خلقِ الله تبارك وتعالىٰ ، ولذا فإن باطن كل فرد ساحةُ صراع للرغبات المتضادة .

مثلاً فإن غريزة التقليد وغريزة عدم التقليد ، غريزتان متضادتان نشطتان في باطن الإنسان ، فغريزة التقليد تدعو الإنسان لاتباع هذا وذاك ، بينما غريزة عدم التقليد تدفع بالإنسان للتمرد على أُسلوب الآخرين .

الإنسان يستفيد ، بغريزة التقليد من تجارب القدماء ، ويتّبع البرامج العلمية والعملية للآخرين ويستثمرها . بينما بغريزةِ عدم التقليد يحرر نفسهُ من أعمال القدماء ويستخدم حسَّ الإبتكار في نفسهِ وبالتالي يصل إلىٰ أساليب جديدة ويحصل علىٰ مواضيع جديدة غَفَلَ عنها القدماء .

الرغبات المتضادة :

«يضع (يونك) أهمية بالغة للرغبات المتضادة المتصارعة في باطن الإنسان ، وهو ، كقاعدة عامة ، يؤمن بأنهُ توجد مقابل كل رغبة ، وكل إحساس وعاطفة ، حالة ضد كل ذلك في الإنسان ، مثلاً يوجد مقابل الرغبات الظاهرية البارزة والمشهورة ، رغبات باطنية

---

(١) الأخلاق والشخصية ص ١٠٢ .

شديدة وخفية ، أو وجود تفوق الاستدلال الظاهري مقابل تفوق الإحساسات الباطنية الخفية ، بشرط عدم اعتبار أن هذهِ الأشياء مضادة أو مغايرة بعضها لبعض . إن هذهِ الظواهر والحالات المتضادة تكمل في الحقيقة إحداها الأُخرى وهدفها إيجاد التوازن والوحدة في روح الإنسان . ويعتقد (يونك) أن الشخص العصبي هو ذلك الشخص الذي تكون لديه إحدىٰ هذهِ الحالات أو الإحساسات أو العواطف المتضادة من طرف واحد ، أو بصورة احتكارية ، وفي تلك الحالة فإن توازنهُ الروحي يختل فتظهر عليه الحالات العصبية . وقد أطلق (يونك) فرضيتَهُ ونظرياته حول إيجاد التوازن بين الرغبات والعواطف المتضادة بـ (القانون المكمل)[1]» .

قياس الرغبات :

لقد وجدت الرغبات المتضادة في الإنسان بأمرٍ إلٰهي وليس عبثاً ، وإنما علىٰ أساس من الحكمة والمصلحة . فإننا لو استطعنا أن نقيس كل واحدة من هذهِ الرغبات بصورةٍ صحيحة وفي مكانها ، فإننا نكون قد خطونا نحو سعادتنا ، واذا استخدمناها دون تفكير ودراسة فقد ألقينا بأنفسنا في ظلمات البؤس والتعاسة .

الإمام علي عليه السلام قد أشار في إحدى كلماتهِ القصار إلىٰ بعض الصفات المتضادة للإنسان ، وينبِّه في ختام حديثهِ إلى لزوم قياس الرغبات وخطر الإفراط والتفريط ، حيث يقول عليه السلام :

« . . . . . فكلُّ تَقصيرٍ به مُضِرّ ، وكلُّ إفراطٍ له مُفسِدٌ»[2] .

---

(١) تناقضاتنا الداخلية ص ٢٧ .

(٢) نهج البلاغة . الكلمة ١٠٥ .

تعديل الأفكار :

إن تضاد أفكار الشباب والكهول والشيوخ قد خلقت من قِبَل الله عز وجل كسائر الأفكار الظاهرة والخفية للموجودات الأخرىٰ ، وقد خُلِقت علىٰ أساس من الحكمة والمصلحة ، ولو أن أبناء هذهِ الأجيال الثلاثة تمكنوا من تعديل أفكارهم المختلفة ، ودرسوا نظرياتهم وفق مقياس صحيح فسوف لن يظهر بينهم عداء وخصومة ، وإنما ستكمل أفكار كل فئة أفكار الفئةِ الأخرىٰ . ولكن إذا أصرَّ كل واحد من هذهِ الأجيالِ علىٰ أفكارهِ بعناد ، وأراد فرض آرائهِ علىٰ الآخرين فمن المؤكد أن ذلك سيؤدي إلى الخصومة فيما بينهم ، وبالتالي ستتعرض حياة الأسرة والمجتمع لاختلافاتٍ وفوضى مزعجة .

لا شك أن الغرائز نعمةٌ كبيرةٌ وثمينة غرستها الإرادة الإلٰهية في باطن الإنسان ، واختلطت مع كيانِهِ . إن الغريزة عمياء لا تشعر ، ولكنها تطالب ، بشكل طبيعي ، بإشباعها ، وتُريدُ بأي شكلٍ كان أن تصلَ إلى أهدافِها . ولكننا نعلم أن حرية الغريزة بشكلٍ مطلق لا تنسجم مع أساسِ الحضارة والنظام ، والقانون ، والمجتمع ؛ إن الحرية اللامحدودة للغرائز تؤدي إلىٰ الحرب والخصومة ، وتقضي علىٰ الراحةِ والأمنِ اللذين هما أساس سعادة الفرد والمجتمع .

تحديد الغرائز :

. إن حفظ مصالح المجتمع وضمان سعادة الإنسان يستوجبان قياس الرغبات الغريزية بمقياس العقل والقوانين العادلة وجعلها بما يرضي المصلحة العامة . بعبارةٍ أخرىٰ يجب أن نسلك أُسلوباً لا تُقمع فيه الغرائز ولا نترك لها الحبل على الغارب في سبيل أن تصل إلى أهدافها بحرية . وكما أن الإنسان لكي يحافظ علىٰ الحضارة ونظام المجتمع ، مجبرٌ علىٰ القبول بالضوابط القانونية ، وأن يصرف النظر عن جزءٍ من رغباتهِ ، كذلك الشباب والشيوخ ، فلضمان مصالحهم وسعادتهم وللحيلولة دون حدوث اختلاف وتضاد ، وللحفاظ

على جو المجتمع والأُسرةِ علىٰ أفضل وجه ، يجب عليهم أن يغضوا النظر عن بعض تمنياتهم وآرائهم التي ترتبط بسني عمرهم ، لكي يوازنوا بين مطالبهم ويعملوا لصالح أنفسهِم والمجتمع بصورة جماعية ، فيعيشون جنباً إلىٰ جنب في جوٍ يسودهُ المحبة والصفاء بعيداً عن المشاجرة والتضاد .

مثال : إن طباع الشباب تميل إلى كل ما هو جديد ، فهو يتجه نحو الأفكار والآراء الجديدة ، يقرأ الكتب التي تتحدث بلغةٍ جديدة ، ويبحث عن الأخلاق والآداب الجديدة ، ويرغب في أن يكتب بأُسلوبٍ جديد ، ويتحدث بلغاتٍ جديدة ، يحب الشعر الجديد والرسم الجديد ، ويميل إلىٰ حلاقةٍ جديدة وكذلك في ملبسهِ ، وبناء بيتهِ ، وأثاث منزلِهِ وغرفتهِ ، الخلاصة يحب كل ما هو جديد وحديث .

بينما طبع الشيوخ يميل إلىٰ السنن والآداب القديمة ، ولا يرغبون الأشياء الجديدة ، ويودون أن يبقىٰ كل شيء في مكانه ، وأن لا يتغير أُسلوب الحياة ، ولا تتبدل التقاليد والعادات ، ولا يظهر أي اختلاف في شؤون المجتمع ، وتبقى الأُمور وفق ما كانت عليه في السابق كما اعتادوا عليها .

آراء مختلفة :

إذا أراد المجتمع أن يتّبع آراء الشباب وينفذ مطالبهم مائة بالمائة ، عليه عندئذ أن يترك الكثير من مبادئهِ الإيمانية وأُصوله القانونية والأخلاقية ، ويتجاهل الكثير من الآداب والسنن الإجتماعية والأُسرية التي فيها الصلاح المادي والمعنوي للناس ، وهذا العمل ينافي بالتأكيد مصلحة وسعادة المجتمع .

ولو أراد المجتمع أن يتّبع آراء الشيوخ ومطالبهم مائة بالمائة عندئذ يجب عليه أن يحافظ علىٰ كل شيء كما هو ، ويخالف أي تحول وتجدّد ، فيغلق باب التقدم والتكامل بوجه الناس ، ويمنعهم من الحركة والنشاط والتقدم وهذا العمل ليس في صالح المجتمع .

إن الطريق الصحيح للإستفادة من الآراء المتضادة لهذين الجيلين هو أن

يعملا على تعديل مطالبهما ورغباتهما وفق مقياس صحيح للحصول على توافق وانسجام فيما بينهما، وليكمل أحدهما الآخر ، وبذلك سيستفيد المجتمع إلىٰ أقصى حد من هذا التضاد .

مسؤولية الجيل القديم :

يجب علىٰ الجيل القديم أن يحافظ على الأعراف والأُصول التي تشكل البنية الأساسية لسعادة البشر حتىٰ تكون لصالح المجتمع تماماً وأن يدافع عنها بكل عزم وقوة وأن لا يسمح بتدمير هذا التراث الثمين على مذبح رغبات الشباب غير المدروسة . ولكن ، فيما يتعلق بالأُمور العادية التي لا تؤثر على سعادة المجتمع ، عليه أن لا يُبدي عناداً أو تعصباً للحفاظ عليها .

مسؤولية جيل الشباب :

وعلى جيل الشباب أن يتحاشى تغيير المسائل الأُصولية التي تشكل سعادة المجتمع ، ولا يقترب منها ، وأن يوجّه رغباتِه الجديدة نحو مجاريها الصحيحة المثمرة ، يأخذ العلوم الجديدة ، ويتعلم الأساليب الحديثة ، ويستخدمها في أعماله ، وبهذه الطريقة يجدد المجتمع ويغيّر وجه الحياة ، ويقود الناس خطوة نحو التقدم والرقي .

في الشرح الذي سيأتي في الفصول القادمة سيتضح أن أئمة الإسلام الكرام قد بيّنوا حدود إرضاء رغبات الشباب والكهول والشيوخ ، وذكروا في تعاليمهم واجبات كل فئة من هذهِ الفئات الثلاث، كفرائض دينية وضوابط أخلاقية ، ودعوا أتباعهم لأداء هذهِ الأوامر . وبهذه الطريقة قاموا بملائمةِ الرغبات المتضادة للأجيال الثلاثة وبالتالي الابتعاد عن أسباب الخلاف والجفاء .

المحاضرة الثانية :

إحترام شخصية الشيخ والشاب

«أوصيكَ أَنْ تَتَّخِذَ صَغيرَ الْمُسلِمينَ وَلَداً وَأوسَطَهُمْ أَخاً وكَبيرَهُمْ أباً» .

[الإمام الصادق]

احترام الشخصية :

إن أحد أهم عوامل الانسجام وحسن التفاهم بين الشيوخ والشباب في محيط الأُسرة والمجتمع ، هو احترام شخصية جميع أفراد هاتين الفئتين ، والإهتمام بهم ، وأن لا يرى نفسه في أي سن كان ، مهاناً وأن لا يشعر بأي مَسٍّ مهين لعزّة نفسِهِ وشخصيتهِ ، وأن لا يحس بعدم الإطمئنان وفقدان الأمن .

ويفرح الإنسان لدىٰ احترام الآخرين له ، ويعتبر ذلك من أكبر حالات السعادة بالنسبةِ له ، بينما يشعر بعدم الارتياح والغضب لدىٰ توجيه الإهانة والاحتقار إليه ، ويعتبر ذلك تصرفاً سيئاً يوجَّه إليه . والإنسان ، طبيعياً يُحب من يعمل الخير له ، ويعادي من يعمل لهُ السوء .

قال رسول الله : «جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلىٰ حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْها

وَبُغْضِ مَنْ أساءَ عَلَيْهَا»[١] .

الحب الفطري :

جميع أفراد البشر على اختلاف مشاربهم يحبون أن يكونوا موضع تكريم واحترام ، ونحن إذا اعتبرنا الآخرين مثلنا ، ووضعنا أنفسنا موضع قياسٍ في المعاشرة والاختلاطِ بهم ، واحترام شخصياتهِم ، طبقاً لهذهِ الرغبة الفطرية فإننا نستطيع بسهولة أن نجذب محبتهم واحترامهم ونعيش معهم بحسنِ تفاهم .

معيار التعايش :

جَاءَ أَعْرابيٌّ إِلَىٰ النَّبي صلى الله عليه وآله وسلم فَقالَ يا رَسُولَ اللّهِ علِّمْني عَمَلاً أَدْخُلُ بِهِ الجنَّةَ ، فَقَالَ : «ما أَحْبَبْتَ أَنْ يَأتِيَهُ النّاسُ إِلَيْكَ فَأْتِهْ إِلَيْهِمْ ، وَمَا كَرِهْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَلا تأْتِه إِلَيْهِمْ»[٢] .

فكما نُبدي نحن عدم الارتياح لإهانةِ الآخرين لنا ، ونقوم برد فعلٍ مهين ، كذلك فإن إهانتنا للآخرين تؤدي إلىٰ عدم الارتياح ، وتؤلم ، فإذا واجهنا إهانتهم بردّ فعل مماثل عندها يجب أن نلوم أنفسنا .

قالَ الصَّادِقُ عليه السلام : «مَنْ يَفْعَلِ السُّوءَ بالنّاسِ فَلا يُنْكِرِ السُّوءَ إذا فُعِلَ بِهِ»[٣] .

رمز النجاح :

إن احترام شخصية الناس يؤدي إلىٰ جذب المحبة ، وهو رمز النجاح والتوفيق . وإهانة وتحقير الناس وسيلة لإيجاد الحقد والعداء وسبب للحرمان والفشل ولكي يقف الشباب والشيوخ علىٰ أهمية تكريم بعضهم لبعض ، ويتعرّفوا علىٰ دور ذلك في التفاهم الأُسري والاجتماعي بصورةٍ أفضل

---

(١) تحف العقول ص ٣٢ وفيه من أساء إليها .
(٢) وسائل الشيعة كتاب الجهاد ص ٣٩ .
(٣) بحار الأنوار ج ١٧ ص ١٨٤ .

سنتحدث في هذا الفصل عن هذا الواجب المهم دينياً وعلمياً ، وسندرس في البداية محيط العائلة ، ثم محيط المجتمع .

إن الأُسرة تتألف من فتى وفتاة ، وأب وأُم في مرحلة الكهولة ، وجد وجدة كبيري السن ، مع عددٍ من الأطفال وخادم أو خادمة ، هم بمثابة دولة صغيرة . فالوالدان مسؤولان بالتعاون مع بعضهما البعض ، بالأُمور الإقتصادية وإدارة النظام الداخلي والمحافظة علىٰ مصالح الأُسرة ، فهما بشكلٍ طبيعي ، يحكمان العائلة .

إن هذا (البلد الصغير) يكون منعماً بالأمن والهدوء والتعاون والتفاهم عندما يكون الوالدان ، أي السلطة الحاكمة ، يراعيانِ حقوق وحدود أعضاء العائلة ويحترمان شخصياتهم . ويتصرفان معهم على أساس الحق والفضيلة والعدل والإنصاف ، ومن جانب آخر يقوم أعضاء العائلة بأداء حقوق الوالدين ويحترمون شخصيتهما ، ويقدرون خدماتهما .

ولكي لا يصاب الشباب والكهول والشيوخ بحالةِ تطرف في الإندفاع أو عدم الإندفاع في احترام بعضهم بعضاً ، ولا يتجاوزوا حدود المصلحة ، فمن الضروري :

أولاً : أن تعرف كل مجموعة حدّها بشكلٍ جيد ، وتتبين مطالبها الصحيحة والخاطئة وأن تتوقع احترام الآخرين بالمقدار المناسب .

ثانياً : أن تطلع على حدود الآخرين ، وتفصل بين توقعاتهم الصحيحة والخاطئة ، وتنظر بواقعية إلى حدود الاحترام الذي تستحقه ويستحقه الآخرون .

من الواضح أنه في هذهِ الصورة يستطيع أعضاء الأُسرة ، في كافة المراحل ، أن ينفِّذوا الحق والعدالة ، وأن يعملوا وفقَ تكليفهم الديني والعلمي ، وأن يؤدوا واجباتِهم بشكلٍ مرضٍ في جو الأُسرة .

معرفة الحالة النفسية للشباب :

إنّ أوّل نقطة يجب الاهتمام بها في هذا البحث ، هي معرفةُ نفسية الشباب ، والاطلاع علىٰ مقتضياتِ مرحلة الشباب . وعلىٰ الوالدين أن يعرفا أن ابنهما الشاب قد تجاوز مرحلة الطفولة ووصل إلىٰ مرحلة الشباب .

رغبة الحرية :

يحب الشاب بطبيعته الاستقلال والظهور ويريد أن يحرر نفسه وبسرعة ، من محدوديات مرحلة الطفولة ، ويلتحق بمجموعة الكبار ، ويكون مستقلاً مثلهم . وهو لا يُعلن عن مطالبهِ ، ولكن إذا لم يصل إلىٰ هدفهِ ، ويحصل علىٰ حقهِ الطبيعي ، فإنه يتمرد ويطغىٰ ، ويقوم بالأعمال غير الطبيعية ، ويتصرف بسوء ويصبح عنيفاً ، ولسان حالهِ يقول : احترموا شخصيتي ، اعتبروني مستقلاً وحراً ، وتصرفوا معي كرجلٍ كبير .

علىٰ الوالدين أن يقبلوا هذا الواقع أي أن ابنهما الشاب لم يعد طفلاً ، ولا يجب أن يتصرفا مَعَهُ كما كانا يتصرفان مَعَهُ في مرحلةِ الطفولة ، ويلقيان عليهِ الأوامر بعنف وشدة ، وهذا هو ما أوصىٰ بهِ نبي الإسلام الكريم صلى الله عليه وآله وسلم قبل أربعة عشر قرناً ، وكذلك فإن علماء اليوم يعتبرون ذلك واحداً من البرامج التربوية الأساسية في كتبهم في حين أن أحاديث العلماء لا تعدو نظرية علمية وليس لها ضمان تنفيذي ، بينما تعاليم الأئمة هي واجب ديني ، يعتبرها أتباعُ الإسلام أمراً إلّهياً وأنهم مكلّفون بها وواجبٌ عليهم معرفتها .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «الْوَلَدُ سَيِّدٌ سَبْعَ سِنينَ ، وَعَبدٌ سَبْعَ سِنِينَ ، وَوَزيرٌ سَبْعَ سِنينَ»[1] .

مراحل العمر :

إن الإنسان طوال عمره ، يطوي ثلاث مراحلٍ متمايزة :

---

(١) مكارم الأخلاق ص ١١٥ .

١ ـ مرحلة النمو ـ الطفولة والشباب .

٢ ـ مرحلة التوقف ـ الكهولة .

٣ ـ مرحلة النقصان ـ الشيخوخة .

وبنظر الكثير من العلماء ، أن سنَّ الحادية والعشرين هي نهاية مرحلة الشباب ، ففي هذهِ السن ينتهي نمو البدن ، والعظام تكون قد استقامت تقريباً ووصلت إلىٰ نموها النهائي ، وبعد ذلك إذا حَصَلَ نمو فإنهُ يكون طفيفاً .

والإنسان منذ الولادة وحتىٰ سِن الحادية والعشرين ، يكون عرضة لتحولاتٍ وتغييراتٍ مستمرة ، ويتغير وضع جسمهِ ونفسهِ ، والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم قد قَسَّم الامتدادَ الزمني لمراحل النمو الذي يُصِيب وضع الجسم والنفس لدىٰ الأبناء وكيفية تصرفاتِهم تجاه الوالدين ، إلىٰ ثلاثة أقسام كل قسم سبع ِ سنين .

السنوات السبع الاولى والثانية :

الطفل في السنوات السبع الأُولىٰ من عمرهِ ، يحكم والديه ، لأنَ فكرهُ لم ينضج بعد ، وجسمهُ ضعيف ، ولذا ينظر الوالدان إليه بعين الرأفة والرحمة ولذا فهما مجبران علىٰ إطاعتهِ ، يُلبيان طلباتهِ ويطيعانه ، ولهذا السبب قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم «الولد سيد سَبْع سنين» . وفي السنوات السبع الثانية تحدث تغييرات وتحولات ملحوظة في جسم ونفس الطفل ، يقوىٰ جسمُه ، ويزداد إدراكه ، لدرجة أنه يميز بين الطيب والخبيث ولهذا السبب يؤاخذ من قبل والديه ومديره ومعلمه .

ولكن بما أن عقله لم يكمل بعد ولا يستطيع أن يُميِّز بين الصلاح والفساد بصورةٍ صحيحة فإن والديه يأمرانه بحزم ويذكرانه بواجباتهِ وهو من جانبهِ مجبر علىٰ إطاعة والديه وينفِّذ أوامرهما . ولذا قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم «وعبد سَبْع سنين» للوالدين .

السنوات السبع الثالثة :

إن السنوات السبع الثالثة من العمر تبدأ من سن الخامسة عشرة حيث مرحلة البلوغ والشباب ، وفي هذه المرحلة تتغير أفكار وجسم الابن بصورةٍ كاملة ، وتظهر تحولات ملحوظة في الجسم والنفس ، وتزول مميزات الطفولة ، وتظهر معالم الرجولة بوضوح ، وقد وصفَ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هذهِ المرحلة بكلمة (وزير) ، حيث إن الابن لن يكون كما في المرحلة الأولىٰ سيداً علىٰ الوالدين ، ولا في المرحلة الثانية عبداً لهما ، وإنما يقوم بدور الوزير في دولة الأُسرة . و (الوزير) لغوياً لها معانٍ كثيرة ، فهو الشيء الذي يحمل علىٰ عاتقيه مسؤولية كبيرة ، والطفل ، قبل بلوغه ، لا يتحمل مسؤولية في العائلة . ولكن عندما يصل سن البلوغ عليه أن يتحملها ، ويحمل بعضاً من أعباء العائلة .

(والوزارة) بمعنىٰ المساعدة والتعاون فكرياً في التدبير وفي رعاية المصالح . فعلىٰ الشاب أن يكون معاوناً للوالدين في محيط الأُسرة . يتشاور معهما ويبادلهما الرأي ، فيساعد والديه في تدبير أُمور الحياة .

تعامل الأبوين مع الأبناء :

والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم باستخدامه كلمة (وزير) شخّص من جهةٍ حالة بروز الشخصية والاستقلال لديه وعزمهُ كوزير مسؤول في محيط الدولة الصغيرة (الأُسرة) ، ومن جهة أُخرىٰ أفهَمَ الوالدين أن لا يتصرفا مع شابّ اليوم تصرفهم مع طفل الأمس ، ولا يتحدثا إليه بإصدار الأوامر بعنف ولا يحتقرا شخصيته ، فطفل الأمس كان عبداً مطيعاً أما شابُ اليوم فهو وزير ومشاورٌ لهما .

لو نظر الوالدان المدركان والشباب الأذكياء بدقةٍ إلىٰ حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وتعمّقوا فيه لأدركوا قيمة هذا الحديث الشريف وعرفوا كيف يمكن الاستفادة من الكثير من المواضيع التي جاء بها علماء اليوم بعد دراسة وتحقيق ودوّنوها في كتبهم النفسية ، وهي موجودة في هذا الحديث القصير .

ضرورة استقلال الشباب :

«يقول الدكتور (مارِس) : إن الشباب كائنات مستقلة ويجب عليكم أن تعتبروهم أصحاب شخصية ، وفي مرحلة البلوغ أكثر من أي زمنٍ آخر يريد الشاب أن يُصبح مهماً ويُهتم به ، ويحتاج بشدة أن يعتبر صديقاً وشريكاً ، فكم يُسمَع من الشباب (ليت الكبار يتحدثون إلينا مرّة بجدّ) والحقيقة أن هؤلاء الشباب يُحتاجُ إليهم في العالم كأي رجلٍ وامرأة»[١] .

«إن حاجة الشباب إلىٰ الاستقلال تماماً كحاجةِ الطفل إلىٰ الحماية والتعليم . إن تمرد الشباب للوصول إلىٰ الاستقلال أمرٌ طبيعي ، ويصبح هذا التمرد مشكلة عندما يسعون للوصول إلىٰ الاستقلال بالوقوف بوجه الوالدين»[٢] .

حق ابداء الرأي :

«لا شيء أكثر تأثيراً في تربيتهم من حق إبداء الرأي ، فلا بُدَّ من منحم حق إبداء الرأي في البيت والمدرسة تماماً كما للشعب الأمريكي هذا الحق . (لا أمتلك وقتاً للتوضيح وافعل ما قلته لك) إن هذا القول يجب أن يقال وقت الحريق. لكن أن نقول: (كن في الساعة الفلانية في البيت ولا تجادل) ، ثم نُشْغِل أنفسنا بقراءة الصحيفة . فبهذا نكون قد سلكنا مسلكاً خاطِئاً»[٣] .

إن إعطاء الاستقلال للشباب وتكريم شخصيته لا يعنيان أن يكون حراً في جميع أعمالـهِ لكي يدخل في أي محيط فاسد كما يشاء ، أو يجالس صديقاً منحرفاً ، وأن يؤدي ما يشاء من الأعمال ، وفي النتيجة يُصبح شخصاً متمرداً عاصياً . إنه لخطأ ارتكبه العالم الغربي عندما منح الشباب حرية أكثر مما

(١ ـ٢) المشاكل الروحية للشباب ص ٧٣ و ٤٧ .

(٣) المشاكل الروحية للشباب ص ٦٢ .

تقتضيه المصلحة ، ولهذا يواجه الآن مشاكل ومصائب .

مخاطر الحرية المطلقة :

إن الشباب الذين لهم طبع نارِي وإدراك ضعيف هم دائماً عرضة للتعاسة والسقوط ، إن هؤلاء ، طبقاً لما تقتضيه السن ، ينجذبون نحو اللهو واللذّات ، ولو أنه كانت لهم الحرية المطلقة لأُصيبوا بأنواع الخطايا والشرور والفحشاء ، وعدم العفة ، والإدمان المضر ولسقطوا بسرعة في الفساد والمهاوي الأُخرى .

إن الشباب ، لا تجربة لهم ، وهم لا يرون في الغالب نهاية الأعمال ، ويعجزون عن تمييز الطيب من الخبيث ، والخير من الشر ، والصلاح من الفساد ، كما أنهم لا يفهمون أنفسهم . إنهم لا يستطيعون أن يسيروا في طريق الحياة وحدهم ، أو يجتازوا النقاط الخطرة التي تعترض طريقهم بسلامة . ولو منحوا الحرية المطلقة فإنهم سينحرفون عن الصراط المستقيم ، ويسيرون في ضياع ويسقطون في منحدرات الحياة .

عدم الاطمئنان النفسي :

«طبعاً ليس المقصود من الاستقلال والحرية وحق إبداء الرأي ووجهات النظر ، أن يُترك الشباب لحالِهم في البيت أو المدرسة ، لكي يفعلوا ما يريدون ، إن هذا الأمر يوجد لديهم حالة من القلق وعدم الاطمئنان النفسي . لا شك أنهم لا يستطيعون متابعة مسيرة الحياة وحدهم فلا بد من مدِّ يد العونِ لهم»[١] .

الحرية المحدودة :

من كلمة (الوزير) الواردة في حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم نرىٰ بوضوح محدودية حرية الشباب ، لأن (الوزارة) بمعنىٰ المساعدة والتعاون ، فالإبن الشاب ، رغم أنه وصَلَ إلىٰ مقام الوزارة في دولة العائلة ، تحترم شخصيتُهُ إلا

---

(١) المشاكل الروحية للشباب ص ٦٢ .

أنه يجب أن لا ينسىٰ أنه (وزير) أي مساعد ومعاون للوالدين ، وهو لا يملك الاستقلال والحرية الكاملة . فالشاب له حق إبداء الرأي في المسائل العائلية ، وأن يساعد الوالدين ، ولكن التصميم النهائي في شؤون العائلة ، يتعلق بالوالدين . وعليه فإنهُ في مدرسة الإسلام التربوية يكون الاستقلال محدوداً ولا يمكن أن يكون مطلقاً بدون قيد أو شرط . إن هناك ارتباطاً ووحدةً بين أفراد العائلة ، وهم شركاء في الخير والشر والسرّاءِ والضرّاء ، ولا يحق للشباب أن يسيئوا استغلال الحرية والاستقلال ، ويتعرضوا لأسوأ النتائج من جرّاء سوء تصرفهم ، وبذا يُصبحون مصدراً للفضيحة والإساءة للوالدين وبقية أفراد العائلة .

عطش الاستقلال :

الشاب ، بشكل طبيعي له عطش للاستقلال والشخصية ، وهذه الرغبة خلقت معه بحكمة الله تبارك وتعالىٰ . فقد قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إن الابن (وزير سَبْع سنين) وهذا يعني أن الوالدين يجب أن يتصرفا معه باعتباره (وزيراً) وهكذا يلبيان طلباتهِ الطبيعية ، ويحترمان شخصيته واستقلاله ، لكي يخلقوا منه شخصاً مفيداً ولائقاً للمجتمع .

وعندما يهتم الوالدان بطلبات ابنهم الطبيعية ، ويعملان وفق أوامر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فإنه سينشأ معتمداً علىٰ نفسهِ ويكون ذا شخصية ، وفي المستقبل يكون إنساناً مستقلاً ذا إرادة ، وعنصراً مفيداً وثميناً ، يستفيد منه المجتمع .

تشدد الأبوين :

وإذا لم يهتم الوالدان برغبات أبنائهم الشبان ، ولم يلتفتا إلىٰ قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ووقفا بصلابة وخشونة وعنف بوجه رغبات أبنائهما في الاستقلال واحتقرا هذه الرغبات وأهاناهم وقمعا شخصياتهم ، أو قاما بالتدخل في أعمال أبنائهما متجاوزين الحدود علىٰ اعتبار أنه واجبهما في المسؤولية عليهم ، أو سلبا منهم فرصة التفكير بالإشراف عليهم دون حساب ،

أو حمايتهم دون مبرر فإنهما يقطعان عليهم فرصة الاعتماد علىٰ النفس ، وبهذا سوف يعتمدون علىٰ الآخرين ، ونتيجة هذا التصرف غير الصحيح يمكن أن تظهر على شكلين غير مرغوبين في أبنائهما الشبان .

أولاً : من الممكن أن يفقد الشاب مقاومتهُ إثر الضغوط الشديدة والإشراف المتعب من قبل الوالدين فيستسلمون للشروط الموجودة ،وينصرفون عن طلب الاستقلال . طبعاً مثل هذا الشاب سيكون شاباً منسجماً مع الوضع الذي هو فيه ، ولا يخلق المتاعب لوالديه ، ولكن هذا النوع من التربية يقتل الكفاءات الكامنة لدىٰ الشابّ ، ويجعله ضعيفاً ، متخلفاً لحرمانه من الاستقلالية والاعتماد علىٰ النفس وفي المستقبل سيكون من جملة الأفراد التعساء والبؤساء .

تدخل الوالدين :

«عندما ينشأ الشباب معتمدين علىٰ الآخرين ولا يتمنون الاستقلال فإن المدرسة والبيت سيكونان هادئين بوجودهم ، ولكن سيكون لهم مستقبل غير ثابت ، لم تكن والدة فيليب لتدرك هذهِ القضية ، كما أنها لا تستطيع في المرحلة الثانية أن تفهم سبب فشل فيليب ، حيث إنها كانت دائماً تتدخل في كل مسألةٍ له ولم تكن تسمح له حتى بأداء أعماله الشخصية . فهي لم تكن لتعرف أن سبب فقدانه الشخصية وفشله ناتج عن هذهِ التدخلات غير الصحيحة ، كان فيليب يحب الوحدة ويكره المدرسة ، ولم تكن لديه القدرة علىٰ اتخاذِ أي تصميمٍ حول أي موضوع ، وكان فيليب يعيش تحت إشراف أمه ، فهي تعيّن له أين يذهب ، وماذا يلبس ، وماذا يقول وفي النتيجة لم يكن هناك عناء لكي يجد فيليب أسلوباً لنفسِهِ ، فقد كانت أُمُهُ هي التي تخطط له كل شيء ، تشتري له الملابس وتنظم له برامج عُطلهِ . بل كانت هي التي تعين له الفرع الذي يجب أن يدرس فيه ، وكانت نتيجة هذهِ

القدرة وتدخل الأُم ، أن نشأ شاب مثل فيليب ابناً لا يقدر علىٰ تحمل أية مسؤولية ، ليس قادراً على الاعتماد علىٰ نفسِهِ ، كما لم يكن هناك من قام بتربيته علىٰ أساس أن يتقبل المسؤولية والاستقلال ، كان يلعب كرة القدم ولكنه كان فاشلاً . أصغر الأطفال كانوا يستطيعون ضربه ، كان يجيد السباحة جيداً لكنه لم يكن مستعداً لترأس فريق السباحة ، وكان يقول لا أُريد أن أجذب انتباه أحد ، ولم يكن يندفع لمعرفة وتدقيق وتفحص وميل نحو أي أمر ، كما لم يكن يبحث عن أيَّة مسألة ولا يبدي أيَّة علاقة تجاهها لكي لا يتحمل بالتالي أيّة مسؤولية ، فقد كان يخشىٰ من قبول أيَّة مسؤولية»[١] .

التشدد والتنازع :

ثانياً : إن الشاب الذي يعتمد علىٰ نفسِهِ وتكون له إرادة قوية يقف بثبات أمام ضغوط الوالدين غير الصحيحة ولن يغض النظر للتخلي عن شخصيتِهِ واستقلالِهِ اللذين هما من حقوقِهِ الطبيعية والشرعية وفي هذه الحالة التي يشتد فيها الاختلاف ، يبدأ التمرد والطغيان وينقلب جو الأُسرة إلىٰ ساحة للصراع والمشاجرة والصياح والخشونة ، والدموع والبكاء والقلق والاختلاف والتضاد كلُ هذهِ الحالات ستُصبح برنامجاً عادياً لمثلِ هذا البيت وكلما زاد الوالدان من ضغطهما ازدادت المشاكل .

«إن المرحلة الأخيرة للانقلاب الروحي للشباب ، هي عدم الرضىٰ والبُؤس والحزن ، وتأتي هذهِ المرحلة عندما يبدأ الكبار بزيادةِ تحكمهم ، بهدف حفظ احترامِهم ومكانتهم ، بينما الاحترام هو وليد حُسن العلاقة والمحبة وكلما ازدادت الشدّة وقام الكبار بمراقبةِ الشباب والضغط عليهم كانت النتيجة انفصال الشبان وهروبهم»[٢] .

(١) المشاكل الروحية للشباب ص ٦٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٢ .

إن الوالدين المُسْلِمين اللذين يريدان تربيةِ ابنٍ شاب ذي شخصية إنسانية لائقة ، عليهما أن يعملا بقول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وينفّذا أوامرهُ المثمرة كما يجب عليهما أن يعتبرا الشاب وزيراً للأسرة ، ويحترما شخصيته ويستشيراهُ في الشؤون الداخلية ، ويدرسا آراءه ، وبهذهِ الطريقة يلبيان طَلَبهُ في الاستقلال .

الاحترام وراحة البال :

إن الشاب الذي يكون عضواً مؤثراً في جو الأُسرة ويعتبر والداه شخصيتهُ كشخصية الكبار ويحترمانه ، سوف يليق به الاستقلال والحرية وسيكون هذا الشاب صاحب نفس هادئة وضمير مطمئن ولا يحس بحقارةٍ أو نقص . إن هذا الشاب ، لكي يحافظ علىٰ مقامهِ السامي ومنزلتهِ لدىٰ الآخرين ريثما ينبت لياقتهُ لإحراز الاستقلال والحرية ، يسعىٰ للإبتعاد عن الخطايا والأعمال السيئة وأن لا يصيب شخصيتهُ نقص يستوجب احتقار وإهانة الآخرين .

قال علي عليه السلام : «مَنْ كَرُمَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ لم يُهِنْهَا بِالْمَعْصِيَةِ»(١) .

إن الشاب الذي تُقمع شخصيته ، ويُهان ولا يُحترم في العائلة ويحتقرهُ والداه بكلماتٍ نابية وتصرف خشن ويحتقرانه لأنهُ شخص غير جدير بالاستقلال والحرية ، هذا الشاب يكون دائماً في حالةٍ عصبية غاضبة ، وهو نتيجة الحقارة التي يشعر بها يكون ضعيفاً معرضاً للإصابة ، ومن الممكن أن يخضع بسرعة للذل ويقع بسهولة في أحضان الخطايا .

جهل الوالدين :

علىٰ أيةِ حال ، مع وصول مرحلة الشباب ، تبدأ أيام بناء شخصية الشاب ، والوالدان اللذان يدركان واجبهما تماماً ويعملان طبق أوامر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، يحترمان أولادهما ويعتبرانهم وزراء ومشاورين لهما وبذلك يجعلان منهم أصدقاء حميمين ورفقاء وزملاء لهما .

---

(١) غرر الحكم ص ٦٧٧ .

وأما الوالدان الجاهلان فإنهما يقضيان علىٰ الحقوق الطبيعية والشرعية لأبنائهما الشبان ، كما يدمران عزّة النفس والشخصية لديهم بالإهانةِ والتحقير والأعمال غير الصحيحة ، وبهذهِ التصرفات السيئة ينشران بذورَ العداوة والبغضاء في قلوبِهم ، ويجعلان منهم أعداء لهما .

قال الإمام علي عليه السلام : «وَلَدُكَ رَيْحانَتُكَ سَبْعاً وَخادِمُكَ سَبْعاً ثُم هُوَ عَدُوكَ أَوْ صَديقُك»[1] .

الأبوان المسؤولان :

إن الوالدين اللّذين يربيان أبناءهما بشكل صحيح من حيث التصرف والكلام فإن هؤلاء الأولاد ينشأون بقلوبٍ طاهرة ، وفضيلة عامرة ، تشملهم الألطافُ الإلٰهية ، ونبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم دعا لهم بالخير .

قال رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم : «رَحِمَ اللّهُ والِدَيْنِ أعانا وَلَدَهُما عَلىٰ بِرِّهما»[2] .

أما الوالدان اللذان يربيان أولادهما تربية سيئة بالإهانة والأعمال الحقيرة وغير المشروعة ، فإنهما يدفعان بهم إلىٰ حالةِ انتقامية وإلىٰ الخطيئة والعدوان فيشملهم عذاب الله عز وجل .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «يا عليُّ لَعَنَ اللّهُ والدين حملا وَلَدَهُما علىٰ عقوقهما»[3] .

شرط التفاهم :

النتيجة المستحصلة أن تكريم الشبان واحترام شخصياتهم واستقلالهم هو أحد الشروط الأساسية لحسن التفاهم الاسري .

فقد كرّم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم الشاب من جهة ، ومن جهة أُخرى فقد

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ج ٢٠ كلمة ٩٣٧ ص ٣٤٣ .

(٢) مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٦٢٥ .

(٣) بحار الأنوار ج ١٧ ص ١٨ .

حثّ الوالدين على أن يقوما بتربية الأولاد على أحسن وجه وأن يقوما بوظائفهما تجاه أولادهما خصوصاً وقت الريعان والشباب .

الأبناء والشعور بالمسؤولية :

الشرط الثاني لتفاهم الشبان والكبار في جو الأُسرة ، هو وجوب أن يعرف الشبان أيضاً حق الوالدين ويحترموا شخصيتهما ، وبعبارةٍ أُخرىٰ، إنه لا يكفي أن يعرف الوالدان واجبهما وأن يحترما شخصية أبنائهما، لحسن التفاهم بين الشبان والكبار ، بل علىٰ الشبان أيضاً أن يعرفوا بالمقابل واجباتهم في حفظ حقوق وحدود الوالدين واحترامها، وأن يكرموا شخصيتيهما ، وقد جاء هذا الموضوع في القرآن الكريم وفي الروايات الإسلامية والأحاديث الشريفة مع التأكيد .

حقوق الوالدين :

قال تعالى : ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾[١] .

قال الإمام الصادق عليه السلام في تفسيره للآية : «معناه لا تَمْلأْ عينيكَ من النظر إليهما إلا برأفةٍ ورحمة ، ولا ترفع صوتَكَ فوقَ أصواتِهما ولا يديك فوق أيديهما ، ولا تتقدم قُدّامَهما»[٢] .

عن الباقر عليه السلام قال: «سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مَنْ أعظمُ حقاً علىٰ الرجل ؟ قال :والداه»[٣] .

عن أبي جعفر عليه السلام قال : «نظر أبي إلىٰ رجل ومَعَهُ ابنه يمشي والإبن متكىء علىٰ ذراع الأب : قال : فما كلمه أبي مَقْتاً له حتىٰ فارقَ الدنيا»[٤] .

---

(١) سورة الإسراء ؛ آية : ٢٤ .
(٢) مجمع البيان ج ٦ ص ٤١١ .
(٣) مشكاة الأنوار ص ١٥٨ .
(٤) مجموعة ورام ج ٢ ص ٢٠٨ .

فِقْهُ الرِّضا عليه السلام : عليك بطاعةِ الأب وَبِرِّه وَالتواضُع والخضوع والإعظام والإكرام لَهُ ، إلىٰ أنْ قال وقَد قَرَنَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَ حَقهُما بحَقه فقال تعالى :

﴿اشكر لي ولوالديك إلَيَّ الْمَصِير﴾[1] .

وقالَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «رِضَى الله في رِضى الوالدين وسَخَطُهُ في سَخَطِهِما»[2] .

وعَنهُ صلى الله عليه وآله وسلم : «نَظَر الولد إلىٰ والديه حُبّاً لهما عبادة»[3] .

إن عمل الخير للوالدين واحترامهما واحترام شخصيتهما واجب إسلامي تماماً ويجب أن يكون ذلك برنامجاً ثابتاً ودائماً في المجتمع الإسلامي ، وعبر الأجيال ، ويكون حديث الأبناء عن الوالدين مقروناً بالأدب والإحترام .

المحافظة على سنة الاحترام :

إن فتيات وشبان اليوم هم أُمهات وآباء المجتمع في الغد ، ولو أن شباب اليوم راعوا واجب التكريم والاحترام لوالديهم ، وحفظوا هذهِ السُّنَّة الإلٓهية في المجتمع ، فإنهم غداً سيكونون موضع تكريم من قبل أبنائهم وينعمون في هذهِ السعادة .

قال الصادق عليه السلام : «بروا آباءكم تبركم أبناؤكم»[4] .

إذاً فالشرط الثاني لحسن التفاهم بين الكبار والشبان في العائلة هو تكريم واحترام الوالدين . إن الأبناء الشبان مكلفون أن يتصرفوا مع والديهم بكمال التواضع والأدب ، وأن يحترموهما منتهى الاحترام وبهذا يجلبون رضاهما الذي هو من رضىٰ الله تبارك وتعالىٰ .

---

(١) مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٦٢٧ .
(٢) مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٦٢٧ .
(٣) تحف العقول ص ٤٦ .
(٤) بحار الأنوار ج ١٧ ص ١٨٤ .

تكريم الكبار :

إلىٰ جانب احترام شخصيــة الأبناء الشبـان والوالـدين ، لا بد من تكـريم الجـد والجدة طبقـاً لتعاليم الإسـلام ، وهذا هـو الشرط الثـالث لتفاهم الشبـان والكبـار في محيط الأُسرة ، وقـد وردت ضرورة إجلالهـم وتكـريمهم في القرآن الكريم والروايات الإسلاميـة بصراحـة ، كما أوجب ذلـك أولياء الإسـلام حيث طالبوا من أتباعهم حفظ حقوق ورعاية حدود الجد والجدة .

﴿وقضىٰ ربك ألاَّ تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدينِ إحساناً إمّا يبلغَنَّ عندكَ الكِبَرَ أحدهُما أو كلاهُما فلا تَقل لهما أُفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً﴾[1] .

روي عن علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام عن أبيه عن جـدهِ أبي عبد الله عليه السلام قال : «لو علم الله لفظةً أَوْجَـزَ في تركِ عقوقِ الوالدين من (أُف) لأتىٰ به»[2] .

الاسلام والشيوخ :

هنـاك عنـايـة كبيـرة بـالشيـوخ في الـدين الإسـلامي ، فقـد دعـا النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئِمة الطاهرون عليهم السلام أتباعهم إلىٰ تكريم الشيـوخ واحترامهم ، وقد قدّمنا القيمة المعنوية والإجتماعية لاحترامهم .

قَالَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «البركة مع أكابرِكم»[3] .

تجارب الشيوخ :

رأىٰ الشيـوخ الكثير طـوال عمرهم وذاقـوا حلو الحيـاة ومُـرَّهـا كمـا أنهم حصلوا علىٰ دروس كثيـرة من مـدرسـة الحيـاة ، وهؤلاء رغم أن أجســامهم ضعفت ، وفقدوا الكثير من القـدرة والحركـة والنشاط، ولكنهم اكتسبـوا تجارب قيّمة ، ويعرفون الخير والشر ، ويفسرون المسائل بشكـلٍ أفضل ، ويستـطيعون

---

(١) سورة الإسراء ؛ آية : ٢٣ .

(٢) مجمع البيان ج ٦ ص ٤٠٩ .

(٣) وهج الفصاحة ـ كلمة ١١٠٣ ص ٣٩٨ .

كالقادة الدينيين أن يكونوا هُداةً للآخرين ، ويدلّون الشباب والرجال على خيرهم وسعادتهم .

قال الصادق ﷺ : «الشيخُ في أهلِهِ كالنبيِّ في أُمته»(١).

كانت بين بعض الأقوام والقبائل عادات عجيبة بالنسبة للوالدين المعمّرين ، إذ كان الأبناء طبقاً لعقيدة خرافية ، أو مراسم محلية يتصرفون بظلم مع آبائِهم المسنين ويُنهون حياتِهم بطريقةٍ غير إنسانية .

خرافات بعض القبائل :

«أهالي جزيرة (فيجي) يعتقدون أن أي شخص يحتفظ بقواه البدنية والروحية التي هو عليها لدىٰ موتـهِ في العالم الآخر ، ولذا فإن الشخص عندما يصل إلىٰ الشيخوخة فإنه سيبقىٰ كذلك إلىٰ الأبد ، ولهذا السبب فإن الإبن الذي يحترم والديه يستطيع أن يقتلهما بضمير هادىء ، وهو يعتقد أنه قدم أكبر خدمةٍ لهما»(٢) .

وأد الشيوخ :

«يقول ويل ديورانت : سكان ملانزي يدفنون المرضىٰ العجائز أحياءً ويعتبرون ذلك وسيلة جيدة للخلاص من بقاياهم» (٣) .

«يقول راسل : لقد كان التعاون الإجتماعي في الأساس مبنياً علىٰ القوة والقدرَة وعلاقات الوالدين بأبنائهما ، طالما هم صغار ، فهي مبنية علىٰ القوة والقدرة ، وعندما يكبر الأبناء ويضعف الوالدان ، ينقلب الوضع ، بعض القبائل كانوا يبيعون الوالدين الضعاف إلىٰ القبائل المجاورة آكلة لحوم البشر ، ولذا كانوا يقتصدون في تكاليف العيش . ولكن عندما كان الآباء في عنفوان الشباب حالوا

(١) لئالىء الأخبار ـ ص ١٨١ .
(٢) علم النفس الاجتماعي ج ١ ص ١٨٠
(٣) مباهج الفلسفة ص ٨٥ .

دون ذلك ووقفوا بوجه هذهِ العاقبة السيئة ، حيث إنهم بدأوا تعليم الأبناء منذ الصغر فضيلة المحبة والعطف»[1] .

الشيوخ وعالم اليوم :

في عالم اليوم ، حيثُ إن المبادىء الإيمانية ومكارم الأخلاق سارت نحو الضعف ، وفقدت العواطف الإنسانية والألفة العائلية قيمتها في عالم أصبح أساس الحياة فيه مبنياً علىٰ اللذة والشهوة ، وأصبح الهدف الأساس للناس جمع الثروة أكثر فأكثر ، فإن وضع الوالدين أصبح مؤسفاً ، حيث لا إيمان كامل في قلوب الأبناء ليكرموا الوالدين في سبيل الله ، وليس لديهم للفضائل الأخلاقية قيمة حتىٰ يحترموهما لما لهما من حق .

انعدام عاطفة الشباب حيال الشيوخ :

والشباب والكهول يسيرون بسرعة نحو أهدافهم المادية ، وليس فقط لا يعيرون أهمية لوالديهم المسنِّين ، بل يعتبرونهما سداً ومانعاً أمام تقدمهم ولذا يسعون لإبعادهما عنهم ليتخلصوا من عبئهما .

إن الأشخاص الذين عاشوا عمرهم لوحدهم ، ولم يؤسسوا عائلةً منذ البداية ولا يملكون زوجة ولا أبناء ، أو كانوا لديهم ثم فقدوهم ، عندما يصل هؤلاء إلىٰ مرحلة الشيخوخة يعانون من (مشكلة) واحدة هي (الشيخوخة) . ولكن الوالدين اللذين أمضيا أكثر من نصف قرن وتحمّلا أعباء تكوين عائلة وصرفا في هذا السبيل عمرهما وأموالهما علىٰ أبنائهما وبناتهما ، لو حُرما في وقت الشيخوخة من المحبة ، وأحياناً يواجهان التحقير وعدم الاحترام من الأبناء والأحفاد فإنهما يصابان بمصيبتين ، مصيبة الشيخوخة ومصيبة الإهانة وفقدان المحبة . ولا شك أن القلق النفسي والضغوط الروحية التي يصابان بها هي أقسى بكثير من المصيبة الأولىٰ . لحسن الحظ أن مجتمعنا الذي أكثر سكانه من

(١) الآمال الجديدة ص ٩٩ .

المسلمين ، الناعمين بتعاليم الإسلام ،يعطفون ويكرمون الوالدين عند الشيخوخة ،ولذا نرىٰ الوالدين المسنّين يحظون بنوع من المحبة والاحترام ، ولكن في الدول الغربية قلّت بشكل ملحوظ مكانة الوالدين المسنّين ، وفي بعض الأحيان يصابان بوضعٍ مؤسف بحيث يُقدمان علىٰ الانتحار بسبب الضغوط والوضع النفسي السيء لهما . وأحياناً يكون الأبناء العاقّون هم الذين يمهدون لموت الوالدين .

انتحار المسنين :

«الموضوع الملفت للنظر ، هو التفكير والإقدام علىٰ الانتحار لدىٰ المسنّين فحسب الإحصائيات في الدول الأُوروبية أن نسبة الانتحار في صفوف المسنّين كبيرة ، والانتحار في الغالب ينشأ عن عامل خارجي مثلاً أزمة مالية ، أو عدم وجود محبة من قبل الآخرين ، وقليلاً ما تكون الأسباب داخلية»[1] .

جريمتان في عائلة واحدة :

«ذات يوم من عام ١٩٦٧ في ناحيةٍ بالقرب من مدينة (ROUEN) الفرنسية ، يُعلن شاب اسمُه فرانسوا في حالةِ سكر أنَهُ قتل جدَّتهُ . فلا يعيرهُ الناس أهميَّةً ويعتبرونه سكراناً ، ولكن الشرطة المحلية تفكر في التحقيق ، فيظهر أن كلام فرانسوا لم يكن عبثاً وأنه حقاً قتل جدته . والحكاية أن السيدة جولين والدة فرانسوا تتبرم من بقاء أُمّها العجوز لديها في البيت ، وأنها تعبت منها ، وأن ابنتها جانين علىٰ وشك الزواج ، فهي وخطيبها يريدان إبعاد العجوز عن البيت بسرعة لكي يتزوجا براحة ، وذات ليلة يتشاور الجميع ويتفقوا على أن يقوم فرانسوا بخنق الجدة ، فتم ذلك ومن الطبيعي أن موت امرأة عجوز ، عاجزة ، ليس أمراً مهماً يلفت

---

(١) مجلة نقابة الأطباء في إيران ، السنة الثانية العدد ٦ ص ٤٢٦ .

النظر ، وسكان الناحية اعتبروا المسألة عادية ، وطبيب القرية يكتب تقرير الوفاة دون تحقيق ، وتتم مراسم الكنيسة والدفن بشكلٍ عادي ، وحتىٰ ذلك اليوم الذي يهتدي فيه فرانسوا حيث يتم الكشف عن الجريمة ، وعلى أثر الكشف عن هذه الجريمة راود الشرطة الشك بشأن وفاة الجد الذي حَدَثَ قبل مدة قصيرة من موت الجدة فتعترف السيدة جولين وابنتها أنهما اتفقتا مع خطيب الفتاة وقامت جاكلين الإبنة الصغرىٰ للسيدة جولين برش سُمّ الفئران بصورة تدريجية للجد حتىٰ مات ودفن وتخلصوا من مزاحمتهِ لهم لكي يجلسوا إلى التلفزيون براحة ، النتيجة أن السيدة جولين وابنها وابنتها وخطيب ابنتها كانوا متعاونين في ارتكاب الجريمتين وبقي زوج السيدة جولين غافلاً عن كل شيء وربما فكرت زوجتهُ وأبناؤه في التخلص منه لضيق المكان . وحكمت المحكمة علىٰ الزوجة وابنها فرانسوا بالسجن المؤبد ، كما حكمت علىٰ جانين بالسجن عشرين سنة وزوجها عشر سنوات ، وعلىٰ جاكلين بالسجن لمدة يمكن استبدالها بغرامة مالية»[1] .

تأسيس دار العجزة :

إن الأوضاع المؤسفة للشيوخ خلقت مشاكل في الغرب ، مما دعت مسؤولي بعض الدول إلىٰ تأسيس دور للشيوخ والعجزة في نقاط مختلفة يجمعون فيها الشيوخ ويهيئون لهم وسائِل الحياة لكي يخففوا بعض الشيء من مآسيهم .

إن تأسيس هذهِ المراكز للمسنّين الذين لا أحد لهم ، أو الفقراء ، أو المرضىٰ منهم ، أو من يأتي بنفسهِ للعيش هناك ، هوَ عملٌ إنساني يقوم بهِ المجتمع ، لأن هذا العمل يحل جزءاً من مشكلات هؤلاء ويخفف من آلامهم . ولكن من المؤسف أن يتخذ الأبناء والأحفاد هذهِ المراكز وسيلة

(١) مجلة نقابة الأطباء في إيران ، السنة الثانية العدد رقم ٦ ص ٣٨٦ .

للوصول إلىٰ أغراضِهم غير الإنسانية وغير الأخلاقية ، فليس إنصافاً إبعاد الجد والجدة بالقوة والإكراه من العائلة إلىٰ هذهِ المراكز وسحقِ عواطفهِم ومشاعرهم ، وتحقير شخصياتهم ، وزيادةِ أحزانِهم ، ومن ثم الإسراع في موتِهم .

العمر يمضي بسرعة ، ولا ينقضي الوقت حتىٰ يصل الشبان إلىٰ مرحلة الكهولة ومن مرحلة الكهولة إلىٰ مرحلة الشيخوخة ، وأنتم يا شباب ويا رجال اليوم تعالوا وفكروا في غدكم ، في شيخوختكم ، وقوموا اليوم بأمر القرآن الكريم بعمل الخير لوالديكم الشيوخ ، وراعوا الحقوق الإنسانية لهم ، لكي يقوم أبناؤكم غداً بالإحسان إليكم ومراعاةِ حقوقكم .

تعالوا للحفاظ علىٰ هذهِ السُنَّة الإسلامية المقدسة في محيط الأُسرة لتنتقل من جيل إلىٰ جيل ، لكي يأخذ الأطفال وشباب اليوم درساً في احترام الوالدين ويقوموا بذلك لكم غداً .

نتيجة البحث :

إذاً إن أحد شروط التفاهم ، من وجهة النظر الدينية والعلمية هو أن تحترم شخصية الشبان والكهول والشيوخ ، واحترام كل فئة حقوق الفئات الأُخرىٰ ، بحيث لا يشعر أيّ شخص في الأُسرة بالقَلَق وعدم الاطمئنان ، بل يكون مطمئناً أن حقوقه محفوظة ولا تتعرض لاعتداء الآخرين . والشرط الآخر من الشروط الأساسية لتفاهم المسنِّين والشباب هو احترام شخصية واستقلال وحرية جميع أفراد المجتمع .

وكما أن رعاية حقوق وحدود جميع أفراد الدولة الصغيرة ـ أي الأُسرة ـ تبعث علىٰ الأمن والاستقرار وراحة البال وتكون سبباً للوحدة فيما بينهم ، كذلك في العائلة الكبيرة للبلاد فإن الشرط الأساسي للتفاهم الإجتماعي ، واحترام حقوق وشخصية جميع أفراد البلاد هو رعاية هذه الحقوق .

حرية الفرد :

في البلاد التي تكون فيها الحرية الفردية والحقوق الإجتماعية للرجل والمرأة والشيوخ والشبان ، وكذلك الكبار والصغار ، بل لجميع الأفراد ، مصونة من التعرض والعدوان ، فإن هذهِ البلاد تكون مهداً لحسن التفاهم ومركزاً للمحبة والألفة وبالعكس ، فالبلاد التي تكون فيها شخصية وحرية الافراد غير محترمة ، يتغلب فيها الأقوياء علىٰ الضعفاء ، ويتعرضون لمال وحياة وشرف الآخرين ، فإن هذهِ البلاد تكون أسيرة للاختلافات تدبُ فيها نيران الحقد والعداء ، وتتوفّر الفرصة للإنتقام .

الأخوّة الإسلامية :

لقد استطاع نبي الإسلامي صلى الله عليه وآله وسلم بقوةِ الإيمان ، أن يزيل الحقد والعداء من القلوب ، ويوجد في مجتمع المسلمين رابطة الأُخوّة والمحبة ، ويشركهم في الأفراح ، ويوجب على أتباعه أن يتصرفوا طبقاً للقانون والأخلاق بالخير مع الجميع وعلىٰ نطاقٍ واسع ، ويدعوهم إلى البر وعمل الخير ، وبذا ركّز بينهم أساس المحبة الإجتماعية والعواطف الإنسانية أكثر فأكثر .

التعاون الاجتماعي :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «لو اجتمعتم علىٰ البر لتحاببتُم»[1] .

وعنهُ صلى الله عليه وآله وسلم : «رحمَ اللّٰهُ ولداً أعانَ والديه على برِّه ، ورحم اللّٰهُ والداً أعانَ ولَدهُ علىٰ برِّه ، ورحمَ اللّٰهُ جاراً أعانَ جارَهُ علىٰ برِّه ، ورحمَ اللّٰهُ رفيقاً أعان رفيقه علىٰ برِّه ، ورَحم اللّٰهُ خليطاً أعانَ خليطَهُ علىٰ برِّه ، ورحمَ اللّٰهُ رجلاً أعانَ سلطانَهُ علىٰ برِّه»[2] .

في هذا الحديث الشريف ، جاء الوالدان والأبناء ، والرفيق والجار ، والناس والدولة ، أي جميع أعضاء العائلة والمجتمع ، جاؤوا في صفٍ واحد ،

(١) مجموعة ورام ـ ج ١ ص ١٣٤ .
(٢) وسائل الشيعة ج ٤ ـ كتاب الأمر بالمعروف ص ٩٧ .

والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم دعا الجميع إلىٰ عمل الخير ، وطلب من الله تبارك وتعالىٰ الرحمة والعناية للجميع .

ينظر الدين الإسلامي إلى مجتمع المسلمين من حيث العلاقات المعنوية وإفشاء المحبة واحترام الشخصية فيما بين أفراده على أنهم عائلة واحدة ولهذا السبب أوصىٰ أئمة الإسلام عليهم السلام أتباعهم المسلمين ، صغاراً وكباراً ، أن يعتبروا المسلمين كأعضاء عائلاتهم يشملونهم بالعطف والخير .

قال الإمام الصادق عليه السلام : «أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولداً ، وأوسطهم أخاً وكبيرهم أباً ، فارحم ولدَك وَصِلْ أَخاك وبرّ أباك»[1] .

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأئِمة الأطهار عليهم السلام ، يحفظون حقوق وحدود المسلمين قولاً وعملاً وبصورة دائمة ، كما كانوا يراعون عزتهم واحترامهم في جميع المواقع ويبتعدون عن أصغر عمل يمكن أن يُشمّ منه الذّلة لأي مسلم .

ورَكَبَ الإمام علي عليه السلام يوماً فمشىٰ معه قوم فقال عليه السلام : «أما علمتم أن مَشْيَ الماشي مع الراكب مفسدةٌ للراكب ومذلةٌ للماشي إنصرفُوا»[2] .

لم يكن نبي الإسلام والأئمة الطاهرون عليهم السلام يحترمون الناس ويكرمونهم فحسب بل إنهم كانوا ، ضمن روايات عديدة ، يلفتون نظر أتباعهم بالإهتمام لهذا الواجب العائلي والإجتماعي الكبير ، ويذكّرونهم بلزوم احترام الصغار والرجال والشيوخ .

وهنا نشير كنموذج ، إلىٰ روايةٍ حول كل موضوع :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «لا تُحَقِّرَنَّ أحداً من المسلمين فإن صغيرهم عند الله كبير»[3] .

---

(١) مجلة الهادي السنة الثانية العدد ١ ص ٢٣ .

(٢) تحف العقول ـ ص ٢٠٩ .

(٣) مجموعة ورام ج ١ ص ٣١ .

احترام الشباب :

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : «أوصيكم بالشبان خيراً»[1] .

عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : «من أتاه أخوه المسلم فأكرمه فإنما أكرَمَ الله عز وجل»[2] .

تكريم الشيوخ :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «مِن إجلالِ الله إجلالُ ذي الشيبة المسلم»[3] .

فالمحبة والصداقة رمز سعادة البشر ومفتاح حُسن التفاهم بين البشر ، كما أنهما طريق لجلب محبة وصداقة الآخرين ، وتكريمهم واحترامهم ومراعاة حقوقهم الطبيعية والإجتماعية .

إن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم تمكن بقوة الإيمان ، أن يؤلف بين قلوب الناس المتفرقين ، وأن يجعل بين الأعداء مودة فيصبحوْن أصدقاء وأُخوة ، ويمتلىء المجتمع بالتالي بالعطف والمحبة . وقد جاء في القرآن الكريم أن الأُخوة بين المسلمين نعمةٌ إلّهية ، وأنها مهمة لدرجة ذكرها الله سبحانه وتعالىٰ كَمِنَّةٍ منه علىٰ الناس ، حيث يقول :

﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمتهِ إخواناً وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها﴾[4] .

أهمية الحب :

قال أبو جعفر الباقر عليه السلام : «هل الدين إلّا الحبُّ !!»[5] .

---

(١) كتاب قريش ـ ص ١ .
(٢) وسائل الشيعة كتاب الأمر بالمعروف ج ٤ ص ٩٧ .
(٣) الكافي ج ٢ ص ١٦٥ .
(٤) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٠٣ .
(٥) مجموعة ورام ـ ج ٢ ص ٥١ .

إن العطف والمحبة ليسا فقط الوسيلة الوحيدة لتفاهم الشبان والكبار في العائلة والبلاد ، بل هما قوة عجيبة محيّرة تستطيع أن تقرّب جميع أبناء البشر في العالم ، وأن تؤدي إلىٰ السلام والصفاء ، والإنسجام والتفاهم ، والأمن والاستقرار والراحة ، لجميع الشعوب والأقوام البشرية .

الدواء الشافي :

«يوجد في عالمنا اليوم قانونان يتصارعان ، قانون سفك الدماء والموت الذي يبحث يومياً عن وسائل جديدة للتخريب والهدم ، وقانون للسلام والعمل والسلامة يسعىٰ دائماً لكشف وسائل جديدة لإنقاذ الإنسان من براثن البلايا والأخطار التي تحدق بالعالم . إن دافع الحياة والحب ، مقابل غريزة العداء ، هو منبعٌ كبير ، فكلما تمكنا أن نُحبَّ ، فإننا نعيش في راحةٍ وسعادة .

إن هذا الدواء ، دواء العطف والمحبة ، الذي يشفي جميع الآلام والأحزان هو وصفة وصَفَها الأنبياء كلهم قبل قرون ، ألا يمكن تقوية هذه القوة الإعجازية التي تسبب التجاذب لدى المرأة والرجل وتبعث علىٰ الصداقة والصفاء بين أبناء البشر ؟ ألا يمكن إشاعة هذا الدواء الشافي الذي يؤدي إلىٰ إزالة علل التفرقة والنفاق ؟ إن العقل والمنطق يحكمان علينا أن نردَّ بالإيجاب علىٰ هذه الأسئلة كما أن تجارب علماء النفس تؤيد ذلك ، لأن إعجاز المحبة يبرز كل يوم عملياً في مختلف المواقف أمام أنظار المحققين»(١) .

عن أبي الحسن موسىٰ بن جعفر عليه السلام قال : «إن أهل الأرض لمرحومون ما تَحابُّوا وأدّوا الأمانة ، وعَمِلوا الحقَّ»(٢) .

---

(١) إعجاز التحليل النفسي ص ٤ .

(٢) مجموعة ورام ـ ج ١ ص ١٢ .

المحاضرة الثالثة :

الاحساس بالحقارة والخلاف

من هانت عليه نفسه فلا تأمن شرّه .

[الإمام الهادي عليه السلام]

في الشرح الذي أوضحناه في المحاضرة السابقة قلنا إن تكريم الشخصية هو أحد الواجبات الدينية والعلمية ، ومن العوامل المهمة للإنسجام وحسن التفاهم ، وأما تحقير شخصية الآخرين فهو من التصرفات المرفوضة ، ويبعث علىٰ الاختلاف العائِلي والإجتماعي .

إلاَّ أن من اللازم توضيح هذا الأمر للجميع ، وهو أنَّ احترام الشخصية يختلف عن الغرور والتعالي علىٰ الناس . وأن تكريم شخصية الآخرين نموذج للأخلاق ، لأنه من الصفات الحميدة ، أما الغرور والتوقعات غير الصحيحة للآخرين فدليل علىٰ الذلّة ومن الصفات الذميمة .

إن تكريم شخصية الناس عمل صحيح ومشروع . ويجب أداؤه ، أما الغرور ، فهو عمل غير صحيح وغير مشروع . ويجب الابتعاد عنه .

توقع المغرورين :

لسوء الحظ أنه يوجد الكثير من الشبان والكهول والشيوخ في الأسر

والمجتمعات البشرية ، مصابون بانحرافٍ أخلاقي ، ومبتلون بمرض الغرور والتعالي ، ويتوقعون من الآخرين أن يعتبروا مطالبهم المفرطة دليلاً لكي يحترموا شخصياتهم ، وأن يذعنوا لرغباتهم غير الصحيحة ، وعندما لا يُلبى هذا التوقع تتصاعد عندهم حالة الغضب ويعتبرون عمل الآخرين هذا عدم احترامٍ لشخصياتِهم ولذا يبدون ردودَ فعلِهم بالمخالفة والعناد والعداء . فيخلّون بجوّ العائِلة والمجتمع ويربكونه .

إنَّ للإنحراف الأخلاقي والرغبات غير العادية أسباباً متعددة وفي هذه المحاضرة ، سيأتي الحديث علىٰ بعض هذهِ الانحرافات ومنبعها النفسي ، وفي البداية نقوم بدراسة الانحراف الأخلاقي وحالة الشبان ومن ثم الكبار .

المنحرفون أخلاقياً :

الشباب والانحراف الأخلاقي : إن بعض الآباء والأُمهات يكون لهم عِلم ودراية ويعرفون واجبهم ، ويتعاملون مع أبنائهم بالأساليب الدينية والعلمية الصحيحة ، ويحترمون استقلال وشخصية أبنائهم . ولكن أبناءهم الشبّان يكونون مصابين بمرض الغرور والانحراف الأخلاقي ، فيريدون بالمكر والتمرد والصراخ والتخويف والتهديد ، والتخريب والدمار ، والأعمال الفوضوية إيجاد محيط يسودُهُ الخوف ، بهدف أن يسيطروا علىٰ البيت وإثبات قدرتهم ، لكي يستطيعوا الإمساك بزمام الأُمور والتحكم بالأُسرة .

علل الانحراف :

إن غرور وانحراف أمثال هؤلاء الشبان يعود إلىٰ علل وعوامل مختلفة ، فقسمٌ من هذهِ العلل له جذور طبيعية ، وينشأ من البُنية غير العادية لهم ، والقسم الآخر من هذهِ العلل والعوامل منشؤها اكتسابي ، يرتبط بظروف التربية وإخفاقات مرحلة طفولتهم .

بعبارةٍ أُخرىٰ ، يمكن تقسيم الشباب المنحرفين إلىٰ قسمين : الأول أُولئك الذين كانت مرحلة طفولتهم غير عادية ويعتبرون من الأطفال صعبي

المرام ، القسم الثاني هم الشباب المصابون بعقد إثر نقص عضوي أو سوءٍ في التربيةِ أثناء فترة الطفولة ، أو علل أُخرىٰ ، ووصلوا مع هذهِ العيوب إلىٰ مرحلة الشباب ، وأصبحوا في صفوف المجرمين الإكتسابيين وذوي التصرفات الشاذة ورد فعل هؤلاء الشباب ناتج عن الحقارة التي يشعرون بها باطنياً .

أطفال صعبو المراس :

«القسم الأول ، في الحقيقة أن عنوان (أطفال صعبو المراس) له معانٍ كثيرة ، فهذا العنوان يُطلق علىٰ أطفالٍ ، بالدرجة الأُولىٰ ، فوضويين ، يعني الأطفال غير الهادئين الذين هم مصدر حيرة وتعجب للتربية والتعليم اليوم . إن هؤلاء الأطفال ولكي يصلوا إلىٰ مقاصدِهم يتوسلون القوة واللامبالاة ، فيحدثون أضراراً ودماراً فيما يحيط بهم ، وهذهِ الخسائرِ هي بمثابة ألعاب لهم»[١] .

إن هذا النوع من الأطفال ، بالنسبة لرغباتِهم النفسية والأخلاقية يختلفون بعضهم عن البعض ، ولهذا السبب فإن العلماء ، من وجهة نظر العلم ، قسموا الأطفال إلىٰ أقسام متعددة ، وأوضحوا الحالات النفسية لكل قسمٍ منها ، فأحد أقسام الأطفال صعبي المراس هم أُولئك الذين لديهم انحراف أخلاقي .

«إن الإنحرافات الفطرية ، أو الفطرة المنحرفة، لها علاقات خاصة وأحياناً يطلق عليها عنوان (الجنون الأخلاقي) وأسماء أُخرىٰ من قبيل (اللاشعور الأخلاقي) (ومرضىٰ الأخلاق) وفي جميع هذهِ الاصطلاحات يوجد عنصران يمثلان الفطرة المنحرفة والفاسدة . أحدهما عدم الإهتمام الأخلاقي الناتج عن فقدان الشعور الإنساني ، والشخصية الفردية ، والآخر الفساد الفطري ، أي الرغبات المخالفة للرغبات الأخلاقية الطبيعية .

---

(١) ماذ أعلم ؟ تربية الأطفال الصعبين ص ٩ .

إن الفساد والانحراف الفطري يظهر بسرعة ، لأنه منذ السنوات الأولىٰ ، يُعرفُ لدى هؤلاء الأطفال عن طريق العصبية والغضب والصراخ اللاإرادي ، ولأنهم غالباً حاقدون وغاضبون وعصاة فإنهم يتعرضون لحالات عدم الراحة ، وبما أنهم متقلبون فإنهم يأنسون للتشرد والانحراف والاستجداء وربما شكّلوا مجموعات خاطئة منحرفة وخطرة .

وفي فترة البلوغ ، يكون غالباً ابتلاؤهم بالشهوات الناتجة عن العلاقات الجنسية المبكرة والتي من الممكن أن يرافقها التشرد ، ويكون هذا الأمر في المرتبة الأولىٰ لديهم .

إن أمثال هؤلاء الأشخاص ، ولكسلهم وعدم ثباتِهم لا يمكنهم الحصول على المال ، ولهذا ولكي يحصلوا علىٰ النقود من والديهم فإنهم يتوسلون القوة والتهديد وسوء الأخلاق وحتىٰ السب والشتم ، إن هذهِ المجموعة هي مأساة العائلة وربما قاموا أيضاً بارتكاب الجرائم . إن الشخص الفاسد المنحرف فكرياً يكون بصورة خاصة معدوم الحساسية لا يتقيد بشيء ، لأنه يحرر نفسه من أي نوع من أنواع العواطف الأخلاقية ، التي هي معيارٌ لقيمِنا وأهدافِنا ، وإحساساتنا ، وفي الحقيقة إن الفاسد والمنحرف هو ذلك الشخص الذي يقوم بالأعمال المنحرفة والمخالفة للمجتمع ، والأسوأ من ذلك أن يضع قيمة أخلاقية لهذه الأعمال المخالفة للمجتمع»[1] .

التربية الخاصة :

والأطفال صعبو المراس ، هم أُولئك الذين لم يحظوا في طفولتِهم بالرعاية العلمية والأساليب العلمية الصحيحة ، وتربوا بصورة عادية ففي شبابهم

(١) المصدر السابق ص ٣٩ .

يكـونون منحـرفين غير سـالمين . إن هؤلاء بأخـلاقهم السيئة وتصـرفـاتِهم غيـر الصحيحـة يصيبون جـو العائلة بـالاضطراب والإختـلال ، ويوجـدون مفاسـد ، ويواجهون الوالدين وبقية أعضاء الأُسرة بمشاكل مختلفة .

فواجب الوالدين مـع أمثال هؤلاء الشبـان ، هو الصبـر ، والمداراة ، مـع التـدبير . وكـذلك فـإن واجب بقية أعضـاء الأُسرة في مثـل هـذهِ الحـالات هـو المـرونـة والتسـاهـل ، يجب أن يُعَلمــوا الشبـاب عن طـريق التلقين المـلائم والأساليب الصحيحة ، ويسعوا إلىٰ أن تكون هـذهِ التعاليم بـالتدريـج ، وتُصبح عادة يعتاد عليها، ثم يجعلوه ينسجم قدر الإمكان مع جو الأُسرة .

الاحساس بالحقارة :

القسم الثاني هم الشبان المنحـرفون غيـر المريحين ، وهم أُولئـك الذين أُصيبوا بشعور الحقارة نتيجة سوء التربية ، أو لنقصٍ عضوي أو حرمان وإحبـاط طفوليَّين ، أو نتيجة لصـدماتٍ نفسيـة شديـدة نزلت بهم في مـرحلة الطفـولـة ، فغيّـرت أخلاقهم وطباِئعهم . إن هؤلاء يقومـون بأعمـال مخربـة وغير عـاديـة في الأُسرة والمجتمع ، لكي يظهروا وجودهم ، ويبينوا قدرتهم ويعوضوا بالتالي من خلال هذا الطريق عن عقدة الحقارة في باطِنهم .

المنحرفون اكتسابياً :

«الانحـرافات الإكتسابيـة : يكـون المنحـرفـون الإكتسـابيـون في صفـوف المنحـرفين ، ونصف المنحـرفين والمتحللين أخـلاقيـاً ، والذين أصبحوا هكذا لا إرادياً بصورةٍ من الصور .

إن هذهِ الإنحرافات ، تنتجُ غالباً عن المشاكل والخـداع ، والحقد والكراهية ، وبعد الصدمـات العاطفيـة التي تؤدي إلىٰ تشنج حـالة الـطفل وبـدون أن يعلم ماهيـة هذهِ الأحـداث وفي بعض الأوقات يقف أمـام تصرفـاتهِ الـذاتية وحتىٰ إنـه يتغلب أحيانـاً علىٰ تصرفـهِ وطبعهِ السابق .

يعتقد (أدلر) أن الشخص المنحرف يشعر دوماً أنه أضعف وأصغر من الآخرين ، وتحظىٰ العوامل الإجتماعية والإقتصادية لهذا الضعف لدىٰ أغلب المنحرفين بأهميةٍ خاصة .

إن الطفل أو الصبي الذي ينقلب ، إثر إحساسهِ بالحقارة ، تحصل لديه عادات وتصرفات جديدة ، وتصرفاته هذه هي ردود فعل ، إذن فهي مكتسبة وثانوية أيضاً . ولو لم يُجرح قلبهُ بسبب الأُسرة أو المدرسة أو المجتمع لما برزت لديه هذهِ الانحرافات»[1] .

تجاهل القوانين :

إن الشخص المصاب بعقدة الحقارة يرىٰ نفسهُ حقيراً وصغيراً ، له ضمير مضطرب وقلق ، ويشعر بالغضب علىٰ الأشخاص الذين ينظرون إليه بحقارةٍ وإهانة .

إن هذا الشعور بالذلّة والصغار يَجعلهُ لا يعتني بالموازين الأخلاقية أو الضوابط الإجتماعية ، ويفكر في نفسه : ويقول بما أنني ذليل وحقير في رأي الناس ولا قيمة لي في محيط الأُسرة والمجتمع ، فلماذا لا أُحرر نفسي من القيود الإجتماعية والحدود القانونية والأخلاقية ؟ ولماذا لا أنتقم من المحتقرين لكي أُعوض عن حقارتي ؟ إن هذا النوع من التفكير يدفع به نحو الأعمال الإنحرافية ويسوقهُ إلى طريق الشر والإبتذال .

عن الإمام الهادي عليه السلام : «من هانت عليه نفسه فلا تأمن شرّه»[2] .

عوارض الاحساس بالحقارة :

إن الشاب ، نتيجة عقدة الحقارة أو الإحساس بالحقارة يُصاب بمرض التكبر فلا يهتم للناس ، فيعتدي ويتمرد ، ويتجاهل الأُصول الأخلاقية والإنسانية وبالتالي يصبح جباراً لا يستحي من القيام بأي عمل .

---

(١) المصدر السابق ص ٥١ .

(٢) تحف العقول ص ٤٨٣ .

عن أبي عبد الله عليه السلام قال : «ما من رجل تكبّر أو تجبّر إلا لذلّةٍ وجدها في نفسه»[1] .

حب السيطرة :

«يقول جون ديوي : إن غريزة حب السيطرة لدىٰ الأشخاص المبتلين بمشاعر الحقارة ، أو عقدة الحقارة الشديدة ، وللتعويض عن النقص في الشخصية يسعون للتأثير علىٰ الآخرين فيجذبون بذلك انتباههم إلىٰ قدرتهم وقوتهم ، وعن هذا الطريق يكونون قد عوضوا عن حقارتهم .

إن الاضطرابات الشديدة للأشخاص الضُعفاء ـ الناتجة عن تصورات التعالي ، وطلب المناصب ، والصراخ ، والتصلّب ، والوقاحة والتسلط على الآخرين الخاضعين أصلاً لهم . كل هذه تدل علىٰ علامات حب التسلط»[2] .

إن هناك عوامل مختلفة تؤثر في الإنسان وتؤدي إلىٰ ظهور عقدة الحقارة وبعضُ هذهِ العوامل يعذِّب الشخص دائماً .

ازدياد الحقارة :

إن الأشخاص المصابين بعقدة الحقارة يجب أن يلتفتوا إلىٰ أنَ عقدَتهم تبقىٰ علىٰ حالِها ببقاء حالهم علىٰ التجبر والتكبر وببقاء حالهم علىٰ الخلاف والتخريب هذا بالإضافة إلىٰ مبادرتهم بالأذىٰ والعدوان كون هذهِ الأعمال ترسخ عقدهم وتجرهم إلىٰ الحقارة والسخرية أكثر فأكثر ولهذا السبب فإن الأئمة الأطهار عليهم السلام يوصون أتباعهم ألا يظهروا أي رد فعل سلبي أو يقوموا بممارسات خاطئة عند مواجهتهم لتصرفات الجهلة التحقيرية .

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٣١٢ .

(٢) الأخلاق والشخصية ص ١٣٨ .

خرج الإمام الصادق عليه السلام مع رفيقين له أحدهما (مُرازم) والآخر (مصادف) وينقل محمد بن مرازم عن أبيه حادثاً وقع أثناء خروجهم فيقول : خرجنا مع أبي عبد الله عليه السلام حيث خرج من عند أبي جعفر المنصور من الحيرة فخرج ساعة أذن له وانتهى إلى السالحين [قرية تبعد أربعة فراسخ عن بغداد] في أول الليل ، فعرض له عاشر من قبل الدولة كان يستحصل رسوم الدخول في السالحين فقال له : لا أدعك تجوز فألح عليه وطلب إليه ، فأبى إباءً وأنا ومصادف معه ، فقال له مصادف : جعلت فداك إنما هذا كلب قد آذاك وأخاف أن يردك وما أدري ما يكون من أمر أبي جعفر وأنا ومرازم أتأذن لنا أن نضرب عنقه ، ثم نطرحه في النهر فقال : كف يا مصادف فلم يزل يطلب إليه حتى ذهب من الليل أكثره فأذن له فمضى فقال : يا مرازم هذا خير أم الذي قلتماه ؟ قلت : هذا جعلت فداك ، فقال : إن الرجل يخرج من الذل الصغير فيدخله ذلك في الذل الكبير(١) .

وعنهُ عليه السلام : «لا تُشارّ مَنْ فَوقكَ ولا تسخر بمن هو دونك»(٢) .

العلاج العقلاني :

إن الأشخاص الذين يعانون العذاب من عقدة الحقارة ، يجب عليهم أن يفكروا بشكلٍ سليم ، ويبحثوا عن حلٍ لتعويض حقارتهم بتعقل ، ويتخلصوا بطريقةٍ صحيحة من نقصهِم وحقارتِهم لكي يحصلوا علىٰ شخصية سليمة ومحبوبة في الأُسرة والمجتمع .

علىٰ سبيل المثال إن نقص العضو عند الإنسان هو أحد الأسباب الرئيسية لإيجاد عقدة الحقارة ، فإذا كان الطفل مصاباً بذلك منذ طفولته أو أُصيب فيما بعد فهو عندما يصل مرحلة الشباب يتعذب من جراء هذا النقص العضوي ، فيشعر بحقارةٍ دائمة .

---

(١) روضة الكافي ص ٨٧ .

(٢) تحف العقول ص ٣٠٤ .

«إن النقص الجسمي يشمل أشياء كثيرة ، كالخال أو الأثر الظاهر على وجه فتاةٍ جميلة أو اعوجاج عظام القدم أو العمود الفقري وغير ذلك ، كل هذهِ النواقص تجعل الإنسان تحت ضغط من عقدة الحقارة تعذبهُ في بعض الأوقات وقد تدفع به أحياناً إلىٰ الجنون أو الانتحار .

إن الطفل الضعيف أو المصاب بعاهة لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، وهو مجبر علىٰ أن يتحمل سخرية زملائه الأصحاء ورد فعله الوحيد هو أن يتظاهر بعدم الاهتمام .

وهذا العمل بحد ذاته هو قمعٌ لإحساساتِهِ وشخصيته ، وهو سيكون معذب فكرياً دوماً . إن المشاعر الجريحة عندما لا تلتئم بطريقةٍ ما فإنها تتسرب إلىٰ الضمير الباطني ، لتصبح بالتالي سبباً للإختلال الفكري»[1] .

إن عالم اليوم بتقدمه الباهر في مختلف أقسام الجراحة ، أمكنهُ أن يزيل بعض العاهات والنواقص الجسمية . إن أمثال هؤلاء الشباب يجب أن يستفيدوا من الأساليب العلمية والفنية ، ويضعوا أنفسهم تحت إشراف الخبراء والمتخصصين وربما كان ميسوراً إصلاح نقصهم البدني ومن ثم حل عقدِهم النفسية .

وإذا لم يكن إصلاح العاهة البدنية ميسوراً بالوسائل العلمية ، فإنه بإمكانهم الإستفادة من قابلياتهم الباطنية وكذلك تنشيط كفاءاتهم وعن هذا الطريق يمكن التعويض عن نواقصهم الجسمية .

التعويض عن النقص :

إن هؤلاء الشبان ، رغم أنهم مصابون بالنقص إلا أن معظمهم يمتلك

---

(١) عقدة الحقارة ص ١٢ .

مؤهلات أُخرىٰ في مجالات متعددة ، فإنهم لو بادروا كفاءاتهم واستثمروها في إحدىٰ المجالات العلمية أو العملية لاستطاعوا أن يتعلموها بصورةٍ جيدة وبهذا سيعوضون عن نقصِهم الطبيعي بالمهارة التي اكتسبوها . وعن هذا الطريق يجلبون لأنفسِهم اهتمام واحترام الآخرين ويتخلصون من الشعور بالحقارة والاستخفاف .

فكم من أشخاص مصابين بالعمىٰ أو الصمم ولكنهم رغم هذا النقص لم يدخل اليأس إلىٰ قلوبهم ، بل شرعوا يسعون للإستفادة من كفاءاتِهم لارتقاء مدارج الكمال للتعويض عن نقصِهم واكتساب احترام الآخرين .

سوء التربية والحقارة :

إن أحد أسباب عقدة الحقارة هو سوء التربية في مرحلة الطفولة .

فالأطفال الذين يترعرعون تحت سيطرة العنف وخشونة الوالدين ، أو المدللين بسبب الإفراط في حب الوالدين ، تنتظرهم في مرحلة الشباب عقدة الحقارة ولا يستطيعون معاشرة الناس بجدارة ولا ينسجمون معهم بالنشاطات الإجتماعية .

إن هؤلاء بإمكانِهم إصلاح أنفسهم بشيء من الإرادة والحزم ومن ثم نبذ الصفات السيئة التي داخلتهم إثرَ التربيةِ السيئة للوالدين وإحلال الصفات الحسنة محلّها فيعوضون بذلك عن حقارتهم فيتخلصون من الشعور بالضعة والذل . وسنتطرق في المحاضرة الرابعة من هذا الكتاب إلى شرح تفصيلي عن هذا الموضوع .

الحقارة الوهمية :

إن إحدى المسائل التي يجب دراستها في بحث (الحقارة) هي أن الكثير من الشبان والكهول لا يمكنهم التمييز بين الحقارة الحقيقية والحقارة الوهمية ، ولذا فهم يشعرون بالحقارة والضعف إثر عدم الإهتمام بهم فمثل هؤلاء

الأشخاص ولكي يغطوا ضعفهم الخيالي ويعوّضوا عن حقارتِهم الوهمية فإنهم يقدمون على ممارسة الأعمال بخشونةٍ وعنف ، وهذا الأمر يؤدي إلى خلاف بين الشباب والكبار وهذا الخلاف يؤدي إلىٰ صراع وعدم تفاهم .

الشباب والاحساس بالحقارة :

إن الشبان الذين وصلوا مرحلة البلوغ حديثاً يرون أنفسهم ضعفاء ويشعرون في أنفسهم بالحقارة من ناحيتين ، **الأولى** : هي ذكريات العجز في المرحلة الماضية ، **والثانية** : الشعور بقلق واضطراب بالنسبة للمستقبل .

الناحية الأُولىٰ : إن الذكور والإناث الذين اجتازوا مرحلة الطفولة حديثاً ودخلوا مرحلة الشباب يشعرون بعطش القدرة ، لأنهم لم ينسوا بعد ضعف أيام الطفولة ، فهم يتذكرون أنهم حتىٰ الأمس القريب كانوا أطفالاً لا يملِكون استقلالاً أو شخصية ، أما الآن فقد أصبحوا شباناً أقوياء فهم يشعرون بالعذاب حينما يتذكرون ضعف طفولتِهم ولهذا السبب يحسون بالحقارة ، ويريدون أن يعوضوا عن تلك النقيصة لكي يبرزوا استقلالهم ويظهروا قدرتهم للآخرين .

«يعتبر (آدلر) حب الظهور ردةَ فعل مقابل الإحساس بالحقارة واقعياً أو وهمياً ، أو التعويض عنها ، فهو يقول : الجميع مبتلون بنوعٍ من الحقارة ، لأن الجميع كانوا في يوم من الأيام أطفالاً وفي الطفولة تقترن الحقارة بثلاثِ تجارب :

الأُولىٰ : الإحساس بالعجز ، **الثانية** : الإحساس بضعف أكثر من الكبار ، **الثالثة** : إحساس التبعية للكبار وكل طفل يريد أن يكون شخصاً كبيراً وفي هذا المجال يسعى لكي يتغلب علىٰ إحساس النقص[1] هذا» .

«إن إثبات الوجود لدىٰ الشباب يدل علىٰ تقدم القوىٰ البدنية

---

(١) علم النفس الاجتماعي ج ١ص ١١٦

والفكرية في آخر مرحلة من النمو لديهم ، وفي نفس الوقت يدل على ردود فعلٍ أقلّها الحصول علىٰ القدرة مقابل الإحساس بالتبعية للأشخاص البالغين والجيل المتقدم عليهم»[١] .

والشبان الواعون المثقفون يعتبرون ضعف أيامِ الطفولة من السنن الإلٓهية في نظام الخلق ، ولا يشعرون بالحقارة أبداً من تذكّرها لكي يقوموا بالأعمال السيئة كردِّ فعل ، أو إظهار التفوق للتعويض عنها ، إنهم يتوقّعون من الكبار توقعاً معقولاً وصحيحاً وهو أن يحترموا استقلالهم وشخصيتهم ولا ينظروا إليهم على أنهم أطفال .

انعكاس الحقارة :

إن الشبان الجاهلين ، يتألمون عند تذكرهم ضعف أيام الطفولة ويعتبرونها مُحقرة لهم ، ولكي يعوّضوا عنها ويظهروا أنفسهم كباراً وأقوياء فإنهم يقومون بأعمال عنف ، ويبدأون بذلك من البيت وفي بعض الأحيان يخالفون الوالدين بشدة ولا يعيرون أوامرهما أهميةً ويسخرون من الجد والجدة ، ويلقون بأوامرهم ونواهيهم علىٰ أطفال العائلة وأحياناً يضربونهم ويسيئون الكلام مع الخدم ، ويتحججون في الطعام واللباس ، يصرخون لكي يلفتوا أنظار أهل البيت ويخيفونهم ، إن هذهِ الأعمال هي ردود فعل الحقارة الوهمية حملوها مَعَ أنفسِهم من فترة الطفولة .

إن هدف هؤلاء الشبان من أعمالهم العنيفة الخاطئة التي يرتكبونها ، هو إظهار أنفسهم ووجودهم ، وشخصيتهم ولِيُعْلِموا أعضاء العائلة بقدرتهم وقوتهم ويفهموهم بأننا لسنا أطفال الأمس ، لقد انتهت مرحلة ضعفنا ، وها هو يوم قوتِنا وتفوقنا .

القلق من المستقبل :

الثانية : (الضعف والحقارة) هي المشكلة الأُخرىٰ التي يشعر بها الشباب

---

(١) ماذا أعلم ؟ البلوغ ص ٨٨ .

في باطنهم ؛ هو القلق من المستقبل وما ستحمله اليهم الأيام ، والشبان في هذهِ الحالة يعشقون الإنجذاب الطبيعي والحرية والإستقلال فيريدون بهذهِ الطريقة التحرر بسرعة من الإرتباط بالوالدين والتخلص من التدخل ، ولكنهم لا يملكون الإعتماد على النفس ، كما أنهم يرون أنفسهم بحاجة إلىٰ دعم وحماية وإرشاد الوالدين ، وهذا الإحساس بالضعف والحاجة يدفعهم إلىٰ ردود فعل غير صحيحة .

«إن مرحلة البلوغ للشباب هو عهد التحليق عن الوكر ، وهو المرحلة التي يستطيعون فيها الإتجاه وحدهم نحو (مجتمع الشباب) في الوقت الذي لا يزالون يخافون فيه من الإنفصال والوحدة ، ولهذا الاختلاف بين طلباتِهم وإبراز قدرتهم ، تظهر لدىٰ أغلب الشبان تصرفات غير موزونة وغير مقبولة»[1] .

ممارسات طفولية :

«إن بعض الشبان الذين يسعون إلى الاستقلال والحرية ، وينمّون في أنفسهم أمل الإنفصال عن الوالدين ، فهم كلما ضعفوا خافوا من هذا الإنفصال أكثر فأكثر ، فيصبحون خشنين متمردين بالنسبة للوالدين ، ولهذا فهم يتصرفون كالأطفال ، فالفتى الذي يسب ويشتم ويرطم الباب ويتخلف عن الحضور إلى مائدة الطعام ويقوم بممارسات لا تطاق ، فهو بلا شك قد أصبح في حالةٍ روحية غير مسؤولة ، وهو يريد الاستقلال ، ولكنه في الوقت نفسه يخشى الحرية وبسبب العقد النفسية والعوارض الناشئة عنها ، صار متمرداً»[2] .

إن أمثال هؤلاء الشبان لن يضروا شخصيتهم ومحبوبيتهم شيئاً إذا كفّوا عن

---

(١) المشاكل الروحية للشباب ص ٢١ .
(٢) المصدر السابق ص ٥٦ .

أعمالِهم السيئة ، واحترموا حدود وحقوق الـوالـدين لتمكنـوا بواسـطة إرشاداتِهم ومساعداتِهم ، من حـلّ مشاكلِهم والتعـويض بسهـولة عن نقـائصهم ويطووا سُلَّمَ الـرقي بسرعـة في ظل الانسجـام وحُسن التفـاهم الأُسـري ويـحقّقـوا لأنفسهم مستقبلاً مشرقاً ووضّاءً .

الآباء والاحساس بالحقارة :

إن بعض الآباء ، من ناحية أو من عدة نواحٍ ، يشعرون بـالحقارة ، ولـذا يصبحون عنيفين يريـدون إظهار تفـوقهم ولا يستطيـع أحدٌ أن يتحملهم ، ولكي يعوضوا ، أو بالأحرىٰ لكي يغطوا عقـدة حقـارتِهم فإنهم يقومون بأعمال غيـر عادية وغير مقبولة .

وهؤلاء ولكي يثبتـوا قدرتهم في الـدولة الصغيـرة للعائلة يبـدأُون بـإسـاءة التصرف مع الأطفال وبقية أفراد الأُسرة ، يصرخون وأحياناً يضـربون الأطفـال ، ويحدثون جـواً من الرعب في محيط الأُسـرة ويضعون جميـع تصرفـاتهم السيئة تحت عنوان (تربية الأب) و (الإنضباط العائِلي) ويهدفون من وراء هذهِ الأعمـال إلى تبرير تصرفاتِهم السيئة .

إن الأب المغرور الذي يريد التفوق والرئاسة لا يغفر للأطفـال تصرفـاتهم ولا ولبقية أفراد العـائِلة ، ويكبّر هفـواتِهم الصغيرة وبـدون أي تسامـح يؤاخذهم ويعاقبهم بأشد العقوبات ، وأما أعمـالهُ السيئـة والقبيحة فـإنهُ يعتبـرها تـافهة ولا يسمح لأي أحد بالإعتراض أبداً .

الآباء المغرورون :

إن الأب المغرور يتوقّع أنه عنـدما ينـام يجب علىٰ جميع أفـراد العائلة أن يسكتوا احتراماً له ، لا يتحدث أحد ، ولا يُحدثوا صوتاً لكي ينـام هو ويستـريح استراحةً كـاملة . إذا صاحَ طفـلٌ أو انغلق بابٌ بفعـل ريح وأحـدث صوتـاً ، أو سقط شيء علىٰ الأرض فينهض من النوم يحدث عاصفة ويزجر بها جميع أفـراد العائلة ولكن في رأي هذا الأب المغرور أن لا أهمية لاستراحة الآخـرين ، وهو

يعطي لنفسهِ الحق أن يصرخ عندما يكون الجميع نياماً ، أو يغلق الباب بقـوة ، فيقفز الجميع من نومِهم مضطربين ، ومن ثم لا يسمح لأي منهم بالإعتراض .

تعسف الآباء :

إن أطفال هذهِ العائلة ونتيجة لسوء تصرفات الأب غير الموجّهة يترعرعـون غـاضبين وفي حالـةٍ عصبيةٍ سيئـة ، ويشعرون في أنفسهم بـالذّلـةِ ، وبالتـدريج يصابون بعقدة الحقارة ، وهؤلاء مجبرون علىٰ أن يخضعوا طـوال فترة الـطفولـة لجميع أنواع الصعوبات وعدم الإرتياح تحت الظروف التي يعيشون فيها ، لأنهم صغار السن وضعفاء ، ولا يستطيعون أن يبدوا ردود فعل أمام التصرفات الخشنة للأب القوي ، أو يدافعوا عن أنفسهم .

إن المشكلة الكبيـرة في هذهِ العـائلة تبدأ عنـدمـا يجتـاز الأطفـال مـرحلة الطفولة ويدخلون مرحلة الشباب والقوة ، في الوقت الذي يكون بـاطنهم مملوءاً بالذكريات المـرة والحزينـة لفترة الـطفولـة ، ويتعذبـون من عقدة الحقـارة التي وجدت لديهم نتيجة تصرفات الأب الصعبة . في مثل هذهِ العائلة نجد من جهةٍ أباً مغروراً ، يريـد كالمـاضي أن يكون متفـوقاً ويغـطي عقـدة حقـارتـهِ البـاطنية بالتحكم والتشديد علىٰ أبنائهِ الشبان ، ومن جهة أُخرىٰ نـرىٰ الأبناء قـد أصبحوا الآن شباناً أقوياء ليس فقط أنهم لا يطيعون أباهم الصعب ، كما كـانوا في عهـد الـطفولـة ، ولكنهم بما أنهم أُصيبـوا بعقدة الحقـارة يـريـدون كـالأب أن يثبتـوا وجودهم من خلال إبراز القدرة ، لكي يجعلوا أفراد العائلة يخشونهم ،فيمسكون بزمام الأُمور بأيديهم ويعوضون عن عقدة الحقارة ، ومن البديهي أنه في مثل هذهِ الظروف تكون العـائلة ميدانـاً للمشاجـرة وعدم التفـاهم ، ولهذا نـرىٰ أن الأبناء يقفون بوجه الآباء ويقاومونهم وصولاً إلى أهدافهم ، وتكون النتيجة سلب الأمن والراحة من البيت ، ووجود عاصفة من الاختلاف فتصبح الحياة غير عادية وسيئة جداً .

علاج عدم التفاهم :

في مثل هذهِ الحالات يجب علىٰ الآباء والأبناء الشبان أن يتبعوا العقل والمصلحة العامة ، وترك التعصب واللجاجة ، والإنصراف عن الرغبات الخاطئة ، لكي يستطيعوا معاً حلَّ مشاكلهم والتمهيد للإنسجام وحسن التفاهم وتوفير الوئام ليواصلوا الحياة في صفاء وصداقة .

واجبات الآباء والأبناء :

يجب علىٰ الآباء أن يَعوا بسرعة ، ويتركوا الأساليب غير الصحيحة ، وينسوا فكرة التفوّق والتسلط ، ويحترموا شخصية أبنائهم ، ويعملوا بقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم باعتبار الأبناء (وزراء) العائلة ، ولا يأمروهم باحتقار بل يتصرفوا معهم كأصدقاء حميمين ، فيزيلون بهذا العمل الإحساس بالحقارة من نفوسهِم ، فتُحلّ هذه العقدة وتعود حالتهم النفسية إلىٰ وضعها العادي . كما يجب علىٰ الأبناء الشبان أيضاً أن يحلِلوا وضعهم بصورةٍ صحيحة ويفكروا في مستقبلهم ، ولا يستغلوا قوة شبابهم لهذا اليوم استغلالاً سيئاً ولا يقوموا بالعدوان ، ويبتعدوا عن الإنتقام والحقد ، ثم يجب أن ينتبهوا إلىٰ أن التمرد والعصيان والتهاجم وهتك الحرم والإهانة . . . . كل ذلك ليس فقط لا يغطي حقارتهم ولا يرفع من شخصيتهم في المجتمع ، وإنما بالعكس ، يزيد من انحطاطهم وحقارتهم ، فيبقون إلىٰ نهاية عمرِهم في ذلة وعار .

ولو أن الآباء والأبناء عرفوا واجباتهم ، ونسّقوا أعمالهم وأقوالهم ، عملياً مع البَرامج الدينية والعلمية ، وتركوا الغرور والتوقّعات الناشئة عنه ، واقتنعوا بتكريم شخصية بعضهم البعض ، وحل حسن التفاهم والمحبة محل الإختلاف والمشاجرة فإن جو البيت يحظىٰ بنعمةِ التفاهم والتعاون .

تعالي الآباء :

وعلى العكس من ذلك إذا بقي الآباء علىٰ حبّهم للتسلط ، ولكي يغطوا

حقارتهم الداخلية ، تصرفوا مع بناتِهم وأبنائِهم الشبان كما كانوا يتصرفون معهم في عهد طفولتهم ، فهم يأمرونهم بشدة وعنف ويحطمون شخصياتهم . وكذلك إذاصار الأبناء الشبان وللتعويض عن حقارة أيام الطفولة ، لا يعيرون أوامرهم أي اهتمام ويتحدثون إليهم بكلام بذيء ويسيئون معهم الأدب ويوجهون إليهم الإهانات ، في هذهِ الحالات يتصاعد الخلاف وعدم التفاهم ، وتزداد هذهِ الحالات يوماً بعد آخر لأنه من جهة نرىٰ الأب ولكي يحافظ علىٰ تسلطهِ في العائلَة ويخفي ضعفه عن أبنائه يشتد في صعوباتِهِ وعنفه ليظهر وجوده وقدرته ، ومن جهةٍ أُخرىٰ فإن الشبان أيضاً الذين تمتلىء قلوبهم بالغضب من ضغط حقارة عهد الطفولة ، يريدون أن يظهروا أنفسهم أكثر فأكثر ، لكي يعوّضوا عن ضعف وحقارة الماضي بكل قوة ، ولهذا السبب يُبدون ردود فعل مهينة مقابل الأب وتظاهره بالقدرة فيجيبون أوامره بكلماتٍ نابية وضحكات مستهزئة .

ومن الواضح أن الحياة في مثل هذهِ الظروف لا تحتمل في نظر أعضاء الأُسرة .

وهم الحقارة :

إن بعض الآباء والأُمهات الذين لهم ضمائر هادئة ونفوس مطمئنة ولا يملكون إحساساً بالحقارة ، أو عقدة حقارة ، يتصرفون في محيط الأُسرة بالتعقل والأساليب الصحيحة ويربون أبناءهم بتربية لائقة ، ولكن عندما يصل أبناؤهم إلى سن البلوغ والشباب ، حيث يريدون الاستقلال والشخصية فإن الوالدين يصابون من مشاهدتِهم لأبنائهم بوهم الحقارة ، ويستولي عليهم الاضطراب والقلق فيشعرون في قرارةِ أنفسِهم بالضعف والحقارة ، وبهذهِ الصورة فإن قدرتهم في محيط العائلة قد تزلزلت ويقولون في أنفسهم حتى الأمس القريب كنا القادة المطاعين في العائلة وأبناؤنا قبل بلوغهم كانوا يطيعوننا ولكنهم وقد وصلوا سن البلوغ والشباب فقد تغيرت طريقة تفكيرهم وأُسلوب تصرفهم وبدأُوا يتحدثون عن الحرية والإستقلال ويذهبون ويجيئون دون الإهتمام بنا .

«إنـه لا يهتم بنا أبـداً ، ويعارض دائمـاً ، وأحيانـاً لا يجيبنا ويغلق الباب بقوة ويخـرج ، وكل مـا يفعلهُ ، يفعله طبق ما يـريد دون أن يسألني فهل تتصـوّرون أن شابـاً في سِنّهِ مـع كل هـذهِ التصرفـات السيئة يمكن إصلاحه ؟ لا أعرف كيف أصبح هكذا ؟ لقد كان في السابق طيب الأخلاق»[1] .

«لقد فقدت عقلي تماماً ، إنني أتصور أنه بدأ يكرهني ، بينما نحن قمنا له بكل ما نقدر عليه ، ولم نمنـع عنه شيئـاً أنا وزوجي نشعـر دائمـاً أنـه يـريـد أن يقـول لنـا شيئـاً ، ولكنـه رغم انتـظار ، يبقىٰ سـاكتاً . لقـد كان في السـابق يخبرني بكـلِ شيء ، ولكنني الآن عندما أسأله إلىٰ أين تـذهب يجيبني (خارج البيت) وعنـدما أسـأله (مع من تخرج) يقول (مع صديق)»[2] .

يجب أن يقال لمثل هؤلاء الآباء والأُمهات : هل تتذكران أن ابنكما عندما كان طفلاً وفي أوان تعلمه المشي ، كان يمسك بيد أُمـه لكي يسير بمسـاعدتهـا بضع خطوات ؟ هل تتذكران أنه عندما كبر ، تركتماه يسير مستقـلاً دون الإعتماد على الآخـرين ؟ ألم يكن مشي الطفـل في الوقت المنـاسب دليلاً على سـلامـةِ عظامه وعضلاته ؟ هل اضطرب الوالدان لدىٰ مشاهـدة استقلال ابنهمـا في ذلك الـوقت ؟ وهل شعـرا بالحقـارة عندمـا لم يعد الـطفل بحـاجةٍ لمسـاعدتهمـا في المشي ؟ ألم يكونا يُصـابان بـالإضطراب والقلق لـو أن الطفـل لم يعد يستـطيع المشي في الوقت المناسب ؟ ! إذن ، لمـاذا يقلق الوالـدان عندمـا يريـان طلب أبنائِهم للاستقلال الذي هو عماد تحرك مجتمعهم ؟ فهل يجب أن يبقىٰ أبناؤهم الشبان أطفالاً أغـرار ؟ ألا يجب أن يخرجـوا من زمرة الأطفـال ويلتحقوا بـركب الرجال والنساء في المجتمع ويصبحوا مستقلين ؟ !

(١) المشاكل الروحية للشباب ص ٤٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٨ .

استقلال الشباب :

إن طلب الاستقلال هو إحدىٰ الغرائز الثمينة التي خُلقت في الإنسان بحكمةٍ إلَهية ، وهذهِ الغريزة هي أساس الإعتماد على النفس ،ومقدمة لنجاح الجيل الشاب في المجال الإجتماعي ، والآباء والأُمهات الواعون لا يودّون فقط استقلال أبنائِهم الشبان ، بل إنهم لن يصابوا بالقلق أو الحقارة ، فظهور تلك الحالة دليل علىٰ سلامةِ الجسم والنفس ، فيفرحون كما فرحوا لدىٰ استقلال ابنهم بالإعتماد علىٰ نفسه في المشي في عهد الطفولة .ولكي لا يقوم الشبان بأعمال متطرفة عند شعورِهم بالإستقلال والحرية ، ولا يصابوا بالغرور في بداية مرحلة الشباب التي هي حساسة جداً في حياتهم ، ولكي لا يقوموا بأذىٰ الآخرين ، من الضروري أن يعرفوا أن احترام استقلالهم وحريتهم لا يعني أن يتخذوا القرارات جميعاً وحدهم وأن يقوموا بأي عمل يريدونه .

حاجة الشباب الى الارشاد :

إن الشبان، ليست لهم تجربة،وينحرفون بسرعة عن مسير مصلحتهم مما يؤدي إلىٰ تعاستِهم . فهم يحتاجون إلىٰ إرشاد الوالدين والأشخاص الآخرين ذوي التجربة ، ويجب الاستفادة من معلومات وتجارب هؤلاء ، كما يجب أخذ آرائهم بعين الإعتبار لمعرفة الطريق الصحيح من الخاطىء ، تجنباً للوقوع في أخطار الحياة المختلفة .

عندما يستقل الطفل الصغير في مشيه لا يقوم الآباء والأُمهات بربط يديه ورجليه لكي يمنعاه من المشي ، فهو يسير متجولاً بحرية في البيت ويذهب إلىٰ هُنا وهناك ولكنه يحتاج إلىٰ مراقبة شديدة ، لأنه طفل لا يعرف خيرهُ من شره لأنهم إن تركره وحده يسير ربما تعرض لأخطار الحرق ، أو السقوط من مكانٍ عالٍ أو الغرق في الماء ، وأمثال هذهِ الحوادث وفي النتيجة قد يفقد حياته أو علىٰ الأقل سلامته .

فالطفل يعشق اللعب ، وبما أنه مستقل في مشيه ، فإنهُ يُوصل نفسهُ

بسرعة إلىٰ أحواض السباحة وعندما تصل الأُم تقوم بإبعاده فيغضب الطفل ، ويصرخ ويدق بقدمهِ الأرض معترضاً (لماذا زاحمتني أُمي في اللعب ؟) ولكن الأُم بناءً على المصلحة سلبَتْ منهُ الحرية ، الطفل يعشق اللعب ، والأُم تعشق حياة وسلامة ابنها .

الطفل يشعر بلذة إلىٰ ماء الحوض حيث يلعب ، ولكنه يغفل عن خطر الموت ، والأُم واجبٌ عليها المحافظة على طفلِها فتراقبهُ حتىٰ يكبر فيُدرك بنفسهِ ماهية السلامة والخطر ، عند ذاك تتركهُ حُرّاً .

الحرية بحدود :

إن الشبان يسيرون بشكلٍ طبيعي نحو طلب الاستقلال ، يريدون التجول بحرية في المجتمع ، ويذهبون أينما يريدون ، أما الآباء والأُمهات الواعون فإنهم لا يعارضون استقلال وحرية الأبناء ، ولا يمانعون في تحركهم الإجتماعي ، ولكن يرون من واجبهم أن يراقبوهم ، ويذكِّروهم بالخير والشر ، ويمنعوهم من الأعمال الضارة .

بعض الشبان يعتبرون إرشادات الوالدين سلباً لحرياتِهم فيغضبون ، ومثل هؤلاء يجب أن يعلموا أن الحرية تختلف عن اللامبالاة . إن الآباء والأُمهات الواعين عندما يقدمون إرشاداتِهم ونصائِحهم ويمنعون الشبان من بعض الأعمال ، إنما يريدون خير وسعادة الأبناء طبقاً لما تقتضيه مصالحهم .

الشيوخ والاحساس بالحقارة :

إن الأجداد والجدات يمتلكون إحساساً بالضعف والحقارة جراء عجز الشيخوخة ، ويحاولون بأية طريقة تعويض هذا النقص من خلال تشبثهم لكسب القوة .

إنهم يتذكرون وللأمس القريب بأنهم كانوا أقوياء مقتدرين ، وها هم قد خارت قدراتهم وقوتهم ، وتبدلت قوة الأعصاب إلى ارتجاف ومقدرة الجسد إلى هزال وضعف البصر وثقل السمع ، وهزل الجسم وخفت لديه القدرة والحركة ،

بالأمس كانوا حماة غيرهم واليوم باتوا هم بحاجة لمن يساعدهم ويحميهم .

الضعف الواقعي :

إن عجز الشيخوخة ليس ضعفاً وهمياً وحقارة خيالية يمكن معالجتها من خلال دراسة النفس وتحليلها ، وإنما هو ضعف واقعي يصاب به كبار السن ويترك أثراً سيئاً على جميع قواهم .

إن الكثير من كبار العلماء والأُدباء الذين ذاقوا طعم الشيخوخة ودخلوا مرحلتها وشعروا بذلتها عاتبوا الدهر على ما أنزل بهم ولاموه على ذلك ، وإن كثيراً من الشعراء قد ذكروا هذا الأمر في شعرهم .

ينتاب الشباب والشيوخ إحساس بالحقارة عند تذكرهم الأيام الماضية ، مع أن الفارق أن ماضي الشباب هو ضعف مرحلة الطفولة ، بينما ماضي الشيوخ هو قوة مرحلة الشباب ، وإن شدة وخطورة إحساس الشيوخ بالحقارة أكثر بكثير ممّا هي عند الشباب .

منحدر الحياة :

الشباب يتسلقون يوماً بعد آخر نحو قمة القوة والإقتدار ، ويبدأُون تدريجياً بالتخلص من قلقهم السابق وتزول لديهم عقدة الحقارة تلقائياً ، لكن الشيوخ يحطون أقدامهم على منحدر الحياة ويزدادون ضعفاً يوماً بعد آخر ، فيشتد إحساسهم بهذا الضعف وتستحكم عندهم عقدة الحقارة .

قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان الحرص والأمل»[1] .

وعنه صلّى الله عليه وآله وسلّم : «الشيخ شابٌّ في طلب الدنيا»[2] .

---

(١) تحف العقول ص ٥٦ .

(٢) مجموعة ورام ج ١ ص ٢٧٨ .

جمع المال :

إن البعض من الشيوخ يكتسبون القدرة بجمعهم للمال ، ويوطدون علاقتهم بالأسرة والمجتمع ، فيجتمع حولهم الأفراد الجشعون علّهم يصيبهم نصيب من الثروة وتراهم يكثرون من التكريم والإحترام والتملق والخضوع ويكيلون من المدح والثناء على أمل كسب العواطف والاغتراف من الأموال ، ومن الواضح أن الثروة تعوض عن ضعف وحقارة شيوخ كهؤلاء وتشبع لديهم الرغبة في التفوق .

إن الشيوخ الذين هم من الناحية الجسدية يعانون من ضعف وهم عاجزون عن استعراض قوتهم كما يفعل الشباب من خلال العنف والصراخ والتدمير والهجوم ولكي لا يخرجوا عن محيط الأسرة ويفقدوا أهميتهم وشخصيتهم ، يسعون عبر الطرق الممكنة من إيجاد فسحة لهم داخل هذا المحيط ويحاولون الحصول على قوة تحفظ لهم اعتبارهم وتغطي ضعفهم .

الشيوخ وكسب القوة :

إحدى وسائل كسب القوة لجميع طبقات الناس وفي جميع مراحل الحياة جمع الثروة والمال ، إن أكثر الناس يعتبرون الأثرياء أقوياء ولهم مكانة مرموقة وينظرون إليهم نظرة تقدير واحترام ، فالثروة تستر الكثير من العيوب والنقائص وتمنح الإنسان جمالاً اجتماعياً .

حرص الشيوخ :

إن من أنسب الوسائل لدى الشيوخ لتحصيل القدرة والتفوق والتي تناسب مزاجهم العاجز هو جمع الثروة . وبذلك يمكنهم كسب قوة تسجل لهم تفوقاً وتستر ضعفهم وحقارتهم ولهذا يحرص الإنسان عند شيخوخته (بوعي أو بدون وعي) على الإحتفاظ بثروته ويبدي حباً لأمواله أكثر من السابق .

التدخل في شؤون الآخرين :

إن بعض الشيوخ الذين لا يملكـون ثروة ، يتـدخلون في شؤون الآخرين لكي يثبتوا وجودهم ، وفي محيط الأُسرة يعنفون الأطفـال ، ويقدّمـون النصائِـح للشبان . ويتجسسون علىٰ شؤون الرجال، وبدون أن يطلب أحدٌ منهم شيئاً يُبدون آراءهم ويكـون هذا هـو شـأنهم في المجتمـع أيضـاً حيث يتـدخلون في شؤون النـاس في الأزقة والشـوارع والأسواق والمحـلات والمساجـد ويُبـدون آراءهم بالموافقة أو المخالفة ، وأحياناً تكون تدخلاتهـم لدرجة تزعج الآخرين .

نصائح بلا حساب :

«يقول ويل ديورانت : إحدىٰ أهم المسائِل الدقيقة في علم النفس اليوم ، هي ، هل الشبان يلتذون بـارتكاب المحـرمات أم الشيـوخ في تخطئتهم لهم وتعنيفهم ؟

من وجهـة نظر الأخـلاق ، الحياةُ تنقسم إلى مـرحلتين ، المـرحلة الأُولىٰ ، الإستغـراق في اللّذات والشهـوات ، والمـرحلة الثـانيـة نصيحـة الآخرين . في هـذهِ المـرحلة تتبـدل الشهـوات إلى حـزم واحتيـاط ويأخـذ هيجان الغـرائـز لـون النصيحـة ، وتتغيـر الأذواق ويصعب على الشيوخ أن يغفروا للشباب»[1] .

«والدتي ، حاضرة في كلِ مكان وبصورةٍ دائمـة ، ولا أجد فـرصةً لبحث المسائل مع زوجـي علىٰ انفراد ، وأتذكر جيداً أنني طلبت من والدتي بكل عطف وأدب أن تتركنا لحظة لنطرح قضايانا ولكنها أخذت تبكي بصوتٍ عالٍ لدرجة خفت أن تُصاب بنوبةٍ عصبيـة ، فصرفت النظر عن كل الموضوع . هذا جانب من كلام فتـاة شابـة تزوجت حديثاً وتعيش مع أُمها»[2] .

---

(١) مباهج الفلسفة ص ٨٤ .

(٢) صحيفة كيهان ـ العدد(٨٩٢٨) .

لفت أنظار الآخرين :

إن بعض الشيوخ ، لكي يثبتوا وجودهم ويلفتوا أنظار الآخرين لهم يحكون قصصاً عجيبة غير واقعية علىٰ اعتبار أنها من مشاهدات شاهدوها في حياتِهم ، وأحياناً يعرفون أنفسهم كأبطال لتلك الحياة المثيرة ، وأحياناً يقارنون الأمس باليوم ويتأسفون علىٰ الماضي وحسناتِهِ ، وسيئات اليوم . إن هؤلاء لهم هدف واحد من وراءِ هذهِ الأقوال والتصرفات ، وهو إبراز أنفسهم أمام الآخرين ، وإظهار تفوقهم ، لتغطية ضعفهم ، وإحساسِهم بالحقارة .

والجدير بالذكر أن حالة طلب القدرة والتفاضل ليس متساوياً بين الشيوخ ، حيث إن بعضهم مصابون بالغرور ويريدون التفوق والتفاضل علىٰ الآخرين بدرجة تزيد عند الآخرين من أمثالِهم، فيقومون لهذا السبب بأعمالِهم الخاطئة ، والتي يبدو فيها الإفراط فيجعلون الحياة مُرَّةً لاتطاق علىٰ أفراد العائلة .

مسنون عصبيو المزاج :

«إن شدة الحساسية العصبية للشيوخ لا تدفعهم إلىٰ الأنانية والحساسية والبكاء السريع فحسب بل يبدون أحياناً ردود فعل غاضبة ، دكتاتورية عنيفة تنم عن سوء الظن ، فيحرمون الآخرين الذين يحيطون بهم لذّة الحياة . وعليه يمكن القول إن هناك فئتين من الشيوخ تلفتان النظر من حيث التصرفات . فَهُم إمّا أشخاص هادئون ، دائمو البسمة ، أو بالعكس سيِّئو الخلق ذوو أعصاب متشنجة وحتىٰ يكونون (پارانوئياك) لا يعطون[١] لأحد حق التنفس ويزعجون من هم حولهم»[٢] .

شيوخ بلا إيمان :

ولو أن الشباب والكهول يشددون على الشيوخ ولا يسمحون لهم بإثبات وجودهم ، ويمنعون بعنف وخشونة تصرفاتهم المعهودة ، عندها من

---

(١) پارانوئياك: هوس العظمة الكاذبة أو جنون الإضطهاد .

(٢) مجلة نقابة الأطباء في إيران السنة الثانية العدد ٦ ص ٤٢٦ .

الممكن أن يلجأ بعضهم إلىٰ العزلة والانزواء ، ويقضون بقية العمر بالوحدة والصمت دون أن يلحقوا ضرراً بأحد . ولكن المجموعة الاخرى ، إذا كانت جاهلة ولا تملك إيماناً من الممكن أن تبدي ردود فعل خطرة للتعويض عن حقارتها ، وتوجد مفاسد كبيرة في العائلة والمجتمع ، وتوسم الفتيات العفيفات بالمفاسد ، وتتهم الشبان الشرفاء بتهم باطلة ويُحدثون الشقاق بين الأزواج ، وتحريك الفتيات ضد الأُمهات ، والأبناء ضد الآباء ، وإيجاد الفوضى في محيط العائلة ، وتحريك الشبان ضد الكبار في المجتمع ، وإيجاد الفتنة بين الناس ، وبذر بذور الإختلاف ودفع الأفراد للخصام مع الآخرين والخلاصة أن هؤلاء لكي يظهروا أنفسهم ويلفتوا أنظار الآخرين لهم من المحتمل أن يرتكبوا أنواع الخطايا والشرور ، وينزلوا أكبر الأضرار التي لا يمكن تلافيها .وقد قال الإمام الهادي عليه السلام : «من هانت عليه نفسه فلا تأمن شرّه»(١) رغم أن قوىٰ الجسم والروح تضعف في أيام الشيخوخة ، ويعجز الانسان بعض الشيء ، إلا أن هناك بعض الصفات الروحية والمعنوية فضلاً عن أنها لا تضعف في الشيخوخة فهي تزدهر وتبرز

«لقد اكتشف الدكتور شاك وبعض المحققين أن الأشخاص الأذكياء يصبحون أكثر ذكاء في الشيخوخة ، بينما الأشخاص الأغبياء يصبحون أكثر غباء»(٢) .

عقلاء الشيوخ وجهالهم :

قال الإمام علي عليه السلام : «إذا شابَ العاقل شبَّ عقلهُ وإذا شابَ الجاهلُ شبّ جهلهُ»(٣)

إن البعض من الشبان والكهول يصابون بمرض الغرور والتفوق نتيجة

---

(١) تحف العقول ص ٣٥٨ .

(٢) ماذا نفعل لكي لا نشيخ ؟ ص ١٧٥ .

(٣) غرر الحكم ص ١٨٩ .

عقدة أو عقد الحقارة ، ويعتدون على حقوق وحدود الآخرين بأساليب جاهلة ، هؤلاء عندما يصلون إلى سن الشيخوخة ، وتضاف حقارة الكهولة إلى الحقارات الأُخرىٰ التي لديهم فإنهم يصبحون مغرورين ، يعبدون أنفسهم ، فتزداد أعمالهم الصبيانية وتصرفاتهم غير المقبولة . إن ضرر أيام الشيخوخة هو أكثر بكثير من ضرر فترة شبابهم ورجولتهم . لأنهم قد حصلوا طوال عمرهم على تجارب ، وهم يستطيعون الآن ، وللوصول إلى أهدافهم المشؤومة ، أن يخططوا خططاً خطرة وينفذوها علىٰ يد الآخرين ويحدثوا مفاسد كبيرة لا يمكن التعويض عنها .

مجلس الأوس والخزرج .

كان شاس بن قيس شيخاً كبير السن بقي على الشرك والكفر ، وكان يحقد على المسلمين ويعاديهم ويحسدهم . مرّ ذات يوم على جمعٍ من أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم . وكانوا من الأوس والخزرج ، فوجدهم مجتمعين في مجلس واحد يلفهم الصفاء والأخوة ، ويتحادثون مع بعض . وكان يعلم بالعداء الذي كان بين القبيلتين في الجاهلية ، وقد أصبحوا الآن رحماء في ظل الإسلام ، فبان عليه الغضب وعدم الارتياح . فقال في نفسه : إنني لا أتحمل أن أراهم في صداقةٍ ومحبة. فأمر شاباً يهودياً كان معه أن يذهب ويشترك في المجلس ، ويذكّرهم بيوم (بُعاث) ويقرأ بعض الأبيات الشعرية بهذا الصدد (بُعاث : كان يوماً قبل الإسلام وقع فيه قتالٌ بين قبيلتي الأوس والخزرج ، سقط فيه قتلى كثيرون) .

دخل الشاب اليهودي المجلس ، وتحدث عن يوم (بُعاث) طبقاً لما أُمر به . فأجج حديث ذكريات الماضي وأشعل غضب الأوس والخزرج فحدث نزاع في المجلس . لدرجة أنه اشتبك أفراد من القبيلتين . فقال أحدهم : إننا مستعدون لكي نعيد يوم بُعاث ، وقال آخر : نحن أيضاً على استعداد . فارتفعت الأصوات : (تسلّحوا) واختلط بعضها على بعض ، وصمموا على القتال وعيّنوا منطقة (الحرّة) للقتال ، وافترق الجمعان . وانتشر نبأ ذلك في المدينة وأخذت كل قبيلة

تجتمع إلى جموعها وبالتدريج تهيء كل شيء لقتال دموي . فوصل النبأ إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فأسرع إليهم في جمع من الأصحاب الحاضرين . فقال : «يا معشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله تعالىٰ إلىٰ الإسلام وأكرمكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألَّفَ بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً ؟[1]»

ندم الأوس والخزرج :

فنبّههم كلامُ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وعلموا إن هي إلاّ أفكار شيطانية وخطة خطّها عدوهم ، فسقطت السيوف علىٰ الأرض ، وتعانقوا في محبة والدموع تجري على وجناتهم ، ثم أعلنوا عن طاعتهم للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، وعادوا معه بعد أن كانوا قد وصلوا إلىٰ منتصف طريق (الحرّة) فشملتهم رحمة الله تعالى وخمدت فتنة شاس بن قيس .

شاس بن قيس والاحساس بالحقارة :

كان شاس بن قيس من كفار المدينة . فهو بالإضافة إلى ضعفه وعجز الشيخوخة . كان يشعر بالذلة والحقارة من عدة نواحٍ . فقد كان يرىٰ المسلمين وقوتهم تزداد يوماً بعد يوم ، والكفار يضعون ويضعون ، وكان يرىٰ المسلمين وهم ينظرون إلىٰ الكفار بعين الإحتقار في كل مكان . وأنه عليهم أن يدفعوا الجزية للحكومة الإسلامية وهم صاغرون .

هذه وعوامل أُخرىٰ أوجدت لدىٰ شاس بن قيس عقدة الحقارة، ولذا كان يريد أن يبين في فرصة مناسبة ردود فعل مؤثرة ليعوض عن حقارته الباطنية . وبما أنه كان شيخاً وله تجارب فقد استغل اجتماع الأوس والخزرج واستطاع أن ينفذ خطة الإختلاف على أساس العصبية القبلية بيد شاب يهودي . وبلغت الخطة من الخطورة أن أوشكت معها الدماء أن تراق ، لولا تدخل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة واتخاذه إجراءات مباشرة لإخماد الفتنة .

---

(١) اسد الغابة ج ١ ص ١٤٩ .

التعويض عن حقارة الشيوخ :

لكي لا يقوم الشيوخ بالأعمال الخاطئة ، من ضغط عقدة الحقارة ، ويخلقوا المتاعب لأنفسهم وللآخرين . فإن أئمة الإسلام عليهم السلام دعوا أتباعهم إلى ضرورة احترامهم وتوقيرهم في الأسرة والمجتمع للتعويض عن الإحساس بالحقارة لديهم .

بالشرح الذي قدّمناه في المحاضرة السابقة أشرنا إلى أنه يجب علىٰ الأبناء والأحفاد أن يقوم كل واحد منهم بأقصىٰ حد من التكريم والإحترام للجد والجدة ، وقد قال القرآن الكريم : ﴿**لا تقل لهما أُف**﴾ ، ولا تجعلهما يتكدران أو يحزنان أقل حزن أو كدر .

توقير الشيوخ :

وحول توقير وإجلال الشيوخ وصلتنا روايات كثيرة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الطاهرين عليهم السلام جمعها العلماء في باب خاص ، وهي بمجموعها تدل علىٰ أنّ تكريم وتوقير الشيوخ في الدين الإسلامي التربوي يحظى بالإهتمام الكامل ، نقدم بعض النماذج من تلك الروايات :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «من وقَّر ذا شيبةٍ في الإسلام أمنه الله من فَزَع يوم القيامة»[1] .

جاء شيخ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأبطأوا عن الشيخ أن يوسّعوا له فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «ليس منا مَنْ لم يَرْحَم صغيرنا ولم يوقّر كبيرنا[2]»

الروايات الإسلامية توجب على المسلمين توقير الشيوخ للتعويض عن حقارتهم من جهة ، ومن جهةٍ أُخرىٰ لكي يعرف الشيوخ موقعهم المعنوي ومسؤوليتهم الثقيلة ولا يقوموا بالخطيئة لإحساسهم بالحقارة ولا يُقدموا على العدوان والطغيان ، فإنها تحذرهم بأن الله سبحانه وتعالى شديد علىٰ الذين

---

(١) لئالىء الأخبار ص ١٨٠ .

(٢) مجموعة ورام ج ١ ص ٣٤ .

تجاوز عمرهم الأربعين ، فهؤلاء لا تنالهم الرحمة التي هي من نصيب من هم دون الأربعين ، ولذا يُحاسبون على كل صغيرة وكبيرة ويؤاخذون عليها .

مسؤولية الشيوخ :

قال أبو عبدالله الصادق ، عليه السلام : «إن العبدَ لفي فُسحة من أمرِهِ ما بينَه وبين أربعين سنة ، فإذا بلغَ أربعين سنة أوحى الله عز وجل إلىٰ مَلَكَيْهِ قد عَمَّرْتُ عبدي هذا عمراً فغلِّظا وشدِّدا وتحفَّظا واكتبا عليه قليلَ عمله وكثيرَهُ وصَغيرَهُ وكبيره[1]» .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «منْ جاوزَ الأربعين ولم يَغْلِبْ خيرُه شَرَّهُ فليتجهز إلىٰ النار[2]»

شيوخ سود القلوب :

عن الصّادق عليه السلام قال : «يا صاحبَ الشَّعرِ الأبيضِ والقلب الأسودِ أمامَك النار وخلفكَ ملكُ الموت ، فماذا تريد أنْ تعملَ ؟ كُنتَ صبياً وكنتَ جاهلاً وكنتَ شاباً وكنتَ فاسِقاً وكنتَ شيخاً وكنتَ مرائياً ، فأين أنتَ وأين عملُك[3] ؟»

من مجموع هذا البحث نستنتج أنه يجب تكريمُ واحترام شخصية وعزة نفس أي فرد في العائلة والمجتمع ، ولكن يجب أن لا يخلط إنسان مرض غروره وتفاضله الناتج عن الحقارة ، الواقعية أو الوهمية مع الشخصية الإنسانية ، ويتوقع من الآخرين ما يتمناه هو من الأُمنيات غير الصحيحة . فكما هو نافع أخلاقياً احترام شخصية أعضاء العائلة والمجتمع ، فإن الإستسلام يكون ضرراً والخضوع لتكبر الآخرين وغرورهم مضر ومرفوض .

---

(١) روضة الكافي ص ١٠٨ .
(٢) مشكاة الأنوار ص ١٦٩ .
(٣) المصدر السابق ص ١٦٩ .

تجنب الأنانية :

إن طريق السلام وحسن التفاهم في العائلة والمجتمع هو أن يقوم كل فرد من الأفراد بتعديل رغبته في الحصول على القدرة والتفوق ، بالعقل والشرع ، وأن يمتنع عن حب الذات ، ويعرف حدوده، ويظهر قدرته في حدود معينة. ولو أصبحت الأمور كذلك ، لانسجمت الرغبات المختلفة والمتضادة ، ولزال الإختلاف وعدم التفاهم ، ولحل حسن التفاهم بين الشبان والرجال والشيوخ ولعاشوا جنباً الى جنب ، يمضون أيام الحياة في سعادة وسرور .

قال عليّ عليه السلام : «من استصلح الأضداد بلغ المراد»(١) .

التعادل في نظام الخلق :

ان الله القادر قد أوجد التعادل بإرادته الحكيمة بين القوىٰ المتضادة في العالم . وأوجد الإنسجام بين الموجودات المختلفة في العالم . وجعلها مكملة الواحدة منها للأخرىٰ ، وأوجد بذلك نظاماً حكيماً في العالم العظيم .

قال عليّ عليه السلام : «فأقام من الأشياء أَوَدَها وَنَهَجَ حدودَها ولاءَمَ بقدرته بين متضادِها ووصلَ أسبابِ قرائنها»(٢) .

اتباع سنن الخلق :

لو اتبع أعضاء العائلة والمجتمع البرنامج التكويني لله سبحانه ، وتركوا الإنحراف ، ووازنوا رغباتهم بصورة صحيحة ، وإذا كف الشبانُ عن التهور ، والرجالُ عن الخشونة التي لا مبرر لها ، والشيوخُ عن توقعاتهم غير الصحيحة ، ولم يتجاوز أيٌ منهم حدوده ، فإن محيط العائلة والمجتمع يحظىٰ بحسن التفاهم والانسجام، ويعيش الأفراد جنباً إلى جنبٍ في محبة وتكريم .

---

(١) غرر الحكم ص ٢٠٥ .
(٢) نهج البلاغة خطبة ٩٠ .

المحاضرة الرابعة :

دور التربية في علاقة الشيوخ والشبان

أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم .

[الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم]

التربية وحسن التفاهم :

إن التربية الصحيحة هي أحد عوامل الانسجام وحسن التفاهم بين الشبان والشيوخ . فالأشخاص الذين تربوا منذ الطفولة تربية صحيحة وتلقوا الإرشادات اللازمة ، وتعلموا فن الحياة جيداً ، يستطيعون في شبابهم ورجولتهم وكهولتهم ، أن يستفيدوا مما اختزنوه من تربيتهم وينسجموا تماماً مع محيط العائلة والمجتمع ، ليحيوا سعداء مستقرين طيلة حياتهم . وبعكس ذلك فإن اولئك الذين لم يتلقوا في طفولتهم تربية صحيحة ، ونشأوا بأخلاق سيئة . فإنهم في شبابهم ورجولتهم لن يتعرفوا علىٰ الطريق الصحيح للحياة . ولن يستطيعوا بأخلاقهم القبيحة أن ينسجموا بشكل جيد مع المجتمع . إن هؤلاء غالباً ما يواجهون الفشل في معاشراتهم الاجتماعية ، لأنهم ، بشكل لا إرادي ، يتصرفون وفق تعاليمهم الخاطئة التي تلقوها في طفولتهم ، فيولّدون عدم الارتياح للآخرين ، ويؤلمونهم . إن هؤلاء يرون أنفسهم دائماً سيِّئي الطالع ، ويشعرون بأنهم تعساء لأن المجتمع لا يعيرهم اهتماماً فيتألمون منه ويسخطون عليه .

سريان الأمراض الأخلاقية :

لسوء الحظ أن التربية السيئة كالأمراض المعدية تنتقل من جيل إلى آخر ، فالشابات والشبان الذين تلقوا تربيةً سيئة في عهد الطفولة وأُصيبوا بأمراض الفساد الأخلاقي ، فإنهم بدون إرادة أو علم ينقلون صفاتهم الذميمة وأخلاقهم السيئة إلى أبنائهم وبذلك يكونون سبباً لتعاستهم وانحرافهم . إن للتربية الحسنة أو السيئة أعمق الأثر في بناء المجتمع أو هدمه . في هذه المحاضرة ، وبالإشارة إلىٰ الصفات الحسنة والسيئة ، سنقدم توضيحاً مختصراً بأن حُسن التربية له أثر فعال في تفاهم الشبان والشيوخ ، ونظهر كيف يكون سوء التربية سبباً لعدم التفاهم ، وباعثاً علىٰ بروز الاختلاف والتضاد في العائلة والمجتمع .

من الممكن أن ينزعج بعض الشبان من قراءة هذه المقالة . ويفكروا في أنه مهما كانت فترة الطفولة فإنها قد انتهت ، ولم نعد إليها . وإذا كان حقاً أن التربية السيئة لفترة الطفولة سبب لتعاسةِ وفشل جميع أيام العمر ، ونحن تربينا تربيةً سيئة نتيجة سوء الوالدين ، فلا بد أن نصبح تعساء إلى آخر العمر وطوال أيام حياتنا نعيش في ألم وعذاب وعدم راحة وهذه مصيبة لا يمكن تحملها .

مرض يمكن علاجه :

ولكي لا يفكر الشبان هكذا ، ولا يصابوا باليأس والقلق ، وقبل أن يأتي الحديث إلى البحث عن أصل التربية ، يجب الإشارة إلى أن التربية غير الصحيحة في فترة الطفولة هي منشأ الكثير من الأعمال والأخلاق السيئة لنا في مرحلة الشباب والكبر . ولكن هذا لا يعني أن التربية السيئة لا يمكن اجتنابها ، والإنسان مجبر حتى نهاية العمر على أن يبقىٰ سيء الأخلاق ولا يستطيع إصلاح نفسه . وإنما بالعكس إذا كان الإنسان يستطيع أن يشخّص أمراضَهُ الأخلاقية . فيمكنه حينئذ مكافحتها والتخلص من أعراضها المشؤومة ويصمم على معالجتها إلى الأبد ، وهذه نظرية مقبولة علمياً من قبل العلماء .

وأئمة الإسلام أيضاً صرحوا بذلك قبل أربعة عشر قرناً . واعتبروا المجاهدة في إصلاح النفس من الفرائض الإسلامية ، كما اعتبروها فريضة على أتباعهم .

قال الإمام الصادق عليه السلام : «أقصِرْ نفسَكَ عما يضرُّها من قَبْلِ أن تُفارقَكَ وآسْعَ في فكاكِها كما تسعى في طلبِ معيشتِك ، فإن نفسَكَ رهينة بعملك[1]» .

قال الإمام علي عليه السلام : «مَنْ لم يُهذِّب نفسَهُ فَضحَهُ سُوءُ الْعَادَة»[2] .

أعجز الناس :

وعنه عليه السلام «أعجزُ الناسِ من قَدَرَ على أن يزيل النقصَ عن نفسِهِ ولم يَفْعَلْ[3]» .

«يقول الدكتور اوستاس شيسر : إنه من الممكن أن تكون في مرحلة الطفولة ، ونتيجةً لعوامل مؤثرة في النمو والشخصية ، قد أُصبت بنقص ومشاكل ، ولكن لحسن الحظ هذه النقائص والمشاكل ليست دائمة لا يمكن إزالتها ، بل بالعكس إننا نستطيع غالباً ، وبجدية وإرادة ، أن نزيل الآثار الضارة لفترة الطفولة ، عن أنفسنا ، خاصةً أنه يجب علينا في مرحلة الشباب أن نسعىٰ لإزالة النواقص التي تكون قد أصابت أجسامنا أو نفوسنا نتيجة تلك الوقائع»[4] .

«إذا كنت قد زرعت (قرعاً) في حديقة بيتك ، وأردت يوماً أن تنتخب ثمرة صغيرة من هذا القرع وتكتب عليها بعود ثقاب اسمك ، في هذه الحالة فإنك تعلم أن تلك الثمرة كلما كبرت فإن

(١) وسائل الشيعة ج ٤ ص ٤٠ .
(٢) غرر الحكم ص ٧١٩
(٣) مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٣١٠
(٤) النمو والحياة ص ١٦ .

الأثر الذي وضعتَه عليها سيكبر أيضاً ، وعندما يكمل نمو الثمرة ويحين موعد جنيها ، فإن الكتابة لن تكون واضحة كما كانت في الأول ، رغم ذلك فإنها تكون قد شغلت مساحة أكبر ، كذلك فإن الآثار التي ترتسم على نفسية الطفل تبقىٰ ومن الممكن أن تكون هذه الآثار والذكريات تضعف ، ولكن يتسع ميدان فعاليتها ونفوذها ، وتظهر آثارها على الأخلاق والتصرفات . نحن نعلم أن (القرع) لا تملك تلك القدرة التي تستطيع بها أن تمحو الآثار المرسومة عليها ، ولكننا نحن إذا أردنا وصممنا فإننا نستطيع أن نمتلك تلك القدرة ولا ندع تلك الآثار والذكريات الخفية تبقىٰ في باطن أذهاننا وتؤثر تأثيراً سيئاً وضاراً في حياتنا[1]» .

إمكانية إصلاح الانسان :

كم هم كثيرون أولئك الشبان والشيوخ المبتلون بالتناقض والاختلاف ويتعذبون من عدم التفاهم في العائلة والمجتمع، ولا يعلمون ، نتيجة جهلهم ، أن منشأ جميع هذه الإزعاجات وعدم الراحة . هي الصفات السيئة التي استقرت في ضمائرهم نتيجة التربية السيئة في فترة الطفولة. لحسن الحظ أن هذه المجموعة مهما بلغت أعمارهم قادرون على توفير أسباب نجاتهم إن شاءوا من الألم والقلق . ولكن على هؤلاء أولاً ، أنْ يدرسوا جيداً صفاتهم بمساعدة أفراد ذوي علم ومُربين لائقين ويُشخِّصوا أمراضهم الأخلاقية .وعندما يستنتجون الواقع ، فإنهم تلقائياً يفكرون في حلٍ وعلاج ويسعون إلى تنزيه أنفسهم من الأخلاق السيئة .

الخلاص من الأخلاق السيئة :

قال علي عليه السلام : «كلما زاد علم الرجل زاد عنايته بنفسِه وَبَذَلَ في

---

(١) المصدر السابق ـ ص ١٧٠ .

رياضتها وصلاحِها جُهده[1]» .

لا يفوتنا أن نذكر أن التصميم على علاج الأخلاق وإزالة النقائص التربوية يثمر نتيجة أفضل لدى الشباب أسرع منه لدى الكهول والشيوخ . لأن هؤلاء قد مارسوا الأساليب الخاطئة منذ مدة طويلة واعتادوا عليها لسنوات طويلة ، وتغيير العادة أمر صعب ، وأما الشبان الذين ولجوا الحياة الاجتماعية حديثاً ، ويريدون وَضْعَ أعمدة شخصياتهم ، يستطيعون بسهولة التغلب علىٰ التربية الخاطئة لفترةِ الطفولة ، وأن يتركوا الصفات السيئة ويتخلَّقوا بالأخلاق الحميدة . إن قلوب الشبان طاهرة ، وضمائرهم النقية تتقبّل ما يُلقىٰ إليها . إن إرشادات مربٍّ جيد ، أو قراءة كتاب مفيد أو حتىٰ مرافقة صديق ذي فضيلة ، تترك آثاراً سريعة على وجود الشاب فتغيّر تصرفاته .

يقول الإمام علي عليه السلام : «وإنما قلب الحدث كالأرض الخالية ، ما أُلقيَ فيها من شيء قَبِلَتْهُ فبادرتُكَ بالأدب قبل أن يقسوَ قلبُكَ»[2] .

فوائد بناء النفس عند الشاب :

إن الشاب الذي يهتم بنفسِهِ في أوان شبابه ، ويصلح نفسه بإرشاداتِ معلم أخلاق ، يحصل على عدة نتائج مفيدة :

أولاً : إنه ينقذ نفسه من آلامِ وأذىٰ التربية السيئة ، ويواصل حياته بهدوء بال وطمأنينة .

ثانياً : بعد ذلك يستطيع أن يؤثر على كبار السن في العائلة، ويتمكن من تقليل المشاجرات في العائلة بتصرفاته وأخلاقه الحميدة .

ثالثاً : ونتيجة حُسن الأخلاق في معاشرته الإجتماعية ، ينال حب وتقدير أفراد المجتمع .

---

(١) مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٣١٠ .
(٢) نهج البلاغة ـ الرسالة ٣١ موجهة إلى الإمام الحسن عليه السلام

رابعاً : وإذا ما تزوّجَ ورزق أولاداً فإنه يربيهم تربية سليمة وبذلك سيكونون أناساً أصحاء في المستقبل . بعد أن اتضح موضوع أن التربية السيئة لفترة الطفولة يمكن إصلاحها من وجهة النظر الدينية والعلمية ، دون يأسٍ أو قلق ، نأتي الآن إلىٰ بحث أصل التربية ، ودورها المؤثر في سعادة وتعاسة البشر .

ضرورة التربية :

التربية ضرورة لا يمكن اجتنابها في الحياة الإجتماعية للإنسان ؛ فالمرء لمواصلة حياته الإنسانية وبلوغ الكمال الذي يليق به ، مجبر على معايشة الآخرين ، وعلى أن يصبح عضواً في المجتمع البشري ، ويشترك ويتعاون معهم في النشاط الإجتماعي .

إن التربية ، تنقل تجارب الأجيال الماضية إلى الأجيال التالية ، وتعلم الإنسان أُسلوب الحياة .

التربية ، هي برنامج انسجام الفرد مع المجتمع .

التربية تتحكم بالعواطف والإحساسات ، وتهدي غرائز الإنسان إلىٰ الطريق الصحيح ، وتنظم علاقات الإنسان بالمجتمع علىٰ أساس صحيح .

معرفة المتطلبات الاجتماعية :

«إن كل فرد من أفراد أي مجموعة سواء كان في مدينةٍ أو قبيلةٍ متوحشة ، يولد وهو يفتقر إلى النضوج ، عاجزاً بدون لغة أو عقيدة أو أفكار أو موازين اجتماعية . والفرد باعتباره عضواً أصلياً للمجتمع ، وحاملاً للتجارب الإجتماعية . يعيش بدوره فترة ، ثم يذهب ويحل محله آخر .

إن ولادة وموت أفراد المجتمع واقع لا مهرب منه ،وهذه الحالة هي التي تستوجب التربية والتعليم ، حيث يوجد مقابل الأعضاء البالغين

المجربين الذين يحملون العلوم والتقاليد ، يوجد أعضاء مولودون يمثلون المستقبل ويجب ألا يصانوا جسمياً فحسب ، بل عليهم أن يَطّلِعوا على رغبات وأهداف ومعلومات وتقاليد البالغين ، وإلاّ فإن الحياة المستقلة لهذه المجموعة تنتهي . ولو تركنا الأعضاء المولودين حديثاً سواءً كانوا متمدنين أو من قبيلة وحشية ، فإنهم لن يتعلموا أبداً طريقة وأسلوب الحياة المعقدة للبالغين . لا يكفي النمو الجسماني والسيطرة علىٰ الضروريات الأولية للحياة . فالإنسان بالإضافة إلىٰ ذلك يجب أن يعرف المقتضيات الإجتماعية أيضاً . ولذا يجب أن يبذل مساعٍ علمية وجهداً معنوياً .

إن الوجوه المشتركة لجماعة أو مجتمع تشمل الأهداف والعقائد والآراء والآمال والمعارف المشتركة ، أو كما يقول علماء الإجتماع : (التماثل الفكري) . وهذه الوجوه المشتركة لا يمكن تناقلها بسهولة مثل الحجر والطين أو كقطعة حلوىٰ تقسّم ويُعطىٰ كُل قسمٍ إلىٰ شخص . ولكي تظهر الوجوهُ المشتركة بين الأفراد يجب أن تنبع رغبات عقلية وعاطفية معينة في المجتمع والأفراد لتحقيق رغباتهم واحتياجاتهم مقابل ردود الفعل المشابهة»[1] .

بداية تربية الطفل :

تبدأ تربية الطفل منذ الشهر الثاني لولادته ، أي الوقت الذي يبدأ فيه الطفل بإبداء ردود الفعل . وكلما نما تزدهر لديه الأفعال الطبيعية الواحد بعد الآخر ، فتتسع بذلك دائرة التربية ليستكمل الطفل التربية الكاملة والشاملة .

«عندما نقول : إن التربية يجب أن تبدأ منذ الولادة . فإنّ قصدنا عندما يكون الطفل في المهد ، ونحن نعلم أن هذا القول سيقلق الكثير من الآباء لا سيما الأمهات اللواتي سيتأثرن ويقلن : أنتم

(١) مقدمة على فلسفة التربية والتعليم ص ٤ .

تبالغون . وهذا غير ممكن ! ولكننا لا نعتقد فيما يقلن ، لأنهن بحبهن للطفل دون أن يعلمن الدور المهم الذي يقمن به ، فإنهن أمام ابتسامات الطفل التي تسرهنَّ لا يجرؤن أن يضعن نظاماً للطفل . وفَرْضُ هذا النظام سيشكل مشكلة وصعوبة أكبر كلما كبر في السن» .

مرحلة طفولة الحيوان :

إن فترة طفولة الحيوانات ، أي الفترة التي تحتاج فيها إلى حماية الوالدين ، أو الأُم ، هي قصيرة ، لأن الحيوان يستفيد من غرائزه في معرفة أُمور الحياة وبرامج معيشته ، وهذه الغرائز تنتقل وراثياً من نسلٍ إلى نسل ، ولذا فإن الحيوان لا يحتاج إلىٰ تربية وتعليم والحاجة الوحيدة للحيوان الوليد هي أن يبقىٰ مدة من الزمن في ظل الوالدين ليبقىٰ مصوناً من أذىٰ الأعداء ويتغذىٰ بواسطتهما ، حتى يقوىٰ ويبلغ النمو الكافي الذي يمكنه أن يذهب للبحث عن غذائه ، أو ليستمر في الحياة بإرشادٍ من غرائزه .

امتداد مرحلة الطفولة لدى الانسان .

إن مرحلة طفولة الإنسان طويلة جداً . لأن الأطفال فَضلاً عن احتياجاتهم لحماية الأبوين والتغذية ، يجب تربيتهُم وتهيئتهم للحياة الإجتماعية وأن يتعلموا من الوالدين الأخلاق ، الحسنة أو السيئة ، الأعمال الطيبة أو الخبيثة ، الكلام ، آداب الحياة ، أُسلوب المعاشرة ، حفظ الصحة ، والكثير من المسائل الضرورية الأخرىٰ ، ليتجهزوا لظروف الحياة الإجتماعية .

إن التربية الصحيحة هي إحدىٰ الأركان المهمة لسعادة الإنسان ، كما أنها رمز نجاح وسعادة الإنسان طوال أيام حياته . والتربية الصحيحة تخلق من الشخص إنساناً معتدلاً يمكن معاشرته ، تُنظم غرائزه ورغباته طبقاً للمصلحة العامة وتجعلها منسجمة مع المجتمع ، وتصون الشخص من الإفراط في إرضاء ميوله النفسية .

---

(١) مصير البشرية ص ٢٤٤ .

الخلاف وسوء التربية :

إن بحث (التربية) بحث واسع وغني ، يستحق الدراسة والتحقيق وفي هذا الفصل سيأتي الحديث حول أحد جوانبها بشكل مُختصر وهو أن تربية فترة الطفولة هي برنامج حياتنا في مرحلة الشباب ومرحلة الكهولة . وللتربية الصحيحة دور مهم في حسن التعاون ، عائلياً واجتماعياً ، كما أن التربية غير الصحيحة تبعث على الإختلاف وعدم الإنسجام في العائلة والمجتمع .

إن أول المربين للطفل في محيط العائلة هم الآباء والأُمهات ، فهما يضفيان عليه أخلاقه وخصاله ـ علموا ذلك أم جهلوا ـ ويركزان فيه أُسس الفضيلة أو الرذيلة من خلال أقوالهم وأفعالهم فينشأ الطفل وفق أساليبهم الصحيحة أو الخاطئة .

إن الأشخاص الذين يربّون علىٰ جهل الوالدين ينشأون مضطربين يتملكهم الخوف والفشل والحرمان . والخلاصة أن هؤلاء الذين تلقّوا تربية سيئة إنْ لم يُصلحوا أنفسَهم في مرحلة الشباب ويعالجوا ما بهم فإنهم سيمضون العمر كله في ألم وشقاء وغضب وقلق .

قلق الأطفال .

«تقول كارن هورناي : إن الطفل يشعر دائماً بالقلق والإضطراب نتيجة ضعفه الجسمي وعدم مقاومته للدفاع عن نفسِهِ أمام عالم مملوء بالرعب . وبالإضافة إلىٰ هذا القلق واللاأمن الطبيعي فإنَّ مَنْ يحيطون به أيضاً يزرعون فيه الكثير من الخوف والإضطراب نتيجة خشونتهم وأخلاقهم السيئة . مثلاً إجحاف الوالدين وتسلطهم ، الذي يكون حيناً صريحاً واضحاً ، وحيناً تحت اسم (التربية) و (حسن النية) و (طلب الخير) و (العطف عليه) . وهناك عوامل تؤدي إلى الخوف والإحساس بعدم الاطمئنان، وعدم الاعتماد على النفس، والتزلزل الروحي والتشويش والإضطراب لدىٰ الطفل ؛ منها : عدم الاهتمام بالطفل ، وعدم الاهتمام بما يحتاجه وعدم

الإرشاد الصحيح ، التحقير ، التحسين أكثر من الضروري أو فقدانه كلياً ، فقدان المحبة الصادقة ، الحماية الزائدة عن اللازم ، عدم الإنصاف ، الظلم ، التفرقة بين الأطفال ، عدم الوفاء ، التحجج ، الملامة ، إيجاد جوٍ من العداء والحقد، وأعمال أخرىٰ مشابهة .

إن القيود ، غير الصحيحة ، التضييق والإجحاف والتحقير ، وعدم الاعتناء بالطفل ، تولد لديه حالةً من الغضب والإضطراب الدائم والعميق . وباعتقادي أن جذور هذه الحالة العصبية تكمن في هذا الغضب والإضطراب العميق . والعلة الحقيقية لإيجاد (التضاد الأساسي) أيضاً هو الإحساس بعدم الاطمئنان والقلق والخوف والإضطراب»[1] .

واجب احترام الأطفال :

إن احترام الطفل ، هو أحد الأركان الأساسية للتربية الصحيحة . فتكريم واحترام الطفل يخلق منه إنساناً ذا شخصية مستقلة ، تمنحه النشاط والأمل ، وتُعِدّه لتقبل الصفات الحميدة . إن الوالدين ، طبقاً للتعاليم الإسلامية والبرامج العلمية ، مكلفان ، قولاً وعملاً ، أن يحترما طفلهما ، وأن يؤديا هذا الواجب المهم كتربية حسنة له

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم»[2] .

والمقصود من تكريم الطفل هو أن يحسب الوالدان طفلهما إنساناً حقيقياً . واحترامه كسائر الناس . يتحدثان إليه بأدب ، ويهتمان بحدِيثِهِ رغم أن كلامه كلام طفل . ويرشدانه في المناسبات . ويلقيان إليه الأوامر والنواهي بأدب .

---

(١) تناقضاتنا الداخلية ص ٢٩ .

(٢) مستدرك الوسائل ص ٦٢٥ .

ولا يضيقان عليه لصغره وضعف قواه ، ولا يظلمانه ، ولا يهملانه ، ولا يسخران منه أو يحقرانه . والخلاصة : إن أقوال وتصرفات الوالدين يجب أن تكون بشكل يشعر معها الطفل بالأمن وهدوء البال في محيط العائلة ،وأنه فرد من أفراد الأسرة وأنه كالبقية له احترام واهتمام ، ويُنظر إليه بمحبة وعطف ويُستقبل بحرارة. والطريف أن أسلوب المحبة وعطف الوالدين بالنسبة للطفل اعتبر عبادة لها ثواب .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إذا نظر الوالد إلى ولدِهِ فسرَّهُ كان للوالدِ عِتقُ نَسَمَةٍ»

سوء التصرف مع الأطفال :

«يقول كلبرت روبن : هناك آباء وأمهات لا يتورعون ، لسوءِ تصرفهم عن ضرب الأطفال ، ورغم ذلك فإن بعض الضربات، أحياناً ، ليست مضرة للجسم كضرر التشدد على القلب والنفس .

إن بعض الأولياء يضعون الطعام لأطفالهم في أوانٍ تشبه أواني طعام الحيوانات ، بل إن بعض الآباء والأمهات غير العاديين يقدمون الطعام للأطفال في مغرفة الأوساخ ، أو ما يشبهها ، أو أن الأب يبصق في وجه طفله ، أو يعريه في الشارع . إن أمثال هؤلاء الأطفال ، يصبحون عادة حادي المزاج ويكونون ذوي أخلاق سيئة ، وأعمالهم تكون بلا روية ومحيرة . ومن جهة إنهم ليسوا في الواقع سيئون إلّا أن الكراهية ، وعدم الرغبة في شيء ، تسوقهم نحو الإنحراف ، وغالباً يظهرون كمجرمين ، لأن هؤلاء الأطفال كنوع من الفخر الأخلاقي يريدون الانتقام من الأشخاص الذين يعذبونهم . لذا فإنهم ، ربما ، لم يهتموا

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٦٢٦ .

بالترحم الذي يُلاقونه كما لا ينفع معهم أي تنبيه»[١] .

«إن مشاهدة الأطفال الصغار من جهة ، ودراسة عدد كبير من البالغين الذين لم يستطيعوا أن يكوّنوا لأنفسهِم شخصية قوية من جهةٍ ثانية ، لا تبقيان شكاً أن هناك علاقة مباشرة لا يمكن إنكارها بين تصرفاتهم عند البلوغ ، والصدمات النفسية والحرمان العاطفي في فترة طفولتهم . .

إن جميع الدراسات والمشاهدات والتحقيقات أدت إلىٰ نتيجة أَنَّ الضعف والعجز لدىٰ البالغين ، في تحمل المشاكل والآلام العادية في الحياة اليومية . يعود إلىٰ أنهم في فترةِ الطفولة قد أُصيبوا بحرمان شديد . ولهذا السبب نمت لديهم روح التمرد والحقد أكثر فأكثر» [٢] .

الغذاء الجسدي والروحي للطفل :

إن احترام الطفل بمثابة الغذاء الروحي والبناء النفسي له ، وإن لم يكن أهم من غذاء الجسم ، فإنه بالتأكيد لا يقل عنه أهميةً . إن قلة الغذاء تقلّل من النمو الطبيعي للطفل . ونقص غذاء الروح يبعث على نقصٍ في نمو نفس الطفل والطفل الذي يُصاب بنقصٍ في التغذية الكاملة للجسم والروح ، في فترة الطفولة ، يُصاب بعوارض مختلفة في مرحلة الشباب ، مع فارق ، وهو أن أعراض نقص تغذية الجسم ، تتعلق بالشخص نفسِه ، وتظهر آثارها عليه هو . ولكن النقص في الغذاء الروحي ، يعني عدم احترام الطفل ، ليس فقط أن(نفسَهُ) لا تنمو نمواً صحيحاً ويصاب بأعراض مشؤومة ، بل إن مَنْ يحيطون به يتألمون ويتعذبون من سوء تصرفاتهِ وأخلاقهِ السيئة ،

---

(١) ماذا أعلم ؟ تربية الأطفال الصعبين ـ ص ٣٠ .

(٢) إعجاز التحليل النفسي ـ ص ١٩ .

إن الأشخاص الذين عانوا في مرحلة الطفولة من التحقير وجرح المشاعر والإهانة ، أو نشأوا في حرمان في ظل اختلاف وشجار دائمين بين الوالدين . وأصيبوا خلال نموهم الفاشل بالغضب والأمراض العصبية . فإنهم يكونون في مرحلة شبابهم ذوي طباع عدائية وغير متفاهمين . ويسيئون الظن بالجميع وبكل شيء ، وتعج أذهانهم بالأفكار الهجومية والإنتقامية ، ويقفون دائماً على شفا ارتكاب الجرائم . ومن المحتمل أن يُصاب أشخاص ، من جراء تعرض هؤلاء لهم ، بمصائب كبيرة لا يمكن تلافيها .

تصرفات غير متساوية للآباء :

إن بعض الآباء والأمهات الجاهلين يتصرفون مع أبنائهم بشكل غير متساوٍ ، فيهتمون بأحدهم دون غيرِهِ ، ويخصّونه بالعطف والمحبة والملابس والطعام أكثر من الآخرين . وبتصرفهم الخاطىء يحقرون طفلاً ويبذرون في باطنه بذور الحقد والعداء . إن هذا الطفل عندما يصل إلىٰ مبلغ الشباب يصبح في معرض المخالفات والاعتداء نظراً للإختلالات العاطفية والذكريات المرة لفترة الطفولة .

الجريمة والتوتر العاطفي :

«قام عالمان هما (هيلي) و (برونر) بإجراء فحوصات دقيقة على ١٠٥ أزواج من الشبان الذين ارتكبوا مخالفات كبيرة ، وكذلك إخوانهم وأخواتهم ممن لم يرتكبوا مخالفات . أي أنهما قارنا بين الشبان المجرمين وإخوانهم وأخواتهم بشكل يمكنهم من دراسة العوامل المتعلقة بالوراثة والمحيط الإجتماعي والاقتصادي . وأخيراً توصلا إلىٰ هذه النتيجة : إن ٩١٪ تقريباً من الشبان المجرمين يعانون من اختلالات عاطفية شديدة ، أي أنهم ما كانوا ليلاقوا العطف والمحبة وأنهم كانوا يشعرون بعدم الإطمئنان ، ويعانون من اختلالات عاطفية تتعلق بالانضباط العائلي ، كما

يُلاحظ عليهم الشعور بالحقارة والحسد والمنافسة مع إخوانهم»[1]

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «أنه نظر إلىٰ رجلٍ له إبنان فقبّل أحدَهما وترك الآخر ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : فَهَلاّ ساويتَ بينهما»[2] .

الإسلام واحترام اليتيم :

إن الدين الإسلامي المقدس ، وبهدف ضمان سعادة المجتمع لم يكلّف المسلمين تكريم واحترام أبنائهم ، وحسن تربيتهم فحسب ، بل أمرهم باحترام شخصية الأطفال اليتامىٰ أيضاً ، وكذلك أن يتصرفوا تصرفَ الأب مع الأطفال الذين فقدوا آباءهم وأن يعتبروهم كأبنائهم ويربوهم التربية الحسنة .

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام : «أدِّبِ اليتيمَ مما تؤدِّبُ منه وَلَدَك»[3] .

القرآن الكريم ، وضمن بعض الآيات ، يبيِّن صفات الوضيعين مُحبي الثروة والمال ، ويوضح أعمالهم وأفكارهم الخاطئة التي هي سبب تعاستهم. ومن هذه الآيات الآية التي تقول : ﴿ . . . كلا بل لا تكرمون اليتيم﴾[4] .

تكريم الابن واليتيم :

الملفت للنظر أن النبي الأكرم قد استفاد بصورة إيجابية ، من كلمة (إكرام) . وأوجب في حديثه الشريف «أكرموا أولادكم» إحترام الطفل كركنٍ أساسي في التربية الصحيحة . ودعا الوالدين لأداء هذا الواجب الكبير . والقرآن الكريم ، توضيحاً لأساليب الأشخاص الجاهلين استخدم نفس الكلمة ، ولكن بشكلٍ سلبي في الآية﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم﴾ فانتقد بذلك انتقاداً شديداً تلك التصرفات الخاطئة .

ويفهم من الحديث الشريف والآية الكريمة أن الأطفال اليتامىٰ وغير

---

(١) علم النفس الإجتماعي ـ ج ٢ ص ٤٤٧ .
(٢) مكارم الأخلاق ص ١١٣ .
(٣) وسائل الشيعة ج ٥ ص ١٢٥ .
(٤) سورة الفجر ؛ الآية : ١٧ .

التامىٰ متساوون ، والاثنان يجب أن يَحظيا بالإحترام والتكريم دون الإحساس بالحقارة والإختلالات العاطفية ، لكي لا يُصابا في مرحلة الشباب والشيخوخة بحالةِ الانتقام وعدم التفاهم في العائلة والمجتمع .

الطفل والاحساس بالأمن :

«إن الطفل منذ بدء حياتهِ يحتاج إلىٰ أن يشعر أنه يعيش في محيط أمن واستقرار ، وأنه موضع اهتمام يريدونه ويبدون علاقتهم به ، ولكن هذه الرغبات لا تتحقق دائماً . وفي بعض الأحيان يدفعون الطفل إلىٰ الاعتقاد بأنه ضار أيضاً ، أو على الأقل بأنه زائد في حياة العائلة ولا يريده أحد . لا يوجد طفل يقبل بمثل هذا الوضع ، وهذا الأسلوب من التفكير ، أوْ لا يقاوم ذلك»[١] .

الأطفال والاضطراب النفسي :

إن الأطفال الذين يلاقون عدم الإحترام والتحقير من الوالدين ومن حولهم في العائلة تكون لهم نفسية غير هادئة مضطربة ،، ويشعرون دائماً بفقدان الأمن والألم والضيق ، فَهُم لا يستطيعون إجبار الكبار على تغيير أسلوبهم وبالتالي تغيير الأوضاع الداخلية للعائلة لصالحهم ، كما لا يستطيعون اعتزال محيط العائلة ، وتشكيل حياة مستقلة وفق رغباتهم . وتدفع بهم الضغوط الباطنية والقلق النفسي إلى أن يبحثوا عن حلٍّ لمشاكلهم التي تتزايد يوماً بعد آخر .

«إن الطفل ليشعر بالعجز والمسكنة في محيط غير سليم ومؤلم . ولذا يبحث عن مرشدٍ ، ووسائل تمكنه من إيجاد نوع من التفاهم والهدوء مع الآخرين . لكي يُنقذ نفسه من شرهم .

وعليه فإنه وبدون أن يدري أو يشعر ، يستخدم طرقاً ويبتكر حيلاً وبشكل عام يرسم لحياته أسلوباً خاصاً يحاول من خلاله ماأمكن إزالة أي تعارض أو نزاع مع من يعيشون حوله ، ويسعىٰ أن تطابق

(١) العقل الكامل ـ ص ٢٤ .

تصرفاته ما تقتضيه الحال ، وينسجم بشكل من الأشكال مع الآخرين الذين يؤذونه ، ويدفع شرهم .

الميول العصبية للطفل :

إن الأساليب والطرق التي يستخدمها الطفل مع الآخرين لاتقاءِ شرهم ، تستوجب أن تظهر لديه بعض الخصوصيات والحالات والرغبات والأحاسيس والتصرفات التي تُصبح بمرور الزمن جزءاً من شخصيته . وهذه الحالات والتصرفات يمكن تسميتها باسم (الميول العصبية) لأن الطفل يوجدها لديه مجبراً ومكرهاً لدفع شرّ الآخرين وليس عن طيب خاطر ورضاً منه»[1] .

إن الخطط التي يرسمها الطفل في ذهنه ، والأساليب التي يبتكرها كَحَلّ ستكون بالتأكيد طفولية ، لأنه طفل عاجز ولم يمض من عمره سوى بضعة أعوام ، فهو لا يمتلك العقل المتفتح الذي يستطيع بواسطته دفع شر من حوله بتخطيط عقلاني صحيح وصون نفسِه من أذاهم . فهو ليس شاباً قوياً لكي يدفع أذىٰ الآخرين بقواه الجسمية وينقذ نفسه من الضغط والمضايقة .

أساليب الطفل الدفاعية :

«تقول كارن هورناي : إذا تأملتم الطفل جيداً فستجدون أنه للدفاع عن نفسِه يتوسل ثلاثة أساليب ويستند إلى ثلاث حيل وطرق :

الأُسلوب الأول : هو أن يجعل نفسه تابعاً ومطيعاً للآخرين . ويجعل تصرفاته مطابقة لما يريدونه ، لكي لا يستوجب ما يجعله هدفاً لأذاهم . وفي هذه الحالة يكون الطفل قد اعترف بذلّتِهِ وصغرِهِ وضعفهِ ، ورغم الكره الباطن لهم بسبب الظلم والإجحاف الذي ينزل به ، فإنه يسعىٰ إلى أن يجلب محبتهم ، ويركن إلىٰ

---

(١) تناقضاتنا الداخلية ـ ص ٣٠ .

حمايتهم . وإذا كان هناك شجار ونزاع في العائلة فإنه يلصق نفسه بالأقوىٰ الموجود في العائلة ، ويعتمد ما يكسبه حمايته له .

الطفل والمشاكسة :

الأُسلوب الثاني : أن يسعىٰ إلىٰ تقوية موقفِـه بشكل لا يجـرؤ معه أحد على أذاه ، حيث يصبح شخصاً مناضلاً مخاصماً ، تبرز لـديه رغبة شديدة في التسلط والتفوق . وتصبح تصرفاته جـريئة يـرافقها العنف ، ويقمع كل مخالف له ومن يقف في وجهـه . كما يصبـح شخصاً عنيفاً ، بذيء القول ، تصـرفاتـه معاكسـة تمامـاً للأُسلوب السابق . يود أن يسيطر علىٰ جميع الأشخـاص ، وأن يحدد حـرية الآخرين ، ويحتقرهم . وفي هذا الأُسلوب يقوم الطفل ، عن عِلم أو دون علم بـدفع عـدوان الآخرين وظلمهم بـالصـراع والاشتبـاك والصـراخ . فينقلب إلىٰ شخص طـاغٍ يسعىٰ لكي يكـون قـويـاً ، ويكسر شوكة الآخرين ، ليصـون عن هذا الـطريق نفسه من أذاهم ولينتقم منهم .

العزلة :

الأُسلوب الثالث : هو أن يسعىٰ ، قـدر المستطاع ، أن يبتعـد عن الآخـرين ، ويقلل من اتصالِـهِ واختلاطـهِ بهم لكي يتلقىٰ أقـل مـا يمكن من الأذىٰ . وهو بهذا الأُسلوب لا يريد الاستسلام والإطاعة والإعتماد علىٰ الآخرين ، ولا يريد أن يكـون مخاصمـاً معانـداً بل يسعىٰ إلى الإبتعاد عن الميدان ، والإبتعاد عمن يعيشون حـواليه ، ويكـون وحيداً ، فهـو يشعـر أنـه لا يملك تفـاهمـاً وخصـوصيـات مشتـركة مـع الآخـرين ، وأنهم لا يفهمـونـه ، ولـذا لا يـوجـد مـا يستوجب اختلاطـه معهم ، فهو يصنـع لنفسه من الـطبيعة وكتبـه ، وأفكاره وخيالاتهِ عالمـاً خاصـاً لنفسه ، بـاختصار من كـل شيء ما عدا الإنسان ، ولتجنب الإتصال بالأشخاص المؤذين .

والطفل يتوسل بهذه الأساليب الدفاعية الثلاثة ، إلى جلب المحبة ، والتفوّق، والإعتزال . وتبرز لديه إحدىٰ هذه الصفات أكثر من بقية الصفـات ، في أسلوب طلب المحبة وإحساس العجز ، والمسكنة ، وفي التفوّق ، والعناد والخصومة ، وفي الإعتزال والإحساس بالوحدة والإنفراد»[1] .

لن تستطيع أية مجموعة من هذه المجموعات الثلاث الإنسجام في مرحلة الشباب مع أعضاء العائلة أو أفراد المجتمع بشكل مرضٍ ، لأنهم سلكوا في فترةِ الطفولة ، للدفاع عن أنفسهم ولدفع أذىٰ وإهانة الآخرين ، أسلوباً غير سليم ، استخدموه طوال سنوات عديدة ، حتى أصبح جزءاً من شخصيتهم ومع دخولهم مرحلة الشباب فإن هذه الصفات والأخلاق تترسخ وتشتد لديهم ، وكما سنشرح ، فإن هؤلاء الشبان بالأخلاق التي يمتلكونها ليسوا قادرين على إيجاد رابطة صحيحة وسليمة بينهم وبين المجتمع ، أو الإنسجام مع الكبار وأعضاء العائلة ، إلّا إذا عالجوا أنفسَهم .

طلاب المحبة العاجزون :

المجموعة الأولى : طلّاب المحبة : وهؤلاء هم أولئك الذين شعروا بالمذلة والعجز في الطفولة نتيجة الضغوط الداخلية ، ولكي يجلبوا محبة الآخرين اتبعوا أسلوب الإطاعة بدون قيد أو شرط . وهؤلاء إنْ لم يُصلحوا أنفسهم في مرحلة الشباب ، ودخلوا المجتمع بذلك الأسلوب والفكرة الخاطئة ، لا يمكن القول إنهم تفاهموا مع الآخرين ، لأن المراد من (التفاهم الإجتماعي) هو أن تكون علاقة الأفراد على أساس الإحترام المتبادل ، وحفظ الشرف وعزة الفس . والشخص الذي ينسىٰ قيمته الإنسانية لكي يجلب اهتمام ومحبة الآخرين ويذل نفسه بمختلف الأساليب لا يستحق كلمة (تفاهم) . إذ إنه عنصر فاقد للشخصية وذليل ويجعل من نفسه عبداً للآخرين الذين ينظرون إليه نظرة احتقار وإهانة .

---

(١) المصدر السابق ص ٢١ .

«إن طالب المحبة الذي يرغب أن يرىٰ نفسَه تابعاً وتحت يد الآخرين ،لا يمتلك قدرة إظهار وجوده ولياقته .ويفتقد الشهامة والسعي للوصول إلىٰ الأهداف العالية . وبما أن حياة ووجود (طالب المحبة) ترتبط بالآخرين ، ويعيش من أجل الآخرين ، فهو يمتنع عن أداء أي عمل يرتبط به أو بمصلحته .

إن طالب المحبة ، يفترض أن جميع الأشخاص أفضل منه ، أكثر جاذبية ، وأكثر ذكاءً ، وأكثر ثقافة ، وعموماً أكثر قيمةً منه .إن هذا الإحساس له واقع إلى حدٍ ما . لأن عدم إبراز وجوده يخلق في نفسِهِ إحساساً باليأس والعجز العميق ، ما يستوجب أن لا يتمكن من الإستفادة من جميع إمكانياته»[١] .

اجتناب المذلة :

إن الدين الإسلامي السماوي ، المبني علىٰ أساس العزّة والشرف ، لا يسمح لأي مسلم أن يذل نفسه ، أو يحط من قيمتها .

قال أبو عبدالله ، الصادق ، عليه السلام : «إن الله عز وجل فَوَّضَ إلىٰ المؤمن أُموره كُلَّها ولم يُفوِّض إليهِ أن يُذِلَّ نفسَه»[٢] .

قال الإمام علي عليه السلام : «المنية ولا الدنيّة»[٣] .

تجارة ضارة :

يجب أن يعلم أُولئك الذين يريدون الحصول على محبة الآخرين مقابل التضحية بعزّةِ النفس والشرف الإنساني ، أنهم يعقدون صفقة ضارة خاسرة وهذا الموضوع المهم يُستنبط من الجمل القيمة التي وردت في رسالةِ الإمام الحسن عليه السلام :

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٤١ .

(٢) وسائل الشيعة كتاب الأمر بالمعروف ص ٧٠ .

(٣) نهج البلاغة ـ كلمة ٣٩٠ .

«أكرِمْ نفسك من كل دنية وإنْ ساقتك إلى الرغائب فإنك لن تعتاض بما تبذل من نفسِك عِوضاً ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حُرّاً»[1] .

التفوق بالتخاصم :

المجموعة الثانية : طلاب التفوق : وهؤلاء هم الأشخاص الذين تعرضوا في طفولتهم للتحقير والإهانة ، فهم يهبّون للدفاع عن أنفسهم بالعنف والمخاصمة ، ويريدون السيطرة علىٰ الآخرين عن طريق العنف والتصرفات السيئة والكلام البذيء . وهؤلاء أيضاً إن لم يُصلحوا أنفسهم ، في مرحلة الشباب ، ودخلوا المجتمع بأخلاقهم السيئة وتصرفاتهم الخاطئة ، فإنهم فضلاً عن فشلهم في التفاهم مع المجتمع ، سيكونون فئة منبوذة يفر منهم أفراد المجتمع ليتّقوا شرهم وغرورهم وكلامهم البذيء .

عطش الاستغلال :

«إن طالب التفوق ، يفترض أن جميع الناس حاقدون وأعداء . ويسعىٰ إلىٰ أن يرى خلاف ذلك ، والحياة بنظرِهِ ميدان حرب ، معركة الإنسان مع الإنسان والأكثر خبثاً فيهم هو المنتصر وإذا كان هناك استثناء عن هذه القاعدة العامة فإنه سيكون محافظاً بالإكراه .

إنه يعتبر الظلم والعدوان دليلاً علىٰ القوة ، والإستفادة من كل وسيلة للوصول إلى هدفهِ نوعاً من أنواع الواقعية ، وأما إظهار المشاعر الصادقة في نظره فتظاهرٌ يرفضه . وهو للسيطرة على الآخرين يقوي موقفه بحيث يبتعد الآخرون عن الاحتكاك به . إذ إنه جريء جداً وعنيد ، بذيء الكلام ومخاصم»[2] .

إن أولياء الإسلام سلامُ الله عليهم يعتبرون هذه المجموعة متشائمين ، وأولئك شِرار الناس .

---

(١) نهج البلاغة ـ الرسالة ٣١ .

(٢) تناقضاتنا الداخلية ـ ص ٥٢ .

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «ألا إنَّ شِرارَ أُمتي الذين يُكْرَمُونَ مخافةَ شرِّهم»(١) .

قال علي عليه السلام : «شرُّ الناسِ مَـنْ يتّقيهِ الناسُ مخافةَ شرّه»(٢) .

أخلاق غير متعادلة :

إن الأخـلاق الإجتماعية لهاتين المجموعتين من وجهة النظر العلمية هي غير متعادلة ، وغير عادية ، لأن المجموعة الأُولىٰ ، أي طـلاب المحبة ، بالإطـاعة غيـر المشروطـة ، يجلبون الـذل والضعـة ، والمجمـوعة الثـانية ، يعني طـلّاب التفوق ، بعملهم غير المنطقي هذا ، يجلبون الذل والضعـة للآخرين ، وعلماء النفس يسمّون أصحاب المجموعتين بذوي الخُلُق العصبية غير المتعارف عليها ، التي منشؤها التربية والتعليم الخاطئين في فترة الطفولة أو في أيام الكبر .

السلوك المرفوض :

«يتحدث (آدلر) في كتابـه المعروف (معرفة الطبـاع البشريـة) عن نمـوذجين متمـايـزين أحـدهمـا (طبيعة القيـادة) والآخـر (طبيعـة الإطـاعـة) . ويقـول : إن مَـنْ طبعـه طبـعُ الخَـدَم ، هــو ذلـك الشخص الذي يميل دائماً إلىٰ الإطاعة والانقياد لِسَيِّد ، ولهذا فهـو طالب عمل يتفق مع هذه الخصلة الباطنية . وبالعكس من له طَبـع (الآمـر) فهـو في تحـرك لنجاحِـه . كمـا أنــه يسعىٰ أن يبـرز في المجالات التي يبرز فيهـا النشطون التقـدميون ، ويسعىٰ أيضـاً أن تكون له القيادة في مواضـع الثورات والانتفاضات .

هـذا العالم ينتقـد المجموعتين ويعتبـرهمـا من ذوي الـطبـاع غيـر المرغوبة ، كما يعتقد أنهما يستقـران في قطبين مبـالغين في البعد عن الاعتدال ولهما طباع غير عادية، وروحيات اجتماعية شاذة كما يعتقـد أنهما نتـاجُ نظام تعليمي تـربـوي خـاطىء في المجتمعـات

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٦٩٥ .

(٢) مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٣٣٩ .

البشرية»[1] .

قال الإمام الصادق عليه السلام : «ولا تكن فظاً غليظاً يكرَهُ الناسُ قربك . ولا تكن واهِناً يُحقِّرُكَ من عَرَفَك»[2] .

هذا ما قاله الإمام الصادق عليه السلام ضمن حديثٍ له إلىٰ عبدالله بن جندب يصف أسلوب طلّاب التفوق بالخشونة والغرور ، وأسلوب طلاب المحبة بالذلة والمسكنةِ والضعة بأنهما مرفوضان .

المنعزلون الفاشلون :

المجوعة الثالثة : طلّاب العزلة : وهم أولئك الذين لاقوا أذىً كبيراً من الوالدين ومن حولهم ، وفقدوا الإحترام ، وواجهوا الإهانة ، وبحثاً عن حلّ لهم ، انعزلوا عن البقية ، وهم غالباً ما ينفردون بأنفسِهم لكي يلاقوا أقل قدر من الأذىٰ . هذه المجموعة إذا لم تصلح نفسها في مرحلةِ الشباب وتنسىٰ ذكريات الطفولة وتبقىٰ في عزلتها فإنها لن تستطيع الإنسجام مع الآخرين ، لأن الإنسجام مع الناس ، فرع من التفاهم والمعايشة معهم ، والشخص المنعزل يهرب من المجتمع نتيجة فشله ولا يملك الجرأة على معاشرة الناس حتىٰ يفكر في الإنسجام معهم .

اللاشعور الروحي :

«من الخصوصيات البارزة لفريق طلّاب العزلة ، هو التغرب عن الذات ، فهم ، من حيث العواطف والإحساسات ، وبشكل عام من حيث الروحية ، مصابون بنوع من أنواع اللاشعور أو اللّاحسّ .

فهم في الواقع لا يعرفون أنفسهم على حقيقتها ولا يعرفون ما يحبون وما يريدون لا يعلمون أي شيء يكرهون ، ومم يخافون ؟ وما هي أهدافهم وعقائدهم ؟

---

(١) كتاب القدرة ص ٣٨ .

(٢) تحف العقول ـ ص ٣٠٤ .

إن أهم صفات طلّاب العزلة، هي حاجتُهُم الداخلية الشديدة إلى أن تكون هناك فاصلة بينهم وبين الآخرين من حيث العاطفة والروحية أو بعبارةٍ أُخرىٰ ، إنهم يسعون ، عن علمٍ أو جهل ، أن لا يُعاشروا أيّ شخص ، وأن لا يحدث لهم احتكاك مع الآخرين . وأن لا يتعاونوا مع أحد أو يصارعوه ، فهم يُسدلون حولهم ستاراً غير مرئي ، ليحولوا دون دخول أحد إلى محيط أحلامهم ، وإذا شعروا بأن هناك أحداً يخل ويزاحم عزلتهم فإنهم يصابون بخوف واضطراب»[١] .

الاختلاط مع الناس :

إن أولياء الإسلام ، عليهم أفضل الصلاة والسلام يدعون أتباعهم إلىٰ معاشرة الناس في أُلْفَةٍ وأُنس ، بل يشجعونهم على ذلك ، وقد جاء ذلك في روايات كثيرة :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «خيارُكم أحسنكم أخلاقاً الذين يألِفون ويؤلَفون»[٢] .

وقال الإمام علي عليه السلام : «المؤمنُ آلِفٌ مألوفٌ مُتعطِّفٌ»[٣] .

وعن أبي عبد الله ، الصادق عليه السلام قال : «قال أمير المؤمنين عليه السلام المؤمنُ مألوفٌ ولا خيرَ لمن لا يألِفُ ولا يؤلَفْ»[٤] .

سوء التربية والأخلاق السيئة :

إن التربية الصحيحة للأطفال تذيب بعض المشاكل أو الخلافات التي

(١) تناقضاتنا الداخلية ـ ص ٦١ .
(٢) تحف العقول ص ٤٥ .
(٣) غرر الحكم ص ١٤ .
(٤) الكافي ـ ج ٢ ص ١٠٢ .

تحدث للأطفال مع أبـويهم من خلال التفـاهم والمحادثـاتِ المنطقيـة . وهؤلاء عنـدما يكبـرون ويدخلون إلى المجتمـع يستخـدمـون هـذا الأُسلوب ، ويحلون بالعقل والمنطق اختلافاتهم مع الآخرين .

وأما الأطفال الـذين تربـوا تربيـة خاطئـة ، وسحقت شخصياتهـم ، إذا مـا واجهـوا اختلافـاتٍ فإنَّهُم إمّـا يحلونها بـالتملق والذلـة ، أو بـالخشـونـة والعنف والمخـاصمـة ، حتى يصلوا إلى أهــدافهم . وهؤلاء عنـدمــا يكبـرون ، إن لم يصلحوا أنفسهم ، فإنهم لا يستطيعون الإنسجام مع النـاس وستبقىٰ تلك الأفكار الـطفوليـة معهم حتى آخر أعمـارهم ، ولحل اختلافاتِهم مـع الآخرين يتـوسلون نفـس تلك الأساليب الخاطئة .

الشيوخ القساة :

«إن هؤلاء الأشخـاص في سن الأربعين ، وبهـدف الـوصـول إلى مقاصدِهم يقومون بالأعمال العصبية وبالغضب وشتم من هم تحت أيـديهم من النسـاء والأطفـال وضـربهم . ومثـل هـذا الشخص إن دخل عالم السياسة فإنه يسعىٰ لمعاملة مخالفيه بذلك الأُسلوب من ضرب وشتم»[1] .

المعلم القاسي :

«إن المعلم الـذي لا يحظىٰ بـالمحبـة نتيجـة غيـرتـه من ولادة أخ صغير له يسعىٰ لأذىٰ تـلاميذه الصغـار ويعاملهم بعنف وخشـونة ، لأنه باطنيـاً يكره الصغـار ، وهذه العقـد القويـة والعميقة حتىٰ ولـو مضىٰ عليها زمن طويل ، وتكون في الـظاهر منسيـة ، فإنـه بمجرد دخـولِهِ إلى الصف ، وتجـديـد ذكـريـات طفـولتـهِ وإخفـاقِـهِ فـإن إحساساته النائمة تستيقظ وتبدي ردود فعلها في الكبر» .

---

(١) العقل الكامل ص ٢٣ .

عقد مرحلة الطفولة :

«إن ردود فعل الشبان أمام أمثال هؤلاء الأفـراد غير مقبـولة ، فمثـل هذا المعلم لا يمكنه أن ينسجم مع التلاميذ الذين يستهزئون به ، وسبب جميع هذه الإختلافات والهروب من الدرس هـو أن الشبان لا يحبـون معلمهم ، ويمكن أن يقبلوا بـه إذا كـان إنسـانـاً طبيعيـاً وشجـاعاً . إن المعلم الـذي يعتبر الصف غيـر قابـل للتعليم وغير مؤدب ، وتلاميذه خطرين كالبركان ، فيبـدأ نضالـه ضدهم ، هـذا المعلم لا يزال تحت تأثير عقد عهدِ الطفولة ، وتصـرفات التـلاميذ تسبب له أذىً وحالة عدم اطمئنـان بحيث إن فمه يجف دائمـاً في الصف ويصاب بحالة عصبية»[1] .

التربية الصحيحة ونمو العقل :

النتيجة أن احترام الـطفل ، من وجهـة النظر الـدينية والعلميـة ، هو أحـد القواعد الأساسية للتربية الصحيحة ، والطفـل الذي تحـظىٰ شخصيته بـالتكريم من قبل الوالدين ، ويشعر بالأمنِ وهدوء البال في محيط العائلة ينـال نمواً عقليـاً وتكاملاً معنوياً ، كما أنه يحصل بسهولة على الصفات الحسنة ويتخلق بالأخلاق الحميدة ، ويطوي عهد الطفولة بتصرفات صحيحة ، وعندمـا يدخـل في شبابِـهِ إلىٰ المجتمع فإنه ينسجم معه بسهولة ، ويخالط الناس بيسر .

تربية السوء والمكر والخداع :

إن الطفل الذي تواجه شخصيته التحقير وعدم الاحترام، ولا يشعر بـأمن أو هدوء في محيط العائلة ، تكون له نفسية قلقة مضطربة ، وهو نتيجة الأذىٰ الذي لاقاه ممن هم حوله ، تدور في خلدِه أفكار الإنتقام والغضب . ومثل هذا الطفل لا يهتم بـالأخـلاق الحميـدة والصفـات الحسنـة ، لأنـه يـراهـا لا تنسجم مـع

---

(١) المشاكل الروحية للشباب ص ٣٠ .

متطلباتِهِ ، وهو يرىٰ أن رمز النجاح في الحياة يكمن في المكر والخداع ، والتملق والتذلل والضّعة ، أو العنف والخشونة والسب والشتم والانتقام والأذىٰ ، أو العزلةِ والوحدة . فهو لدىٰ طفولته يكون سبباً لقلق الآخرين ومضايقتهم ، وعندما يبلغ سن الشباب ويدخل المجتمع فإنه يصبح موضع كره الآخرين نتيجة أخلاقه السيئة والأساليب الخاطئة ولن يقدر على التأقلم أو الإنسجام معهم .

الإفراط في التكريم :

لا يفوتنا أن نذكر أن الإفراط في تكريم الطفل ، أيضاً ، يكون كعدم احترامه ،ويبعث على سوء التربية وسوء الأخلاق ، فالطفل إذا لاقى محبة زائدة وإفراطاً في الإحترام والتكريم ، ينشأ مغروراً ويتوقع الكثير . ومثل هذا الطفل يصبح بلاءاً على أعضاء العائلة ، ويجعل حياة الوالدين وبقية أفراد العائلة جحيماً لا يطاق . كما أنه يصبح في مرحلة الشباب والرجولة عنصراً تعساً في المجتمع . فهو نتيجة الدلال وغرورِهِ يتوقع أن تقوم نساء ورجال المجتمع بتقديم الإحترام إليه ، كوالديه الجاهلين ، وينفذون أوامره مطيعين دون سؤال وجواب ، وهو لا يدري أن المجتمع ليس فقط لا يهتم بتوقعاتِه ، بل على العكس يُخالفها ، إذ يطردُ كل عنصر مغرور باحتقار وإهانة .

«يقول ماك برايد : إن الطفل المدلل دليل آخر علىٰ عقدة الحقارة وجذورها تكمن في التربية الخاطئة لمرحلةِ الطفولة ؛ إن الطفل الذي يرىٰ نفسَه أمل الوالدين ومصباح حياتهم فإنه عندما يكبر ويصبح رجلاً كاملاً ، أو امرأة كاملة، فإنه يريد أن يكون (العزيز) و (شمع الاحتفال) بالنسبةِ للجميع . وعندما يجد مثل هذا الشخص أنه قد أُهمل ، تضطرب حالته النفسية ويختل اتزانه الفكري ، فهو إما يُقدم على الإنتحار ، أو يسيء إلى الآخرين . إن عقدة الحقارة إذا ظهرت بهذه الصورة لدىٰ الأشخاص ، فإنها

ستكون عندئذٍ من المصائب الكبيرة في المجتمع»[1] .

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام ، قال : «شرُّ الآباء من دعاهُ البرُّ إلى الإفراط»[2] .

يشير الحديث الشريف «أكرموا أولادكم ، وأحسنوا آدابهم» إلى موضوعين ؛ **الأول** : هو أن يكرم المسلمون أولادهم ويحترموهم ، **الثاني** : هو أن يؤدبوهم بالآداب والملكات الحسنة . إننا نعلم أن (حب الذات) هو من الصفات المذمومة ، والمَلَكاتِ غير الحسنة ، والمهينة، والأشخاص المغرورون هم موضع كره ونفور الناس . ومصدر هذه الصفة الذميمة ، هو المحبة المفرطة والتكريم الذي يتجاوز الحد في فترة الطفولة . ويمكن القول إن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يدعو المسلمين في الجملةِ الأُولىٰ من الحديث إلى وجوب احترام شخصية الأبناء ، وفي الجملة الثانية يحذِّر من الإفراطِ في التكريم والمحبة ، حيث يؤدي ذلك إلى (حب الذات) لدىٰ الأبناء ، وهو ما يخالف الأدب الإنساني .

الإفراط في التكريم وضياع الأبناء :

إن الوالدين الجاهلين بإفراطهم في تكريم ومحبة الطفل يسببان ضياعه ويجعلانه يُخطىء في حساباتِ نفسهِ ، ويبتعد عن الواقع . إن مثل هؤلاء الآباء والأُمهات يجعلون من أبنائهم ، بأُسلوبهم الخاطىء ، عناصر مغرورة تتوقع الكثير ، وفي الحقيقة يقومون بأكبر الأعمال العدوانية بحقهم باسم (المحبة) ، ويجعلونهم تعساء ، ذوي مستقبل مظلم . ومثل هؤلاء الأطفال عندما يبلغون سن الشباب ، إذا لم يصلحوا أنفسهم ، واستمروا بغرورهم ، ودخلوا المجتمع بهذه الصفات فإنهم لا يستطيعون مخالطة الناس والانسجام معهم . ولتوضيح هذا الموضوع نشير إلى نموذج من التصرفات الدالة على إفراط الوالدين

---

(١) عقدة الحقارة ـ ص ٢٧ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ـ ج ٣ ص ٥٣ .

وأعضاء العائلة في محبة الطفل ، التي تؤدي إلى (حب الذات) لديه :

في البداية عندما يبدأ الطفل بالكلام فإنه يسعىٰ يائساً إلى بيان ما يهدف إليه بكلمات وجمل غير مفهومة ، وبفعل التمرين والتكرار ينطلق لسانُه ويبيّن مقاصده بوضوح .

إن ردود الفعل الصحيحة والخاطئة للوالدين ومَنْ حول الطفل ، مقابل تكلم الطفل ، لها دور مؤثر في بناء شخصيته وأخلاقه ، وبإمكانها أن تؤثر تأثيراً إيجابياً أو سلبياً .

التأدب عند الاستماع لكلام الآخرين :

أحد مظاهر أدب واحترام شخصية الناس هو الإصغاء إليهم فجميع الشبان والشيوخ ، بل كل إنسان ، في أي سن كان ، عندما يتحدث ويصغي إليه الآخرون ، بصورة جيدة ، يظهر عليه الرضا ، ويعتبر الإصغاء إليه احتراماً له . وبالعكس إذا أظهر مخاطبه عدم الإصغاء أو الإهتمام بحديثهِ فإن الكآبة تظهر عليه وقد يغضب أحياناً ، ويعتبر ذلك عدم احترام له وإهانة لشخصيتهِ .

إن الأطفال الصغار بشرٌ أيضاً ، ولهم عواطف وإحساسات إنسانية ، ويجب أن يكونوا موضع تكريم ، مثل كبار السن ، والإصغاء لحديثهم احترامٌ لشخصيتهم ، وعدم الإعتناء بحديثهم ، تحقير وتصغير لهم .

إن الوالدين الواعيين ، اللذين يؤدّيان واجباتهما بحكمة في تربية ابنهما ، عندما ينطق الطفل يصغيان له باهتمام ، وبما أن كلامه متقطع وغير مفهوم ، فإنهما يتكهّنان قصده ، ويلبيان طلبه الصحيح ، وهما بهذا العمل يشجعان الطفل على الحديث من جهة ، ومن جهةٍ أُخرىٰ يعملان طبقاً للحديث الشريف «أكرموا أولادكم» وبهذه الطريقة يربيان شخصية الطفل الإنسانية .

جهل الوالدين وإهانة الطفل :

بعض الآباء والأُمهات الجهلاء وبقية الأفراد في العائلة من أمثالهِما الذين

يجهلون واجبهم ، لا يهتمون بحديث الطفل ، أو يصغون إليه ولكنهم يضحكون لكلامِهِ الطفولي مستهزئين ، أو يصرخون فيه ويسكتونه . إن هؤلاء بأُسلوبهم الخاطىء يهينون طفلهم ، ويحطمون شخصيته ، ويخلقون فيه عقدة الحقارة التي هي منشأ الكثير من الإنحرافات الأخلاقية . ثم إنهم بتصرفهم هذا يضعفون قدرة الكلام لديه ، ويسلبونَ منه الاعتماد على النفس . فهو في طفولته يتحدث بخوف واضطراب وعند الحديث يغلب عليه الإحساس بالرعب والقلق ، وعندما يصل إلىٰ مرحلة الشباب فإنه يبقىٰ في حالة ضيق واضطراب داخليين ، لا يستطيع معهما بيان ما يريد بحزم ، لأن الشعور بالحقارة من الذي واجهه في مرحلة الطفولة ما زال مترسباً في أعماقِهِ ، وبدون أن يعلم يسيطر التحقير على كل وجوده ، مما لا يدعه يتحدث بحرية واطمئنان .

النفس القوية والكلام الحازم :

قال الإمام علي عليه السلام : «بيان الرجل ينبىء عن قوة جنانِه»[1] .

إن بعض الشبان رغم أنهم درسوا جيداً ، ولكنهم لا يجرأون علىٰ سؤال المعلم في الصف ، أو أنهم يرتبكون في الإمتحان الشفهي وينسون ما حفظوه . أو حتى لدىٰ مواجهتهم للناس يسيطر عليهم الخوف والخجل بحيث لا يستطيعون توضيح المسائل العادية ، وبيان ما يريدون بصورة صحيحة ، وكأنهم يتصورون أنفسهم أصغر من أن يتحدثوا إلىٰ الناس أو يسألوا المعلم سؤالاً .

سوء التربية والشعور بالانفعال :

إن أكثر هؤلاء الشبان يصابون بهذه الحالة من ضعف النفس والإنفعال النفسي إثر سوء التربية في فترة الطفولة ، وإذا لم يعالجوا أنفسهم ، ويمحوا الذكريات المرة لعهد الطفولة من أذهانهم ، وينسوها ، فإنهم لن يستطيعوا الإنسجام والتفاهم مع الناس بصورة حسنة ، بل يبقون إلى آخر العمر معذبين من الشعور بالخجل والحقارة .

---

(١) غرر الحكم ص ٣٤٣ .

بعض الآباء والأمهات يحترمون طفلهم ويصغون إلى حديثه ويهتمون به ، ولكنهم يفرطون في هذا العمل عما تقتضيه الحال ، ويطلبون من الطفل أن يتحدث أمام الكبار، بكلام جميل يبعث السرور في قلوب الجميع ، فيصفقون له كلما تحدث ، ويشجعونه في ما يقوم به .

إن الوالدين ومَنْ حولهم بأعمالهم المفرطة الجاهلة هذه يضلون الطفل ، ويوحون إليه أنه كلما تحدث أكثر اكتسب حباً واحتراماً . فعندما يتحدث يسكت الجميع ويصغون إليه باشتياق ، فيجعلونه يتصور أنه عندما يتحدث يجب أن يصمت عالَم الكبار وعلى الجميع أن يصغوا إليه، وأنه إذا طلب أثناء حديثِهِ شيئاً يجب أن يسرع الجميع لتلبية طلبه .

عادة الثرثرة :

ونتيجة هذه التربية الخاطئة ، فإن الطفل يعتاد على الثرثرة ، معتقداً أن هذا العمل هو أحد عوامل جلب محبة الآخرين ومتصوراً أنهم عندما يلبون طلباتِهِ من واجبهم أن يطيعوه فوراً ويحققوا له ما يطلب .

إن أمثال هؤلاء الآباء والأمهات ، هم أعداء بلباس أصدقاء لأبنائهم ، وبالإحترام غير المدروس لهم يجلبون الإهانة وفقدان الإحترام من غيرهم . إن هؤلاء الآباء الجهلاء قال عنهم الإمام الباقر عليه السلام :

«شر الآباء من دعاهُ البر إلى الإفراط» .

الطفل يكبر تدريجياً ، وتنتهي فترةُ كلامه الحلو وجاذبيته ، ولكن تبقى لديه عادة الثرثرة ، وتوقع الإطاعة ، راسخةً في أعماقِه ، فهو يرغب ، كالماضي ، بالثرثرة ، وينتظر أن ينال التشجيع والإحترام كل مرة . ولكنه لم يعد ذلك الطفل العزيز المحبوب ، وأعضاء العائلة غير مستعدين للإصغاء إلى حديثِهِ ، وتلبية طلباتِه ، ولهذا السبب (أي عدم الإهتمام) يشعر بالضيق والغضب . فتظهر لديه ردود فعل ، يغتاظ ، يشتم ، يصرخ ، الخلاصة أنه يقوم بالأعمالِ غير العادية .

نتائج غير منتظرة :

المصيبة هي عندما يصل الطفل إلى سن الشباب ويدخل إلى المجتمع ويريد طبقاً لتربيتهِ في فترة الطفولة ، أن يجلب محبة الآخرين بالثرثرة ، وينال تشجيعهم ويلبون فوراً طلباتهِ ، ولكنه خلافاً لتوقعهِ يشاهد أن ثرثرته ليس فقط لا تجعله محبوباً ومطاعاً ، بل مطروداً والناس غير مستعدين لرؤيتهِ لئلا يبتلوا بثرثرتهِ .

إن مثل هذا الشاب إذا وعىٰ لحالته وعالج (حب الذات) لديه ، وكذلك عالج ثرثرته بسرعة، يستطيع عندها أن ينسجم مع المجتمع، ويستمر في حياته بهدوء ، وإنْ لم يعالج نفسه ، وبقيت لديه عادة الثرثرة وحب الذات فإنه سيواجه كره الناس وزجرهم له وإلى نهاية عمره يعيش في عذاب ولا يستطيع مخالطة الناس أو الإنسجام معهم .

التربية الجيدة وحسن التفاهم :

نستنتج من مجموع البحث أن التربية الصحيحة لفترة الطفولة هي أحد عوامل حسن التفاهم الإجتماعي وأن التربية السيئة تبعث على الإختلاف وهي أحد عوامل الفشل وسبب من أسباب الهزيمة .

إن الأشخاص الذين تربوا تربية سيئة في الطفولة يجب أن لا ييأسوا من إصلاح أنفسهم ، لأن سيئات الأخلاق كالأمراض الجسمية يمكن علاجُها .

علاج الأمراض الأخلاقية :

فهؤلاء إذا شخّصوا ، في مرحلة الشباب والرجولة ، أمراضهم الأخلاقية جيداً ، وعرفوا طريقة العلاج ،وصمموا على المعالجة ، بالتأكيد سوف ينجحون في ذلك ، ولكن ، في هذا الصدد ، يجب ملاحظة نقطتين :

الأُولىٰ : إن الإنسان أسير (حب الذات) ولا يستطيع أن يشخص نقائصه بسهولة ، ومن الأفضل ، لتشخيص أمراضه، أن يضع نفسه تحت إشراف معلم

أخلاق ، ليقف بالدراسة والبحث على نقائصه وعيوبه .

الثانية : على المرء الذي تلقى تربية خاطئة أن يسرع في معالجةِ نفسِهِ ، لأن الأمراض الأخلاقية كالأمراض الجسمية تتأصل مع مرور الزمن وتصبح بالتدريج مزمنة ، وعند ذاك يصبح العلاج صعباً ، وأحياناً غير ممكن .

قال الإمام علي عليه السلام : «من لم يتدارك نفسه بإصلاحها أعضل داؤه ، وأعيىٰ شِفاؤه ، وعَدِمَ الطبيب»[1] .

---

(١) مستدرك الوسائل ـ ج ٢ ص ٣١٠ .

المحاضرة الخامسة :

الشيخ والشاب وتعديل الميول

﴿بل يُريدُ الإنسانُ ليفجُرَ أمامَه﴾ .

[القرآن الكريم]

تعديل الغرائز :

إن أحد البرامج التي يجب أن تنفذ في طريق إيجاد الإنسجام بين الشبان والرجال والكهول ، ويجب أن يتبعوه دون تردد ، هو تعديل الغرائز والمتطلبات النفسية . إن القسم المهم من سوء التفاهم والمشاجرة في العائلة والمجتمع ، والمواجهة بين الأفراد إنما ينتج عن الرغبات المفرطة ، وكذلك عن إشباع الغرائز .

ولكي يتمكن الجميع ، الأجيال الثلاثة ، من العيش جنباً إلىٰ جنب في محبة وصفاء بعيداً عن المصادمات والعداء يجب أن يقيسوا رغباتهم بالمعايير الأخلاقية والقانونية ، ويحيلوا دون الإفراط في إشباعها ، ويتحكموا بالأهواء النفسية ، ولا يتجاوزوا في غرائزهم حدود المصلحة العامة ، ويتجنبوا العناد والغرور وأن لا يخرجوا عن الحدود المقررة لإرضاء أهواء أنفسهِم . وكل هذا يعني غض الطرف عن الحرية التي لا يحدها حدود أو لا يشترط فيها شرط ، وقبول الحدود القانونية الأخلاقية .

«إن الغريزة لا تخضع لقواعد الإستدلال والمنطق ، وتفتقر للقيم والأصول الأخلاقية والمعنوية ، وإنما تهتم بشيء واحد فقط هو الحصول على إرضاء أكثر ، وفقاً لمبدأ إشباع اللذة لرفع الحاجة إليها . والغريزة لا تتحول مع مرور الزمن ، ولا تتغير مع التجربة .

إن الغريزة هي أساس شخصية الفرد ، وتحتفظ بخصوصيتها الطفولية في جميع مراحل الحياة كما أنها تطلب العمل الفجائي ، والمتطلبات غير العقلية والإجتماعية ، وهي ذاتية وتبحث عن اللذة. وهي إلى جانب ذلك تعتبر الإبن العاق للشخصية والقادر المطلق ، لأنها بامتلاكها التخيّل والأوهام والأحلام لإرضاءِ متطلباتها ، لها قدرة سحرية ، ونظراً لتشكّلِها من حالات مختلفة ، وصفوها بأنها تشبه بحراً مملوءً بأشياء مختلفة . والغريزة لا تعرف شيئاً خارج ذاتها ، فهي عالم من الحقيقة الذهنية ، تبحث عن لذاتها فقط بعيداً عن الآلام .

إن الشخص الذي يسعىٰ لخداعِ شخصٍ آخر ، أو يرتكب الزنا والإغتصاب ، أو يصرف بعض وقتهِ في الخيالات الساذجة والأفكار الواهية ، إنما يكون تحت تأثير غريزتهِ . والغريزة لا تفكر . وإنما تريد ، وتنفذ»[1] .

العقل وتحديد الغرائز :

إن العقل والمنطق يستوجبان المصلحة والسعادة وضرورة الحضارة لكي نكبح جماح الغرائز ، بقدرةِ العقل والإيمان ، في وجودنا ، ونهديها إلى سواء السبيل والسعادة . لأن هذه القوة العظيمة لو تنطلق من نفسِها لتعمل ما تشاء حسب حاجاتها الطبيعية فإنها تنزل دماراً كبيراً وتلحق أضرراً بالغة لا يمكن التعويض عنها . ولكن الخضوع لهذه القيود صعبٌ على الإنسان ، لأنه

(١) علم النفس لفرويد ـ ص ٤٠ .

بطبعهِ البدائي يعشق الحرية ، يريد أن يكون حراً في إشباع غرائزهِ وميوله ، وأن لا يجد أمامه مانعاً لتلبية طلباتِهِ النفسية . ﴿بل يريد الإنسان ليفجُرَ أمامه﴾[1] .

إن الإنسان ليس راضياً عن الموازين القانونية والأُصول الأخلاقية التي تسلب منه مقداراً كبيراً من حريته وتمنعه من إشباع رغباتِهِ . فهو كلما سنحت له الفرصة يودّ لو يجتاز المقررات والحدود الممنوعة للقانون والأخلاق ، ليرضي رغباته وميوله ، كما يريد بحريّة .

أتباع الحرية :

كان هناك بعض الأشخاص ، ولا يزالون ، يعتقدون أن ميول الإنسان الطبيعية أفضل وأهم من جميع المعايير القانونية والأخلاقية ، وهؤلاء هم أتباع إطلاق الحرية ، بدون قيد أو شرط ، للغرائز ، ويعتقدون أن سعادة الإنسان تكمن في المتطلبات النفسية على طبيعتها ، وأن القانون والأخلاق سدٌّ أمام رغبات البشر ، وبالتالي يمنعان من ظهور المواهب الكامنة وازدهار الإستعدادات الباطنية للإنسان .

تجاهل القوانين :

«يقول جون ديوي : بعض الأشخاص يعتبرون الأُصول الأخلاقية والمقررات الإجتماعية بمثابة مانع أمام تقدم ميولهم واستعداداتهم الفردية . إن أمثال هؤلاء يخطئون في اعتبار عدم الحرية في إشباع الميول والشهوات ، يحدد نمو وازدهار الشخصية الفردية ، وهم بنفس مقدار تصرفاتهم الكريهة أمام الناس يشعرون بأنه عليهم أن يتّبعوا شهواتهم ، وإحساساتهم وأفكارهم ، وأن لا يعيروا القوانين والأُصول الإجتماعية أهمية ، وبشكل عام فإن تصورهم قائم على أن الأخلاق الفضلى تكمن في ضرب الأُصول والقوانين الأخلاقية

---

(١) سورة القيامة ؛ الآية : ٥٠ .

التي تحد من حرية الإنسان عرض الحائط»[1] .

إتّباع قانون الطبيعة :

تعتقد هذه المجموعة أن سعادة الإنسان تبدأ عند انهيار أساس الحضارة وأنظمتها كلّياً ، وتزول الحكومات ، وتشكيلاتها ، بأي صورة كانت ، وتحذف التعاليم الدينية ، والقوانين الإجتماعية ، والمقررات الأخلاقية ، والتقاليد والعادات العامة ، من حياة الإنسان ، ويبقىٰ قانون الطبيعة هو المتحكم بالناس ، ويصبح كل فرد حراً ، تماماً كحيوان وحشي ، قادر على إشباع غرائزه وأهوائه النفسية كيفما شاء .

ولكن العلماء الباحثين يردّون هذه النظرية الخاطئة ، ويعتبرون مثل هذه الحادثة تؤدي إلى تعاسة الإنسانية وهلاكها .

العودة إلى الحياة البدائية :

«يقول الأُستاذ الفرنسي إدغاريپش : هناك مجموعة من المفكرين ، في كل عصر وزمان ، يعتقدون أن المسؤول عن الإختلالات والصراعات ومشاكل البشر هي المدنية فقط ، ويوصون ، أنه للخلاص من هذا الوضع ، علىٰ الإنسان أن يعود إلى حالتِه البدائية .

إن ادعاء كهذا ، من الناحية العلمية لا يستند إلى قاعدة صحيحة بل إن شكواه من المدنية هو انعكاس للتحريكات الغريزية الذاتية المهاجمة وغير الإجتماعية له»[2] .

اللذة المؤلمة :

«طبعاً إن الإشباع اللامحدود لجميع الرغبات والميول الغريزية

---

(١) الأخلاق والشخصية ـ ص ٢٣ .
(٢) أفكار فرويد ـ ص ١١٦ .

يؤدي إلىٰ اللذة ، ولكنها في الغالب تتضمن آلاماً بسبب العالم المخالف أو المعارض والتصرفات المنحرفة أيضاً . إذن ، فإن العيش كالحيوان ، حتىٰ ولو كان حراً ، لا يجلب السعادة»[١] .

«لا يمكن إنكار أن المدنية قد تصرفت بسوء بالحركات الغريزية ، ولكن هل يجب إدانتها لهذا السبب ؟ ! هكذا يجيب فرويد : كم يتطلب إلغاء المدنية والثقافة من قصر النظر وإنكار الحق ؟ ! فالذي يبقىٰ ، بعد كل ذلك هو الطبيعة ، ومن الصعب تحملها»[٢] .

الإنسان مع أنه حيوان بطبعه ، خلق وله غرائز وميول حيوانية ، ولكنه ليس حيواناً مائة بالمائة ، حتىٰ يتمكن أن يعيش كحيوان ويسعد . والإنسان بالإضافة إلى الميول الحيوانية له صفات ومزايا إنسانية خاصة تفتقر إليها الحيوانات . إن الخالق تبارك وتعالىٰ قد أودعَ كنوزاً وقيماً في الإنسان ، امتزجت مع طبيعتهِ ، ومن أجل ذلك فإن الإنسان ، طبيعياً ، يختلف عن الحيوان من جهات متعددة .

الحياة وفق الطبيعة :

إذا أراد الإنسان أن يتّبع في حياتِهِ نهج الطبيعة ، ويعيش طبقاً لرغباتِهِ الطبيعية عليه ، عندئذ ، أن يأخذ بعين الإعتبار الهيكل الطبيعي له المتكون من جوانب حيوانية وإنسانية ، ويكون له برنامجاً شاملاً وفقاً لطبيعة الإنسان ، ولا يتصور أن الإنسان مثلَ الحيوان ويحصر حياة الإنسان في نصفِهِ الحيواني ، ويغض النظر عن الجانب الإنساني الذي هو أساس الفضيلة والكمال لديه .

الحياة الحيوانية :

«يقول الدكتور كارل : هناك اليوم أشخاص كثيرون يعيشون مما

---

(١) و(٢) المصدر السابق ص ١٠٨ و ١٢٠ .

يقرب من الحياة الحيوانية ، يبحثون عن القيم المادية ، ولهذا السبب فإن حياة هؤلاء أرذل كثيراً من حياة الحيوانات ، لأن القيم المعنوية هي الوحيدة التي تمنحنا الضياء والسعادة .

كل إنسان عليه أن يختار في لحظةٍ من حياتِهِ ، طريقاً من طريقين ، الطريق المادي ، أو الطريق الإنساني . أي إمّا أن يقبل أو يرفض اتباع القانون السامي للنفس . والسمو النفسي ليس قانوناً أساسياً في تكامل حياة أي فرد بل أحد خصائص هذه الحياة»(١) .

إن إطلاق الحرية ، دون قيد أو شرط ، للغرائز في حياة الإنسان ، يعني سحق الأمور الإنسانية وإهمال السمو الروحي والمعنوي .

حيوان في صورة إنسان :

إن من يطيع أهواءه النفسية وطبيعتَهُ الحيوانية ، ويهمل جوانبه الإنسانية ، هو حيوان في صورة إنسان . ومثل هذا الشخص يسير خلافاً لنظام الخلقة والتكوين لذا يعتبره الدين الإسلامي ضالاً يستحق العقاب الإلٓهي .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «ومَنْ لم يرَ أنَّ للَّهِ عليهِ نعمةً إلاَّ في مَطْعَمٍ أو مَشْرَبٍ فقد جَهِلَ وكَفَرَ نِعَمَ الله وَضَلَّ سَعْيَهُ وَدَنا منه عَذابُهُ»(٢) .

عن أبي عبد الله ، الصادق عليه السلام قال : «أَبْعَدُ ما يكونُ العبدُ من اللَّهِ عز وجل إذا لم يُهِمَّهُ إلاّ بَطْنُهُ وفَرْجُهُ»(٣) .

وعنه عليه السلام : «المؤمنُ لا يَغْلِبُهُ فَرْجُهُ ولا يَفْضَحُهُ بطنُهُ»(٤) .

---

(١) طريق الحياة ص ٦٤ .
(٢) تحف العقول ص ٥٢ .
(٣) الكافي ـ ج ١ ص ٣١٩ .
(٤) تحف العقول ـ ص ٣٥٨ .

الانسان وتكوينه الخارجي :

إذاً فالحياة الحيوانية تتناسب وتكوين الحيوانات وتتلاءم والبهائم والحيوانات المفترسة ، بينما الإنسان له بنية خاصة وظروف تختص به ، فهو موجود ممزوج بالأمور الحيوانية والإنسانية ولا يستطيع ، مثل الحيوان ، أن يتبع غرائزه الحيوانية فقط . والأشخاص الذين يأملون حياةً حيوانيةً للإنسان ، فإنهم يفكرون خلافاً لقوانين الخِلْقَةِ وسُننها ، ومثل هذه الأفكار الخاطئة لا تأتي بالسعادةِ للإنسان .

الشيء الملفت للنظر أنه يبدو أن الحيوان له مطلق الحرية في إرضاءِ غرائزه وميوله ، ويستطيع أن يحقق رغباته النفسية كيفما شاء ، ولهذا السبب فإن بعض الأشخاص السذّج يحسدون الحيوانات علىٰ ذلك ، ويقولون في أنفسهم (ليتنا كنا مثلهم أحراراً) إن هؤلاء في غفلة لأن الحيوانات ليست لها حرية العمل ، بل إن الحيوانات مقيّدة في برامجها الفطرية ولا تستطيع أن تخرج عن القرارات والموازين التكوينية الممزوجة في وجودها ، ولا تستطيع أن تلعب في غرائزها أو تغيّرها . ولهذا السبب فإنها تسير في حياتها وفق إرادة الخالق سبحانه وتعالىٰ ، ولا تستطيع الإنحراف عن الصراطِ المستقيم للخلق ، طبقاً لما قرره الله تبارك وتعالىٰ لها .

الانسان وحرية العمل :

إنه الإنسان الذي منحه الله عز وجل العقل والذكاء وحرية العمل ، وليس ذلك الإنسان السجين في حدود غرائزهِ ، وإنه لقادر على انتخاب الأسلوب الصحيح وغير الصحيح والإنسان هو الذي يستطيع أن يزن بالعقل غرائزه وميوله ويعمل في حدود المصلحة وما يجلب السعادة ، كما أنه هو أيضاً الذي يستطيع أن يكون عبد هواه ، لا يصغي للعقل ومصلحته ، ويغرق في الفساد والخطايا بالإفراط والتفريط في استخدام غرائزه وميوله النفسية ليرسم بذلك تعاسته .

آلية الغرائز :

«إن لجميع الموجودات الحية، باستثناء الإنسان ، نوعاً من العلم الفطري بالعالم وبنفسها ، والغرائز تسوقهم بشكل كامل ومطمئن نحو الإتصال بالحقيقة ، وعليه فهم لا يملكون حرية خادعة . وأما الموجودات العاقلة فهي التي تُخدعُ ، وبالنتيجة يصلون إلى التكامل وخلافاً لامرأة الإنسان ، فإن الكلبة لا تخطىء أبداً في مراقبة جِرائِها ، والطيور تعلم أن عليها بناء أعشاشها ، كما تعرف النحلة المواد اللازمة للملكة أو العاملات في الخلية ، ولذا ، وبسبب العمل الذاتي ، فإن الحيوانات لا تملك حرية ، لكي تعيش كالإنسان في الرغبات والأهواء والميول . ولا شك أنه لا زال يحيط بالإنسان وفكره هالة الغريزة ، ولكنها لا تملك القدرة للإنتقال بنا تماماً إلى العالم الخارجي وتطبيق أُسلوب حياتنا مع شروط هذا العالم .

إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش ، كالذئب ، في غابة مظلمة دون مرشد ، وأن يعرف بنظرة واحدة الصديق من العدو والحيَّ من الميت .

الإنسان حر ، ويستطيع أن يخدع نفسه ، وهو مُخيّرٌ في انتخاب الطريق الصحيح من بين الطرق التي تُعرض عليه ، ويرىٰ نفسه مجبراً على السير في هذا الطريق ، ويعتمد على شعوره النفسي في الإهتداء في الحياة»[1] .

معيار أفضلية الانسان :

يتحدث القرآن الكريم ، في بعض الآيات ، عن حرية الإنسان ، ويشير بتعابير دقيقة إلى هذه الحقيقة الثمينة والقيمة التي تشكل أساس تكامل

---

(١) طريق الحياة ص ٢٨ .

الإنسان ، والاختلافَ الأصلي بين الإنسان والحيوان . فهو يقول في بعض هـذه الآيات :

﴿إنا خلقنا الإنسان من نُطفةٍ أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾[1] .

إن خلق الإنسـان من نطفـة مخلوطـة ليس ميـزة لأفضليـة الإنسـان ، لأن جميع الحيوانات خلقت من نطفـة مخلوطة من الـذكر والأُنثى أو ذرات مخلوطـة من عناصر طبيعية وأملاح معدنية ، وإنما أفضلية الإنسـان وتمييزه على سائـر الحيوانات هي في ﴿نبتليه﴾ التي تفصلُهُ عن بقية المخلوقات .

الانسان وقدرة الامتحان :

إن الله سبحانه وتعـالى يمتحن الإنسان ، وهـذا يعني أن الإنسان يليق بـه الإمتحـان ، وأنه تبـارك وتعالى ، منحـه ضميراً حيـاً مُبصـراً ليعـرف المبـاح من الممنوع .نحن نعلم أن شرط الإمتحـان ، هو الحـرية ، والتلميـذ الـذي يمتحن لمعرفة مقدار معلوماتـه يجب أن يكون حـراً في الإجابـة على الأسئلة العلمية ، ليتبين مقدار علمِه .

أما الحيوانات المحصورة والمسجونة داخل الغرائز ، فلا تُمتحن، لأنها لا تملك الحـرية ، ولا تستـطيع أن تتمـرد علىٰ البـرنـامـج التكـويني لله سبحـانـه وتعـالىٰ ، وإنما الإنسـان هو الـذي يجب أن يتحمل عبء الإمتحـان لأنـه خُلِقَ حـراً ، والإنسان هـو الذي يستـطيع أن يـطيع الأوامـر الإلهيـة الحكيمـة فيُسعـد نفسه ، كما أنه يستطيع أن يتمرد على أوامر الخالق فيهيء لنفسـه طريق الشقـاء والتعاسة.الطريف أن (صلاحيـة الإمتحان) ، الـذي يدل علىٰ الحـرية ، وُضِعت في الإنسان منذ أن كان نطفة .

الهداية التكوينية والتشريعية :

إن الهـداية الإلهيـة قسمان : إحـداهما تكـوينية ، والأُخـرىٰ تشـريعيـة ،

---

(١) سورة الإنسان ؛ الآية : ٢ .

وجميع المخلوقات في العالم ، ومن ضمنها الإنسان والحيوان ، تشملهم الهداية التكوينية لله تبارك وتعالىٰ ، ولهذا السبب فهي تسير نحو تكاملها . وكل عضو في جسم الحيوان يؤدي واجبه الخاص بالهداية التكوينية لله عز وجل ، وفي ظلها يَستمر في نشاطِهِ الحياتي . وهكذا الأمر بالنسبة لأعضاء جسم الإنسان ، فالكبد ، وبهداية الله التكوينية يقوم بأعمالِهِ الكيمياوية المحيرة ، كما أن رحم الأُم ، بالهداية التكوينية ، يقوم بتنشئة الجنين .

الهداية التكوينية برنامج إلٰهي حكيم ، تنتظم شؤون العالم على أساسه كما أنها الأمر الإلٰهي الواجب التنفيذ على الإنسان والحيوان وبقية المخلوقات ، ولا يمكن أن يتخلف عن ذلك أي مخلوق ، والقرآن الكريم يتحدث عن هذه الهداية علىٰ لسان موسىٰ عليه السلام فيقول :

﴿قال ربُّنا الذي أعطىٰ كلَّ شيءٍ خَلْقَه ثم هَدىٰ﴾[1] .

الهداية التشريعية وحرية الانسان :

الهداية التشريعية هي عبارة عن التعاليم الدينية لله تبارك وتعالىٰ . يؤمر الأنبياء عليهم السلام بإبلاغها للناس في كل عصر .

والهداية التشريعية برنامج للسعادة المادية والمعنوية للإنسان ، إذ تعرض عليه طريق السمو والتكامل . وهذه الهداية تختص بالإنسانِ العاقل الحر ، ولا نصيب للحيوانات فيها . ويقول القرآن الكريم عن الهداية التشريعية ، وحرية الإنسان في قبولها أو رفضها : ﴿إنا هديناه السبيلَ إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾[2] .

عن حَمْران بن أَعين قال : سألتُ أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل ﴿إنّا هديناه السبيلَ إمّا شاكراً وإمّا كفوراً﴾ قال : «إمّا آخذٌ فهو شاكرٌ، وإما تاركٌ فهو كافر»[3] .

---

(١) سورة طه ؛ الآية : ٥٠ .

(٢) سورة الإنسان ؛ الآية : ٣ .

(٣) تفسير البرهان ص ١١٦٣ .

وجوب التكامل في الحيوان :

إن الهداية التكوينية لله عز وجلّ نظمت حياة الحيوان وطريق تكامله . وكما أشرنا ، فإن تنفيذ البرامج التكوينية واجب قطعاً ، ولا تملك الحيوانات في قبولها أو رفضها ، أية إرادة أو حرية . وأما البرنامج الخاص بالإنسان فهو الهداية التشريعية ، والإنسان العاقل الحر هو الذي يستطيع اتباع الهداية الإلّهية ليصل إلى ذروة كمالِه ، كما أنه يستطيع أن يتركها فينحطَّ إلى الحضيض .

الانسان وطريق التكامل :

إن الله تبارك وتعالىٰ قد عيّن الصراط المستقيم للإنسان ولجميع الحيوانات ، وفتح أمامهم طريق السمو والتكامل ، مع اختلاف أن الحيوانات بغريزتها وإدراكها الطبيعي تعرف طريق تكاملها وتنساق إليه بدون إرادة منها ، وقهراً تصلُ إلى كمالها . وأما الإنسان فإنه لا يستطيع أن يُشخِّص ويُميّز بشكل طبيعي وغريزي طريق سعادتهِ ، بل عليه أن يبحث ، وأن يُشخّص هذا الطريق بمساعدةِ العقل . وبما أن الإنسان حرٌّ ، فإنه يستطيع أن يسير بإرادتهِ في هذا الطريق ليصل إلى كمالِه الإنساني ، أو أن يتركه ويضل في المتاهات حتىٰ يسقط في التعاسة . والقرآن الكريم يقول حول الصراط المستقيم وقيادة الحق تعالىٰ للحيوانات :

﴿ما من دابة إلّا هو آخذٌ بناصيتها إنّ ربي علىٰ صراطٍ مستقيم﴾[1] .

الهداية التشريعية أو الصراط المستقيم :

وحول الصراط المستقيم للإنسان وحريته في اتباع دعوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، أو مخالفتها يقول القرآن الكريم :

﴿وإن هذا صراطي مستقيماً فآتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيلي﴾[2] .

(١) سورة هود ؛ الآية : ٥٦ .

(٢) سورة الأنعام ؛ الآية : ١٥٣ .

نستنتج أن الحيوانات سجينة في حدود غرائزها ولا تملك حرية الاختيار، ولكن الإنسان خُلق عاقلاً وحراً في سلوك السبيل المستقيم أو المنحرف بينما الحيوان لا يستحق الإمتحان الإلَهي، لأنه لا يملك حرية، والإنسان موجود حر ومستعد لتحمل عبء الإمتحان الإلَهي. والحيوان يَسْتفيدُ من الهداية التكوينية لله تبارك وتعالىٰ، وهو مجبر على إطاعة ذلك، بينما الإنسان يمتلك الهداية التشريعة أيضاً، ويستطيع أن يقبل أو يرفض بحرية، والحيوان يسير في الصراط المستقيم بأمرٍ إلَهي ولا يستطيع الإنحراف عنه نحو المتاهات، ولكن الإنسان يهدىٰ إلى الصراطِ المستقيم بواسطة دعوة الأنبياء، وهو مخيّر في قبولها أو رفضها.

رفض وقبول الهداية التشريعية:

إن الحرية هي أكبر العطايا الإلَهية الموجودة لدى الإنسان، وهي للأشخاص الراشدين سبب للرقي والتكامل، بينما هي للأشخاص المنحطين سبب للسقوط والضياع. والحرية إذا استخدمت في طرق العلم والتقوىٰ لرقي وسمو الإنسان، فإن هذا الإنسان يصبح أكبر من أي مخلوق وفي أعلىٰ عليين. وبالعكس فلو أن الحرية استخدمت للشهوات الشريرة والإفتراس الحيواني، يصبح الإنسان عندئذ في أحطّ مكانة، وفي أسفل السافلين:

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسنِ تقويم * ثم رددناه أسفلَ سافلين * إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غيرُ ممنون﴾(١)

قيمة الايمان والعمل:

لكي تتضح أكثر حريةُ الإنسان والقيود المفروضة على الحيوانات، ولأجل أن تطّلع جميع الأجيال بصورة عامة وجيل الشباب بصورة خاصة على ضرورةِ تعديلِ الرغبات وتحديد حرية الإنسان، يجب أن نقدم شرحاً حول بعض الميول المشتركة بين الإنسان والحيوان والإختلاف الموجود بينهما.

---

(١) سورة التين؛ الآيات ٤ ـ ٦.

طلب اللذة لدى الانسان والحيوان :

من الميول الطبيعية عند الإنسان والحيوان الحاجة إلى اللذة والبحث عنها فالإنسان والحيوان على حدٍ سواء يتحركان وينشطان بهدف كسب اللذة وإشباع الشهوات النفسية ويسعيان لبلوغ هذا المراد والحصول على النشوة مع اختلاف واحد هو أن الحيوان محصور في إطار غرائزه ، ولا يملك حرية العمل ، فإنه مجبر على البقاء في اللذائذ الطبيعية، وبمقدار طبيعي ، ومن الطرق الطبيعية ، ولا يستطيع الخروج من الحدود الطبيعية للحصول على لذاتِه . وأما الإنسان الذي يملك عقلاً وذكاءً ، وحرية عمل ، فإنه يمتّع نفسه بأنواع اللذات الطبيعية والمصطنعة ومن طُرقها الطبيعية وغير الطبيعية .

الحيوان واللذات الطبيعية :

ينال الحيوان غذاءه وحاجته الجنسية بشكل طبْيعي وطبقاً لبرنامج الخَلْق . فتتغذىٰ الطيور من البذور ، والمواشي من العلف والحيوانات المفترسة من اللحوم ، فتلتذ بذلك ، وكذلك في الأعمال الجنسية الغريزية ، فكل حيوان ، بما جُبِلَ عليه من طبيعة يُقاربُ زوجه ويُشبع غريزته الجنسية ، وأما الإنسان الحر ، فإنه لا يقتنع في غذائه وعمله الجنسي بالبرامج الطبيعية ، بل إنه لكي يحصل على لذة أكثر يقوم بأعمال غير طبيعية وبأشكال مختلفة لإشباع غرائزه .

الانسان واللذات غير الطبيعية :

والإنسان كالحيوان ، يتغذىٰ على التمر والعنب والتفاح بشكل طبيعي ، ولكنه يصنع من هذه الفواكه شراباً ليحصل على لذّة السُّكْر أيضاً . كما أنه يستفيد من الخشخاش والأعشاب الأُخرىٰ ، ولكنه يستخرج منها المورفين والحشيش والماريجوانا ، و (LSD) ليحصل على لذة أكثر والإنسان كالحيوان يُشبع غريزته الجنسية بالطريق الطبيعي ، ولكنه لكي يحصل على لذة أكثر يسير نحو الإنحراف الجنسي ليستحصل على مطالبهِ من الطرق غير المشروعة ، وغير الطبيعية .

إن طلب الحيوان للذّة ، المتمثّل في إطار الغرائز ، لا يولد خطراً ، لأن إرادة الله سبحانه وتعالىٰ جعل الميول الغريزية لدىٰ الحيوان محدودة ، طبقاً لمصلحة الحيوان الفردية والنوعية وبمقياس محدود . ولكن الإنسان الذي له حرية العمل ويستطيع الحصول على اللذات الطبيعية وغير الطبيعية ، عليه أن يضبط لذاته طبقاً للموازين الأخلاقية والقانونية ، ويشبع ميوله في حدود المصلحة العامة ، وينصرف عن اللذات المضرة والخطرة ، وإلّا أدىٰ ذلك إلى شقائه وشقاء المجتمع .

الشباب والرغبات الآنية :

«يقول ريموند بيش : إحدىٰ ميزات شبابِ اليوم هي أنهم يفعلون كل ما يريدون ، دون أن يضطربوا لنتائج عملهم . وأما القوانين الأخلاقية فلا تتقبل التغيير ، والقانون الإجتماعي وُجِدَ من أجلِ التمييز بين الطيب والسيء ، وليس طبقاً للأهواء ، ولهذا السبب فإن الزمن عاجز أيضاً عن تغييرها . إن رعاية هذه القوانين الإجتماعية تضمن سعادة ونجاح الأشخاص .

وأما الأشخاص الذين يتّبعون أهواءهم وينحرفون في الطريق ، يدركون فيما بعد ، وبعد فوات الأوان ، أنهم قد أساءوا التصرف في مصدر سعادتهم ، وعندما يصلون إلى نتائج أعمالهم السيئة ينتبهون إلى أن حياتهم لم تلب أبداً احتياجاتهم القلبية العميقة ، بينما استطاعت مجموعة أُخرىٰ أحكمت وقوفها على أرضية صلبة في الحياة ، الحصول على سعادة قلبية مليئة باللذة ، وتحصل ، في فترة الشباب ـ التي هي مقدمة الحياة الحقيقية ـ علىٰ نشاطٍ كبير»[1] .

---

(١) نحن وأطفالنا ـ ص ٨٣ .

قال علي عليه السلام : «لا خيرَ في لذةٍ توجبُ نَدَماً وشهوةٍ تَعْقِبُ ألماً»[1].

وعنه عليه السلام أيضاً : «كم من شهوةِ ساعةٍ أورثَتْ حُزناً طويلاً»[2].

الانسان والميول غير الضرورية :

إن أحد الإختلافات الأساسية بين الحيوان والإنسان ، هو أن رغبات الحيوان لا تتعدى احتياجاتها الطبيعية الضرورية للحياة . وأما ميول الإنسان فإنها تتجاوز حدود ضروريات الحياة ، وتتسع عن مدار الإحتياجات الطبيعية . والشيء الملفت للنظر أن الميول غير الضرورية في الإنسان لا تعرف حداً معيناً ، فإذا أشبع رغبة تمنىٰ إشباع رغبة أُخرىٰ فوقها .

مثلاً ، إن المال وسيلة لقضاء حاجات الحياة ، من طعام ومسكن وملبس ومأكل ولكن طمع الإنسان في اكتناز الأموال لا يتوقف عند حدود الضروريات ولا يشبع من جمع المال ، وكلما زاد جمعه للمال زاد طمعه .

عن حمزة بن حمران قال : شكا رجل إلى أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام أنه يَطلُب فيُصيبُ ولا يقنعُ وتنازِعُهُ نفسُهُ إلىٰ ما هو أكثرُ منه ، وقال : علمني شيئاً أنتفعُ به . فقال أبو عبد الله عليه السلام : «إن كان ما يكفيكَ يُغنيك فأدنىٰ ما فيها يغنيكَ ، وإنْ كان ما يكفيك لا يُغنيك فكل ما فيها لا يُغنيك»[3].

منشأ تحرك الحيوان :

إن القسم الأعظم من نشاط الحيوانات ينبع من مصدرين ، أحدهما الحصول على الطعام ، والثاني إشباع الغريزة الجنسية فعندما يكون الحيوان جائعاً فإن سعيه ينصبّ على الحصول على فريسة لإنقاذ نفسه من الجوع ، وعندما تبرز الرغبة الجنسية لديه فإنه يأخذ بالبحث عن زوجٍ له ليقضي حاجته الجنسية

---

(١) غرر الحكم ص ـ ٣٥٨ .
(٢) وسائل الشيعة ـ ج ٤ ـ باب وجوب غلبة العقل ص ٢٩ .
(٣) الكافي ج ٢ ص ١٣٩ .

هاتان الـرغبتان وضعهمـا الخالق تبـارك وتعالى لحكمـة له في وجـود الحيوان ، الأولـىٰ لحفـظ الحيـاة الفـردية ، والثانية لحفظ نوع الحيوان . وعنـدما تمتلىء بطن الحيوان ويقضي وطره الجنسي ، فإنـه يأخذ بالاستراحة والإطمئنان إلىٰ أن يشعـر مرةً أُخـرىٰ بالحـاجة للطعـام والعمل الجنسي ، عنـدها يبـدأ نشاطـه مرة ثانية .

هـاتان الـرغبتان مخلوقتـان أيضاً لـدىٰ الإنسان ، وصيـانة الحيـاة الفرديـة والنوعية لديه تتعلق بإشباع هاتين الرغبتين . فـالإنسان أيضـاً كالحيـوان ، يسعىٰ ويجدّ للحصول على الطعام وإشباع الغريزة الجنسية ، ولكنه ونظراً لوجود ميـول ورغبات أُخرىٰ غير موجودة في الحيوان فإن رقعة رغبـاتِهِ تكـون أوسع ممـا لدىٰ الحيوان .

الميول الخاصة بالانسان :

من الميول القوية الموجـودة في ضمير الإنسـان : حبّ الجاه ، اكتسـاب العاطفـة ، الزعامة والرئاسة ، لفت أنظار الآخرين والشهـرة ، القوة والقـدرة ، جمع المال والثروة ، التدمير والتهاجم ، وأُمنيات أُخرىٰ شبيهة لذلـك . فعندمـا يشبـع الإنسان ويقضي رغبتـه الجنسية ، يبـدأ نشاطـه للحصول على الـرغبـات الأُخرىٰ ، ويسعىٰ جهده لتحقيق ذلك .

«يقول راسل : توجد اختـلافات كثيـرة بين الإنسان والحيـوانات ، بعضها يتعلق بالقوىٰ العقلية وبعضهـا الآخر بـالقوىٰ الحسيـة . إن أحد أهم الإختلافات الأساسية بين الإنسان والحيوان هو أن الرغبات الإنسانية ، خلافاً للرغبـات الحيوانيـة ، غير محـدودة ، ولا يمكن إشبـاعها تمـاماً . إن أفعىٰ (البـوا) ، التي تهضم طعامهـا بواسـطة انقباض العضلات الداخلية ، تنام بعد تناولها الطعام ، ولا تستيقظ حتى تشعـر بالجـوع مرة أُخـرىٰ ، وإذا كانت بقيـة الحيـوانـات لا تعيش كهـذه الأفعىٰ فلأن كيفيـة تناولهـا للطعـام تختلف ، أو أنهـا

تخشىٰ من أعدائها . وبشكل عام فإن نشاط الحيوانات مصدره الحاجة الأولية لاستمرار الحياة ، وتوليد النسل ، وهذه النشاطات لا تتجاوز أبداً حدود إشباع احتياجاتِها هذه . أما بالنسبةِ للإنسان فإن القضية تختلف ، ولم يكن دافع الملك (خشايار) عند تحرك اسطوله ـ لقتال اليونانيين ، حاجته للطعام أو اللباس أو الجنس . لا توجد حدود لتحقيق الإنتصارات الخيالية في أحلام اليقظة . والأحلام الوهمية تحرك الإنسان لأن يفرط في نشاطه أكثر ، رغم إشباع ميولهِ الأساسية .

إن آمال الإنسان ورغباته واسعة وغير محدودة ، وربما حصل في حدود اللانهاية على الراحة والهدوء ، حيث هناك تقنع الحيوانات بالعيش والتناسل ، فتكون هناك نقطة بداية «الآمال الإنسانية»[١] .

مانع أمام الآمال :

هل الإنسان حر في إشباع أُمنياتهِ اللامحدودة والتي لا تُعدّ ؟ وهل الإنسان قادر علىٰ إشباع جميع ميولهِ كما يرغب وتحقيق جميع أهوائه النفسية ؟ بالتأكيد سيكون الجواب بالنفي ، إذ لا يمكن أن يُحقق إنسان جميع آمالهِ ، لأن هناك مانعين يقفان في طريقه ، ويسلبانه الحرية ويقطعان عليه طريق التقدم . المانع الأول القوانينُ الطبيعية ، والمانعُ الثاني النظام الإجتماعي .

«**القوانين الطبيعية** : هناك صراع مؤثّر بين حرية الإنسان والقوانين الطبيعية ، صراع ضحيته إنسان اليوم ، لأنه يطالب بالحكم الذاتي المطلق ، ومع ذلك فإنه لا يستطيع الإستفادة من حريته خارج المناطق الممنوعة ، والحرية كالديناميت ، وسيلة مؤثّرة ولكن خطرة ، يجب تعلم كيفية الإستفادة منها ، ولحسن الحظ فإن الذي يستطيع أن يعمل بها هو صاحب العقل والإرادة .

---

(١) كتاب القدرة ـ ص ١٩ .

قوانين الطبيعة صامتة ، والحدود بين الصواب والخطأ ، كما نعلم ، غير قابلة للرؤية . ولكي لا نتيه في الصحاري غير المحدودة لا بد أن نلتزم الطريق الضيق والشائك . وبناءً على هذا فإن اتباع القوانين الطبيعية يستلزم الحدّ الإرادي للحرية ، وبدون التنظيم الداخلي لا يمكن النجاح في الحياة .

فالتضاد بين حرية الإنسان وقيود القوانين الطبيعية يستوجب تزكية النفس . ونحن لكي نجنب أنفسنا وذوينا خطر الحوادث ، لا بد أن نقاوم الكثير من أُمنياتِنا ورغباتِنا»[١] .

التكامل في ظل المدنية :

الأنظمة الاجتماعية : يقول العلماء : الإنسان اجتماعي بطبعهِ ، وللحصول علىٰ الكمال الذي يليق به لا بد أن يترك الهمجية والوحشية ، وأن يتخلق بالأخلاقِ الإجتماعية ولا بد له أن يأنس إلى بني جنسِه ويعيش معهم ، وفي ظلال أفكارهم وتعاونهم يتمكن من أن ينمي مواهبه الكامنة ويستخرجها إلىٰ الواقع ويصل بالنتيجة إلى الكمال الإنساني .

ولكي يبقىٰ أساسُ الحضارة قائماً ، ولكي لا يُصاب المجتمع بالاضطرابِ والفوضىٰ ، وينعم الناسُ بالأمن والراحة . . لا بد من تحديد حريتهم بواسطة قرارات قانونية وأخلاقية ، وتعيين حدود المسموح به وغير المسموح به ، ولا بد من كبح الغرائز العمياء ، وإشباع ما يمكن إشباعهُ منها في حدود مصلحة المجتمع . وهذه المحدودية ، الضرورية لحفظ الحياة الإجتماعية وتأمين سعادة الإنسان ، لا يمكن إغفالها .

«تستوجب الحياة ، خاصة الحياة الاجتماعية للإنسان ، هداية القوىٰ الغريزية الأُولىٰ منذ البداية ، وسوقها نحو الأهدافِ الإجتماعية . وعلى المدنية أن تخالف حرية الغرائز ، أو

---

(١) طريق الحياة ـ ص ٣٨ .

بالأحرى : كما يوضع سد أمام مجرى المياه لإدارةِ المولدات الكهربائية ، فلا بد للمدنية أن تسيطر على الغرائز بهدف رقي وتكامل الإنسان والوقوف أمام تفسخ الأخلاق وتحللها»[1] .

اختلاف الشيوخ والشباب :

إن القسم الأعظم من الإختلافات بين الشباب وكبار السن ، وكذلك بين الأزواج ناتج عن الاندفاع في إشباع الغرائز والميول . فالشبان الذين يريدون إظهار قدرتهم ، أو تنفيذ شهواتهم دون قيد أو شرط وكذلك أعمالهم غير المشروعة يواجهون مخالفة الوالدين ، عند ذلك يبدأ التضادّ والصراع . الولدان المغروران اللذان يريدان إبراز سيطرتهما، وتنفيذ رغباتهما بضغطهما على أولادهما الشبان ، وتوجيه الإهانة لهم ، مما يبعث على الشجار والإختلاف ، يزيلان بذلك هدوء العائلة . وأما الأزواج اللامبالين الذين يريدون أن يكونوا أحراراً لا يقيّدهم قيد ، فيحاولون أن يكونوا مطلقي اليد في تصرفاتهم فيغضبون زوجاتهم ويكونون سبباً في إثارة النزاع والصراع . والزوجات الفاسدات غير المتمسكات بالعفة ، اللواتي يردن أن يكنَّ ، بأعمالهن القبيحة حُرّات ، فيحقّون أزواجهن ، ويوفرن أسباب الخلاف والنزاع . والمهم أن التضاد والشجار يخرج من حدود الألفاظ والكلمات مما يبعث على تحريك الأحاسيس ، فينتهي الإختلاف والنزاع إلى الجريمة .

موت الإنسان في الجرائم :

«إن الحصول على الثروة والمال ، والإندفاع إلى الإنتقام من إهانةٍ لحقت بعزة النفس والشرف يدفع بالشخص إلى القتل . وإن العمل المنافي للعفة وعملية اغتصاب شرف امرأة ، إنما هو عمل ينبع من إحساس بالتفوق يؤدي إلى الجريمة . . كما أن دافع الحريق المتعمد هو الإنتقام . والسرقة دافعها الإحساس بالضيق المادي .

---

(١) أفكار فرويد ـ ص ٥١ .

وباختصار فإن الدافع للعلو والغرور ، والميل إلى إظهار القدرة ، والحرصُ على التملك ، كل ذلك دوافع مختلفة تؤدي بالشخص إلى ارتكاب الجريمة . إن هذه الأحاسيس الفجائية لا تولد لدى الأشخاص من تلقاء نفسها ، بل إن الميول الطبيعية . وأحياناً المكتسبة تكون هي الدوافع الأولية»[1] .

إن الحيلولة دون حدوث هذه الإختلافات هي في تحديد حرية الإنسان ، فيجب كبح الغرائز الجامحة ، وتطبيق الميول الغريزية والمكتسبة مع المعايير الأخلاقية والقانونية ،لإشباعها في حدود مصلحة الفرد والمجتمع .

الحرية وأرضية التكامل :

إن الله سبحانه وتعالى ، وهو الحكيم العزيز ، خلق الإنسان حراً ، فهيأ له بذلك أرضية السمو والتكامل ، ولكي لا تصبح الحرية سبباً لتعاسة الإنسان وانحطاطه ، فقد زود الله تعالى الإنسان بثروة لا تقدَّر بثمن هي الوجدان الأخلاقي والعقل ، لكي يستطيع بواسطة هاتين القوتين الفطريتين ، تحديد حريته وغرائزه في درجة تضمن له السعادة .

(الوجدان الأخلاقي) وديعة ثمينة من الودائع الإلهية ، وضعها الله تعالى لحكمةٍ في الإنسان فامتزجت مع وجودِه . والوجدان الأخلاقي دليل طاهر ومنزه يقودنا إلى طريق السعادة ، ويعلمنا كيف نفرق بين الأخلاق الحسنة والسيئة .

﴿ونفسٍ وما سوّاها فألْهَمَها فجورَها وتقواها﴾[2] .

الوجدان الأخلاقي وتعديل الغرائز :

الوجدان الأخلاقي يوجد تعادلاً في غرائزنا ويحول دون الإفراط والزيادة

---

(١) ماذا أعلم الجريمة ـ ص ١٧ .

(٢) سورة الشمس ؛ الآيتان : ٧ و ٨ .

المضـرة والخطرة . كمـا أن الوجـدان الأخلاقي يفـرق بين حياة الإنسـان وحياة الحيـوان . ويمنـح الإنســان الـطهــارة والفضيلة ، ويهيء لـه طـريق السمـو والتكامل .

الوجدان الأخلاقي لا ينبهنا إلى الأخلاق الحسنة والسيئة فحسب ، بل إنه يدفعنا نحو الأخلاق الحسنة ويحذّرنـا من الأخلاق السيئـة . وإذا حدث وتمـردنا على الـوجدان الأخـلاقي ، فإننـا نتعرض لتـأنيب لا يحتمل ، وتعـذيب يجعـل الحياة مُرّة لنا .

الوجدان والاخلاق الحقيقية :

«يقول هنري باروك : الوجدان الأخلاقي ليس انعكاساً مصـطنعاً ، بل إنه أعمق عامل طبيعي للإنسان . والأشخاص لا يتمكنون أبـداً من إخماد هذا الوجدان وتدميره بمظاهر مختلفة . ثم تظهر الأهمية الكبيرة والمكانة السامية للوجدان الأخلاقي في روح الإنسان ، من خلال ثباته الفائق حتىٰ في الأمراض الشديـدة وحوادث الجنـون ، وهبــوط المعنــويــات ، حيث يبقىٰ بعــد الإكتئــاب في العقــل والذكاء»[1] .

«إن إحدى الإختلافات الأساسية بين الإنسان والحيـوان هو أن الحيـوان الوحشي يفترس طريدته بكل هدوء ، ثم يشعر بعـد ذلك بـراحة ، وأما الإنسان فإنه إذا ما قضىٰ علىٰ أحد بني جنسِه فإنه يصاب بنوع من الألم ، وبما أنه لا يستطيع إنقاذ نفسِهِ من هـذا الألم فإنـه يبدأ بـاتهامـات كاذبـة لإثبات أحقيتـه فيما عمـل وأن ضحيته لا تستحق الحياة»[2] .

«تقـوم الأخلاق الحقيقيـة علىٰ أسـاس احتـرام الـوجـدان . وليس احترام الوجدان الأخلاقي سبباً للحرية والراحة في المجتمـع فحسب

---

(١) (٢) ماذا أعلم ؟ الأمراض النفسية والعصبية ص ٦٥ و ٦٧ .

بل مصدراً للهدوء الباطني . وبما أنه لا يمكن الهروب من إطاعة الوجدان الأخلاقي . فمن الأفضل أن نقبل بإطاعة أوامره برحابة صدر ونذعن لحكمه ، وهذه الطاعة الباطنية ، تؤدي إلىٰ الأعمال الصحيحة المقبولة .

والوجدان الأخلاقي لا يريد إخماد الغرائز مرةً واحدة . بل إنه يريد تنظيمها وهدايتها نحو هدفٍ أسمىٰ وأجلّ . وهذا العمل ، أفضل للغريزة من الحرية التي ينادي بها فرويد ، لأن الحرية المفرطة بدون قيد أو شرط تؤدي إلى الانهيار والسقوط»[1] .

الدوافع الفطرية والأخلاقية :

يجب أن يلاحظ الأشخاص ، أتباع الحرية المطلقة للإنسان ، الذين يعتقدون أن الميول الطبيعية أفضل من جميع الموازين القانونية والأخلاقية . يجب أن يلاحظوا أننا لو تركنا جميع الضوابط الأخلاقية والقانونية ، وتحررنا من جميع القيود والحدود ، وصممنا علىٰ اتباع قوانين الطبيعة ، فإننا رغم ذلك لا نستطيع أن نعيش كالحيوانات ونُشبع رغباتنا وغرائزنا دون قيدٍ أو شرط ، لأن ميولنا الطبيعية ليست منحصرة بالأمور الحيوانية وإنما بالشؤون الأخلاقية أيضاً التي لها جذور فطرية وطبيعية في أعماقنا ، واتباع قوانين الطبيعة يستوجب أن نراعي المسائل الأخلاقية والسجايا الإنسانية ، وهذا بحد ذاتِهِ من الاختلافات الأساسية بين الإنسان والحيوان .

«كنت واكر ، يقول : مضت مدة لم يعرف خلالها العلماء وظيفة القسم الأمامي للدماغ ، لأن أي ضرر أو صدمة أو دمار لهذا القسم في الإنسان لا يُوجدُ عجزاً أو ضعفاً خاصاً ، ولهذا السبب أَسْمَوا هذا القسم باسم (منطقة الصمت) حتى وقعت حالة معينة في القرن الأخير أوضحت لحدٍ ما وظيفة هذه المنطقة ، فقد جاءوا بعامل مريض إلىٰ المستشفىٰ ، وقد أُصيبَ بواسطة قضيب في حدقة

---

(١) المصدر السابق ـ ص ٦٩ .

عينيه ، وأتلف القضيب قسماً كبيراً من منطقة الدماغ الأمامية ، عولج المريض المصاب وبعد مدة خرج من المستشفىٰ دون أن يصاب بالشلل أو أي عجز ، ولكن عوضاً عن ذلك تبدّلت تصرفاتهُ و (أخلاقهُ) ، كان هذا الشخص قبل إصابته شريفاً ، نشطاً ، فأصبح شخصاً كذاباً ، مهملاً مشرداً ونصاباً . وقد أثبتت حوادث أُخرىٰ مشابهة هذا الرأي في أنّ الناحية الأمامية من الدماغ ، أو (منطقة الصمت) هي مركز للصفات والخصائل ، التي تميز الإنسان عن الحيوان»[1] .

الركن الأساسي للسعادة :

تعتبر مكارم الأخلاق والسجايا الإنسانية إحدى الأركان الأساسية لسعادة ونجاح الإنسان في الحياة الإجتماعية. ولهذا السبب فقد رأىٰ الأئمة الطاهرون ضرورة التخلق بالأخلاق الكريمة لسعادة المجتمعات الإنسانية ، بصرف النظر عن الأمور الدينية والإيمانية التي تتطلب الثواب والعقاب .

عن أمير المؤمنين علي عليه‌السلام أنه قال : «لو كنا لا نرجو جنةً ولا نخشىٰ ناراً ولا ثواباً ولا عقاباً لكان ينبغي لنا أن نطلبَ مكارمَ الأخلاق فإنها مما تدل علىٰ سبيل النجاح»[2] .

إطاعة أوامر الوجدان :

الخلاصة أن الوجدان الأخلاقي هو أحد العطايا الإلهية الموجودة في باطن الإنسان والممزوجة مع وجوده ، وإذا أردنا أن نتبع في حياتنا الميول الطبيعية والفطرية ، لا بُدّ أن نطيع أوامر الوجدان ، ونَزِنَ حريتنا بالمعايير الأخلاقية ونلبي غرائزنا وفق الوجدان الأخلاقي .

العقل ، هو الآخر كالواجدان الأخلاقي من الثروات التي اختصَّ بها

---

(١) فسيولوجيا الإنسان ص ١٤٣ .

(٢) مستدرك الوسائل ـ ج ٢ ـ ص ٢٨٣ .

البشر ، وحُرِمَ منه الحيوان ، كما أنه مشعل متوهج يضيء درب حياة الإنسان ، ويبيِّن له الطريق الصحيح من الخاطىء . و من جانبٍ آخر فهو (أي العقل) طبقاً لمحاسبة دقيقة يطابق الميول والرغبات غير المحدودة للبشر مع القوانين الطبيعية والأنظمة الإجتماعية ويعيِّن موارد الاختلافات والتناقضات فيها . ثم إن العقل يحدد حرية الإنسان ، ويبيِّن موارد الصلاح والفساد فيها .

باختصار ، إن العقل هو قاضٍ حقيقي واقعي ، محاسب يعين حدود إشباع الغرائز والميول ، ويميز بين المسموح به والممنوع . كما أنه يحدد حرية الإنسان ،وهذا يعني (القانون) .

قال الإمام علي عليه السلام : «النفوسُ طَلِقَةٌ لكنَّ أيدي العقول تُمسِكُ أعِنَّتَها عن النحوس»[١] .

استخدام العقل :

إن تنفيذ أوامر العقل يحفظ للإنسان حياته ، ويمنحه الحرية والعزّة والشرف الإجتماعي . وعلى العكس فإن عدَم الإهتمام بنداء العقل ، واتباع هوىٰ النفس دون قيود يؤدي إلىٰ ضياع القيمة الإنسانية عنده ، ويسوقه نحو السلوك الحيواني ، ويجعله عبداً لتمنياتهِ النفسية .

قال الإمام علي عليه السلام : «فَضّلِ العقلَ علىٰ الهوىٰ لأنَّ العقلَ يملِّكُكَ الزمان . والهوىٰ يَسْتَعْبِدُكَ للزمان»[٢] .

اتباع الفطرة :

العقل دليل استقرَّ فينا بأمر إلهي ، وامتزج مع وجودنا ، فإطاعة أوامر العقل ، اتباعٌ لقانون الخلق والفطرة . وتنفيذ قرارات العقل يؤدي إلىٰ السعادة ، ومخالفة قوانينه توجب التعاسة والندامة .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إسترشدوا العقل تَرشُدُوا ، ولا تعصوهُ

(١) فهرست غرر ـ ص ٢٥٧ .
(٢) شرح ابن أبي الحديد ـ ج ٢٠ كلمة ٢٠٩ .

فتندموا»[١] .

وقال علي عليه السلام : «العقلُ يهدي ويُنْجي ، والجهلُ يُغْوي ويُرْدي»[٢] .

عدم الاهتمام بنداء العقل :

إن عدم الإهتمام بنداء العقل والوجدان الأخلاقي ، هو عدم اهتمام بدين الفطرة وتخلُّف عن نظام الخَلْق . إن الأشخاص الذين يتركون فضائلهم الإنسانية ويتمردون على الوجدان والعقل ، مضطرون أن يكونوا ، كالحيوان ، عبيداً لأهوائهم النفسية ، إن الغرائز الثائرة والمستمردة في هؤلاء ، هي التي تتحكم فيهم ، وتسوقهم نحو حب الذات ، والتعطش للجاه والمنصب ، والإنتقام والحسد والظلم ، والتدمير والتهاجم والسيئات الأخلاقية والأعمال غير الإنسانية الأُخرىٰ .

فالكثير من الاختلافات التي تظهر في الأُسر والمجتمعات ، وتؤدي إلىٰ الصراع ، وتنتهي أحياناً إلى ارتكاب الجرائم ، إنما تنجم عن أن الكبار أو الشبان يطيعون رغباتهم وميولهم الغريزية والأهواء النفسية ، وعن عدم استجابتهم لأوامر العقل والوجدان الأخلاقي .

«حتى يومنا هذا فإن عدداً لا يستهان به من الشابات في الصين ، اللواتي يُقْدِمنَ علىٰ الإنتحار بسبب ضغط أُمهات أزواجهن ، والشيء الذي يُلاحظ الآن في الصين هو بقايا نظام ، كان إلى عهدٍ قريب سائداً في نواحٍ من المناطق المتمدنة من أُوروبا وآسيا»[٣] .

«جاء في تقرير للشرطة الهندية أن عدم الإنسجام وسوء العلاقات بين الأزواج وأُمهات الزوجات ، هو أحد أسباب الانتحار. في السنة الماضية انتحر سبعة وثلاثون شخصاً بسبب الإختلاف مع أُمهاتِ الزوجات»[٤] .

---

(١) مستدرك الوسائل ـ ص ٢٨٦ ـ ج ٢ .

(٢) غرر الحكم ص ٢٥٧ .

(٣) الزواج والأخلاق ص ٢٨ .

(٤) صحيفة كيهان رقم ٨٩١٧ .

«وفي السنة الماضية أيضاً قام ما يقربُ من ٥٠٠ شابة بعملية تسميم إثر الاختلافات العائلية ، ونزاع وشجار الوالدين ، والتفرقة بين الأبناء ، والصعوبات والضغوط التي لا مبرر لها . وهذا حديث شاب في السادسة عشرة من العمر راقد في مستشفىٰ للمتسممين بطهران : إن والدي يفرق بشدة بيني وبين شقيقاتي وأخي فهو يقوم بضربي أمام الجميع مما يخجلني ، ويقول لي : إنك ابن سيء الطالع ، فمنذ أن وُلدتَ نزلت بي المصائب»[1] .

قصور العقل :

الجدير بالذكر أنّ العقل رغم أنه دليل الإنسان ومصباح هدايته ، إلَّا أنه محدود وقصير المَدىٰ من جهتين :

الأولى : من الممكن أن تؤثر في العقل عوامل كثيرة منها الشهوة والغضب ، الصداقة والعداء ، الآداب والتقاليد ، التربية والتعليم ، وهذه العوامل قد تحول دون معرفة الطيب والخبيث ، فتؤدي إلىٰ أعمال خاطئة ونتيجة غير سليمة .

الثانية : إن العقل لا يستطيع أن يلم بجميع الحقائق ،ولا يستطيع الإحاطة بالغيب والشهادة . ولا يتمكن من الإجابة على كل سؤال ، وأنْ يلبي جميع الإحتياجات المادية والمعنوية والدنيوية والأُخروية ، والظاهرة والباطنة للإنسان وبالتالي فهو عاجز عن أن يكون دليلاً لكل شيء .

والوجدان الأخلاقي من جهةٍ اخرىٰ محدود ، ويقتصر حُكمُهُ على أُمهاتِ الفضائل ، وأُمهاتِ الرذائل ، ويعجز عن معرفة جميع الخُلقياتِ الحسنة والسيئة . ومن جهة أُخرى تَشوبُهُ الشوائب بفعل تكرار الخطايا، وتخف حساسيته تدريجياً تجاه الممارسات غير الوجدانية ، ويتوقف عن لوم وتعذيب المذنب .

---

(١) صحيفة كيهان رقم ٨٩٧٥ .

الوحي وتقوية العقل :

لكي لا ينحرف الوجدان الأخلاقي عن سير السعادة ، بفعل ضعف وعجز العقل النظري والعقل العملي . فإن الله سبحانه وتعالىٰ أرسل أنبياءه إلىٰ الناس لتقوية العقل بفعل نور الوحي ، فيعوض بذلك العقل النظري والعقل العملي ، وبالنتيجة يستطيع الناس بواسطة هاتين الحجتين الإلٰهيتين الحصول علىٰ الهداية الكاملة والجامعة ، ومن ثم الوصول إلىٰ السعادة الواقعية الشاملة.

عن موسىٰ بن جعفر عليه‌السلام أنه قال: «يا هشام إن لِلهِ علىٰ الناس حجتين : حجّةً ظاهرةً وحجّةً باطنةً . فأمّا الظاهرةُ فالرسُلُ والأنبياءُ والأئمة . وأمّا الباطنةُ فالعقول»[1] .

قال الإمام علي عليه‌السلام : « العَقْلُ رَسولُ الحق»[2] .

فالعقل هو الرسول الداخلي للناس ، والرسول هو العقل الخارجي للناس . وهما مأموران من قبل الله تبارك وتعالىٰ ، أن يكونا معاً لبيان الخطأ والصواب للناس ، وتوضيح الأعمال المسموح بها والممنوعة ، ليصل الناس إلىٰ التكامل والسمو وتحقيق سعادة الفرد والمجتمع .

صيانة الحضارة :

من مجموع البحث نحصل علىٰ نتيجة أن تعادل الميول وتحديد الحرية شرط أساسي لصيانة الحضارة ، وحسن تفاهم الأجيال المختلفة في محيط العائلة والمجتمع . فالله سبحانه وتعالى قد منح الإنسان الحرية ، من جهةٍ ، ومن جهةٍ اخرىٰ قد وضع فيه الوجدان الأخلاقي والعقل مختلطاً مع وجودِهِ ، لكي يستطيع بالإلهام والهداية منهما ، والاستمداد من الوحي الإلٓهي ، أن يحدد حريته وميوله الغريزية.وأهواءه النفسية ، في حدود المصلحة الفردية والإجتماعية .

يتصور البعض أن الموازين الأخلاقية والقانونية تقف سداً في طريق

---

(١) تحف العقول ـ ص ٣٨٦ .

(٢) غرر الحكم ص ٢٥٥

الحرية ، ويقولون : إن الإنسان يجب أن يحرر نفسه من القيود ، ويصبح كالحيوان مطيعاً لقانون الطبيعة لكي يعيش براحة بال ويصل إلى الكمال الذي يليق به ولكنهم غفلوا أننا لو تركنا يوماً جميع القرارات الأخلاقية والقانونية وصممنا على أن نتبع الطبيعة فإننا لن نستطيع أبداً أن نعيش كالحيوان ، لأننا سنضطر أن نتجه مرةً أُخرىٰ نحو الأخلاق والقانون . لأن العقل والوجدان الأخلاقي جزء من هيكل طبيعتنا ، واتباع هذه القوة الطبيعية والفطرية يدفعنا إلىٰ أن نقبل بالأصول الأخلاقية والضوابط العقلية ، وهذا بحدِ ذاتِه يستلزمُ إطاعة الموازين الأخلاقية والضوابط القانونية في حياةِ الإنسان .

المحاضرة السادسة :

تحديد الغريزة الجنسية

من تسرَّع إلىٰ الشهوات تسرّع إليه الآفات .

[الإمام علي عليه السلام]

غريزتان قويتان :

اتضح بالشرح الذي قدمناه في المحاضرة السابقة ، إلى حدٍ ما ، ضرورة تعادل الغرائز لاستقرار أساس الحضارة وحسن تفاهم أعضاء العائلة والمجتمع . ونظراً لأن الرغبة الجنسية ، وطلب القدرة ، غريزتان قويتان يلعب التعادل بينهما دوراً مهماً ومؤثراً في تأمين سعادة الإنسان، وحسن التفاهم بين الشبان والكبار . وأما الإفراط فيهما فإنه يخلق مفاسد كثيرة وفي هذه المحاضرة سيدور البحث حول الغريزة الجنسية ، وفي المحاضرة التالية سيكون حول طلب القدرة والتفوق .

الغريزة الجنسية من العوامل المهمة في اكتساب اللذة في حياة الإنسان وهذه الغريزة لها جاذبية قوية جداً ، تُهيّج الرجل والمرأة بشدة، وتُشعل فيهما نار الشوق ، فيسعيان للوصول إلىٰ بعضهما البعض بشوق لإشباع هذه الرغبة بلذة

لقد كانت قضية الزواج ، وبشكل عام العلاقات الجنسية ، في جميع الأزمنة والعصور ، مدار حديث وبحث المحافل الدينية والعلمية . وظهرت حولها نظريات وآراء إفراطية وتفريطية ومعتدلة ، وكل نظرية من هذه النظريات الثلاث لها أتباع كثيرون . يعملون وفقها ويتصورون أن سعادتهم تكمن فيها .

الكنيسة والعلاقات الجنسية :

إن أتباع الكنيسة ، وبعض المذاهب ، وكذلك بعض الفلاسفة وعلماء الأخلاق ، يعتبرون العمل الجنسي ، عملاً حيوانياً ، وأنه سيء وشرير . هؤلاء الأشخاص يسلكون طريق التفريط بالنسبة للغرائز ، وهم بعملهم هذا الشديد إنما يكبتونها . وهناك الكثير من الشبان والشابات ، قد حَرموا أنفسهم من الحياة العادية ولذائذ الحياة الطبيعية ، لاعتقادهم بتلك النظرية ، بل يوجد البعض من هؤلاء من يسلك طريق الرياضة الروحية المعذّبة بهدف الوصول إلى الكمال الروحي والسمو المعنوي .

النظرية الافراطية :

إن أتباع حرية الغرائز ، ومنهم من المتأخرين فرويد وأتباعه ، قد انجرفوا نحو الإفراط في آرائِهم عن الميول الجنسية ، وانتقدوا بشدة القيود القانونية والأخلاقية ، وقد بالغ فرويد حول ذلك بحيث ربط سعادة الإنسان بطريقة استهلاك (اللبيدو)LIBIDO [1] الفردي .وراحة البال التي تتأتى من ذلك . إن هذه النظرية غير الصحيحة القائمة على مبدأ اللذة تولد مفاسد كثيرة ، وتضل الكثير من شباب الشرق والغرب وتسوقهم نحو الفساد والضياع .

نظريتان مرفوضتان :

الدين الإسلامي الحنيف يرفض هاتين النظريتين ويُدينهما ، لأن واضعي أساس هاتين النظريتين وأتباعهما عجزوا عن إدراك الحقيقة ، ولم يستطيعوا أن

---

(١) اللبيدو ـ طاقة انفعالية او نفسيه مستمدة من الدوافع البيولوجية الأولية وذات هدف ـ الشهوة الجنسية (المورد ـ طبعة ١٩٦٩ ص ٥٢٦) . ـ المترجم ـ

يَزِنوا الغريزة الجنسية بواقعية ، ويفرقوا بين المسموح والممنوع فيها ، ولهذا السبب فإن مجموعة منهم سلكت طريق الإفراط ، ومجموعة أُخرىٰ سلكت طريق التفريط .

قال الإمام علي عليه‌السلام : «لا يُرىٰ الجاهلُ مُفْرِطاً أو مُفَرِّطاً»[1] .

إن الاعتدال في الغريزة الجنسية أسلوب يُرضي الخالق سبحانه وتعالىٰ وينطبق مع سنن الخَلْق . إذ إن الغريزة الجنسية ، في هذه الطريقة ، تكون منطلقة ، لا مكبوتة أو مرفوضة ، وإنما تقاس الميول الطبيعية بمقياس صحيح وتحت حماية القانون والأخلاق ، وفي حدود مصلحة الفرد والمجتمع .

اسلوب الأنبياء :

إن واضعي أُسس الاعتدال في الدرجة الأُولىٰ هم أنبياء الله صلوات الله عليهم فهؤلاء وبأمرٍ إلهي ، شجعوا الناس طوال القرون والأعصار علىٰ الزواج ، ومن جهةٍ ثانية كافحوا أي نوعٍ من التحلل والإنحراف الجنسي وحذروا المجتمعات البشرية من ذلك .

في هذه المحاضرة سيدور البحث حول الأساليب الثلاثة المشار إليها. في البداية سنتعرض للتشجيع علىٰ الزواج في الإسلام ، ثم صعوبات الكنيسة في قضايا الزواج ، وفي الختام نتحدث عن حرية الغرائز ، ونظرية فرويد الإفراطية والمفاسد الناتجة عنها في الأسرة والمجتمع .

الاسلام والزواج :

لقد اهتم الرسول الأكرم صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بالغريزة الجنسية وحث أتباعه على الزواج الذي يمثل الطريق الطبيعي لإشباع هذه الغريزة ، ثم حذّرهم من العزوبيّة وترك الزواج .

---

(١) لسان العرب ـ فرط .

قــال رســول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «من أحبَّ فــطرتي فَلْيَسْتَنَّ بسنتي ومن سُنَّتــي النكاح»[1] .

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم : «خيارُ أُمتي المتأهلون وشِرارُ أُمتي العُزّاب»[2] .

لقد حددالإسلام الغريزة الجنسية وفق نظام الخَلْق على أساس المصلحـة المـادية والمعنـوية ، وسنّ مقـررات يكتفي بموجبهـا النساء بـالرجـال والـرجـال بـالنساء ، ويشبـع كل منهمـا غريـزتـه مـع الجنس الآخـر مـع مـراعـاة الحـدود القانونية ، ومنع سلوك الطرق الأُخرىٰ المنحـرفة عن سنـة التكوين ، وقـد اعتبر الإسـلام المنحـرفين جنسيـاً معتـدين : ﴿فمن ابتغىٰ وراء ذلــك فـأُولئــك هم العادون﴾[3] .

الطريق الطبيعي لنيل اللذة :

«عنـدما تستيقظ غـريزة اللذة في مـرحلة البلوغ وتتجه نحـو العـالم الخارجي ، فإنها تترصد شيئاً لتصريف قواهـا الباطنيـة ، وفي هذه اللحظة المهمة ، تقـوم الغريـزة ، عالـدة الحياة الـطبيعية ، بـدور الدليـل للحيارىٰ إلىٰ الطريق الطبيعي الذي هو طريق التنـاسل . وعلائم هداية الطبيعـة هي أنه يحـدث تغير محسـوس في الأعضاء التنـاسليـة للرجـل والمـرأة البـالغين ، والـطبيعة بهــذه العـلائم والمشخصات ، تريـد إفهام الـطرفين علىٰ أن الطريق الـذي يجب أن يسيرا فيه هو طريق التناسل وإذا أدرك الأشخـاص هذا الأمـر ، وأطاعوه ، أي اقتـرب الرجـل من المرأة وانجـذبت المرأة نحـوه ، ليقوما بحكـم الطبيعة بعمل طبيعي وهو التناسل ، وابتعدا عن سائر أشكال اللذة الأُخرىٰ ، عندها يمكن القول إن نمو الشهوة قد سـار في الطريق الصحيح المنـظّم له ، وتم صـرف القدرة الغريزيـة في

---

(١) مكارم الأخلاق ـ ص ٩٩ .

(٢) مستدرك الوسائل ـ ج ٢ ص ٥٣١ .

(٣) سورة المؤمنون ؛ الآية : ٧ .

طـريقها الـطبيعي العـادي ، وقـد سـار في هـذا الـطريق الـطبيعي المنـظم الملايين ، هـذا الطريق الـذي يسميـه فـرويـد الانسجـام الثنائي»[1] .

الملفت للنـظر أن القرآن الكـريم والروايـات الإسلاميـة قـد أشـارت إلى رابطة الزواج ، والعلاقات القانونية بين الرجال والنساء من مختلف الجهـات ، ووردت لكـل منها آيـة أو حديث أو عـدد من الآيات والأحـاديث ، نشير هنـا ، بصروة مختصرة ، إلى بعض منها :

الزواج وبقاء النسل :

الزواج والتناسل : إن المقاربـة بين الرجـل والمرأة هي الـوسيلة الطبيعيـة للتناسل . ويـولد الأبنـاء الطـاهـرون بصورة قـانونيـة عن طريق الـزواج وتشكيل العائلة ، والفراغ الذي يحدث نتيجة موت الجيل السابق يمتلىء بواسطة الجيـل الجديد ، ويحفظ البشرية من خطر الإنقراض والزوال .

﴿نسائكم حرثٌ لكم فأتوا حرثكم أنىٰ شئتُم﴾[2] .

﴿والله جعـل لكم من أنفسكم أزواجـاً وجعـل لكم من أزواجكم بنين وحَفَدة﴾[3] .

الآيتـان الكريمتـان تشيران إلى الـزواج من زاوية التكـاثـر فـالآيـة الأُولى شبهت نطفة الرجل بالبذرة التي هي مستعدة للنمو ، ورحم المـرأة بالأرض التي تستقبل البذرة لكي تنمّيها . والآية الثالثة ، بإشارتها إلى التكوين الإلّهي . تعتبر ولادة الأبناء نتيجة لاتصال النساء والرجال .

الزواج والمحبة :

رغم أن عملية الجماع بين الرجل والمرأة تشبع الغريزة الجنسية والحاجـة الـطبيعية لهمـا وتخمد الثـورة الـداخليـة عنـدهمـا ، فلو أن هـذه العمليـة تمت

(١) أفكار فرويــد ـ ص ٦٦ .
(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٢٣ .
(٣) سورة النحل ؛ الآية : ٧٢ .

بإحساس ومحبة ممزوجة بحرارة العشق فإن ذلك يبعث علىٰ دفء الحياة ، ويجعل رابطة الزواج لذيذة جداً ، وقد أشار القرآن الكريم إلى صداقة ومحبة النساء والرجال فقال :

﴿ومن آياته أن خَلَقَ لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾[١] .

الزواج والعفة :

مع انتهاء مرحلة البلوغ تزدهر الغريزة الجنسية ويخضع الشبان والشابات لجاذبيتها القوية . والغريزة العمياء التي تفتقر لأي شعور ، تطلب الإشباع بأي صورة كانت ، وقد يقع الشبان في خطر الإنحراف ، والزواج الدائم والمؤقت هو أفضل وسيلة طبيعية وقانونية لتلبية طلباتهم وحفظهم من الفساد والضياع ، ولهذا السبب فإن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة الإسلام يدعون المسلمين إلى الزواج وأداء هذه السّنّة المقدسة ويشجعونهم عليها .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباهَ فليتزوج فإنه أَغَضُّ للبصرِ وأحصنُ للفَرْجِ»[٢] .

الإسراع في الزواج :

روىٰ الإمام الصادق عليه السلام أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم صعد يوماً المنبر فَحمد الله تعالىٰ وأثنىٰ عليه ثم قال :

«أيها الناس إن جبرئيل أتاني عن اللطيف الخبير فقال : إن الأبكار بمنزلةِ الثمر علىٰ الشجر إذا أدرك ثمرُهُ فَلَمْ يُجتنىٰ أفسدتْهُ الشمسُ ونثرتْهُ الرياحُ ، وكذلك الأبكارُ إذا أدركنَ ما يدرِكُ النساء فليس لهن دواءٌ إلّا البعولةَ ، وإلّا لم يُؤمَنْ عليهِنَّ الفسادُ لأنهنَّ بشر»[٣] .

---

(١) سورة الروم ؛ الآية : ٢١ .

(٢) مكارم الأخلاق ص ١٠٠ .

(٣) الكافي ج ٥ ـ ص ٣٣٧ .

والقرآن الكريم اهتم بالزواج من حيث عفة الرجل والمرأة فقال : ﴿هُنَّ لباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنَّ﴾[1] . فاللباس يغطي القبائح ، ويستر العورات ، واللباس يقي الإنسان من الكثير من المسائل والعوارض .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «من أحبَّ أن يلقىٰ الله طاهراً ومُطهراً فليتعفف بزوجة»[2] .

ومجمل القول إن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم يدعو من جهةٍ أتباعه للحذر من الزنا وأي انحراف جنسي ، ومن جهةٍ أُخرىٰ يشجع ويؤكد على الزواج ، لدرجة يعتبر الزواج أحب السنن الإلهية في الدين الإسلامي :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «ما بُني في الإسلام بناءٌ أحبُّ إلى الله عز وجل وأعز من التزويج»[3] .

الزواج في الإسلام والكنيسة :

إن الإسلوب الذي اتبعته الكنيسة في مسألة الزواج يختلف تماماً عن تعاليم الإسلام . وقد اعتبر أولياء الإسلام[4] الكرام الزواجَ أمراً دينياً راجحاً وأن العزوبية أمر مذموم . وأما رجال الكنيسة فقد اعتبروا الزواج ، دينياً ، أمراً غير راجحٍ ولا مطلوب ، وأثنوا علىٰ العزوبية .

اعتبر أولياء الإسلام الزواجَ وسيلة لحفظ وصيانة الدين وعلامة للتقديس والتقوىٰ . بينما يرىٰ رجل الكنيسة أن العزوبية تقويةٌ للدين وتقديس روحاني .

اعتبر أولياء الإسلام الزواجَ من السنن الإسلامية المؤكدة ، وهم يدعون

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ١٨٧ .

(٢) مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٥٣٠ .

(٣) مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٥٣١ .

(٤) يستخدم المؤلف كلمة (أولياء) للدلالة على الرسول الأكرم والأئمة عليهم السلام وارتأينا أن نستخدمها نفسها [المترجم] .

المسلمين لأداء هذا الواجب المقدس . وتعتبر الكنيسة أن الزواجَ منافياً للتعاليم الروحانية وتدعو إلىٰ تجنبه .

وللتعرف أكثر فأكثر علىٰ أسلوب الإسلام وأسلوب الكنيسة في أمر الزواج نشير إلىٰ بعض أحاديث أولياء الإسلام ورجال الكنيسة .

اسلوب الإسلام :

عن عكاف بن وداعة الهلالي قال : «أتيت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال لي : يا عكاف ألك زوجة ؟ قلت : لا . قال: وأنت صحيح موسر ؟ قلت : نعم والحمد لله . قال: ويحك يا عكاف تزوّج تزوّج فإنك من الخاطئين ، تزوّج وإلّا فأنت من المذنبين ، تزوّج وإلّا فأنت من رُهبانِ النصارىٰ ، تزوّج وإلّا فأنت من إخوانِ الشياطين»[1]

عن الرضا عليه السلام : «إن امرأةً سألت أبا جعفر الباقر عليه السلام فقالت : أصلحك الله إني مُتبتِّلةٌ . فقال لها : وما التّبتل عندك ؟ قالت : لا أُريد التزويج أبداً . قال : ولِمَ ؟ قالت ألتمس في ذلك الفضل . فقال : انصرفي فلو كان في ذلك فضل لكانت فاطمة عليها السلام أحقّ به منك ، إنه ليس أحدٌ يسبقها إلى الفضل»[2] .

أُسلوب الكنيسة :

أُسلوب الكنيسة - «كان سان جيرم آخر سلسلة أولياء الله يقول دائماً بلهجة مؤكدة : لنقطع جذور شجرة الزواج بفأس العزوبية»[3] .

أُسلوب الإسلام - حرّم بعض صحابة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم مقاربة النساء ، وإفطار النهار ، ونوم الليل طلباً لتزكية النفس والسمو بالروح وكسب رضوان الله

---

(١) مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٥٣١ .

(٢) البحار ج ٢٣ص ٥١ .

(٣) الزواج والأخلاق - ص ٥٢ .

تبارك وتعالىٰ . فعلمت (أُم سلمة) رضوان الله عليها ـ فأخبرت الرسول الأكرم ﷺ بذلك : فخرجَ إلى أصحابِه فقال : «أترغبون عن النساء ؟ إني آتي النساء وآكل بالنهار وأنامُ بالليل ، فمن رغبَ عن سنتي فليس مني»(١)

الاسلام والعزوف عن المرأة :

إن هذا الحديث يؤكد صراحةً أن الزواج والمقاربة بين الرجل والمرأة من السنن الإسلامية ، وأن نبي الإسلام ﷺ يأتي النساء ويطلب من المسلمين أن يحذوا حذوه . ويعتبر عمل أصحابه باعتزال النساء عملاً خاطئاً وأنَّ مَنْ رغب عن سنّته ، وابتعد عنها ، فليس منه .

أُسلوب الكنيسة : إن بولس ، الذي هو من الشخصيات المسيحية الروحانية ، ومن أولياء الكنيسة ، له موقف يخالف التعاليم الإسلامية بالنسبة للزواج ، فهو لم يتزوج طوال عمرهِ ، ويعتبر هذا الأمر من المواهب الإلهية ، ثم إنه ، يطلبُ من النساء والرجال أن يحذوا حذوه وينصرفوا عن انتخاب الأزواج .

رسالة بولس :

« في الرسالة الأولىٰ لبولس إلى كنيسة كورنثوس جاء ما يلي :

١ ـ وأما ما كتبتم به إليَّ ، فخير للرجل أن لا يمسّ امرأة .

٢ ـ ولكن ، خوفاً من الزنا ، فليكن لكل رجل امرأته ولكل امرأة زوجها .

٣ ـ وعلىٰ الزوج أن يوفي امرأته حقَّها ، كما علىٰ المرأة أن توفي زوجها حقَّه .

٤ ـ لا سلطة للمرأة علىٰ جسدها ، فهو لزوجها ، وكذلك الزوج لا

---

(١) وسائل الشيعة ـ ج ٥ ص ٢ .

سلطة له علىٰ جسده فهو لامرأته .

٥ ـ لا يمتنع أحدكما عن الآخر إلاّ على اتفاقٍ بينكما وإلىٰ حين ، حتىٰ تتفرغا للصلاة ، ثم عودا إلىٰ الحياة الزوجية العادية لئلا يعوزكم ضبط النفس ، فتقعوا في تجربة إبليس .

٦ ـ أقول لكم هذا لا علىٰ سبيل الأمر بل علىٰ سبيل السماح .

٧ ـ فأنا أتمنىٰ لو كان جميع الناس مثلي ، ولكن لكل إنسان هِبَة خصَّه الله بها ، فبعضهم هذه وبعضهم تلك .

٨ ـ وأقول لغير المتزوجين والأرامل إنه خير لهم أن يبقوا مثلي .

٩ ـ أما إذا كانوا غير قادرين على ضبط النفس ، فليتزوجوا ، فالزواج أفضل من التحرّق بالشهوة»[١] .

«ويقول راسل بعد نقل كلام بولس : كما ترون فإن بولس في هذه القطعة لا يشير أقل إشارة إلى الأطفال ، ويظهر أن الهدف البيولوجي ، في رأيه ، لا أهمية له مطلقاً .» .

«ثم يقول : إن كلام بولس مبنيٌّ على أن إيجاد أي نوع من العلاقة الجنسية ، حتى في حدود الحياة الزوجية ، هو شيء سيِّء ومؤسف . ولا شك أن الأشخاص الأصحاء يعتبرون نقل هذا الرأي المخالف للحقائق البيولوجية ، صادر عن عقل إنسان مريض ، ولا شيء آخر .»[٢] .

---

(١) الكتاب المقدس ـ اتحاد جمعيات الكتاب المقدس ـ ١٩٧٨ ـ طبعة كوريا الأُولى ص ٤٢٤ [المترجم] .

(٢) الزواج والأخلاق ص ٤٦ ـ ٤٩ .

الزواج والقدسية الدينية :

أُسلوب الإسلام : الدين الإسلامي ينفي وجود أي تناقض واختلاف بين الزواج والقدسية الإيمانية ، كما أن سعادة الإنسان تكمن في الحصول علىٰ الزوج أو الزوجة الطاهرة . وأن هذا الأمر إحدىٰ الوسائل لحفظ الدين للأشخاص المؤمنين . ويؤكد أن عبادة المتزوجين هي أقرب إلىٰ الله من العزّاب .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «من سعادة المرء الزوجة الصالحة»[1] .

عن أبي عبدالله ، الصادق ، عليه السلام قال : «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : مَنْ تزوج أحرز نصف دينه»[2] .

وقال عليه السلام : «ركعتان يصلّيهما المتزوج أفضل من سبعين ركعة يصليها أعزب»[3] .

الكنيسة ونظرية بولس :

أُسلوب الكنيسة خلافاً لما جاء في التعاليم الإسلامية ، يرىٰ رجال الكنيسة أن الطهارة والقدسية موجودة في العزوبية ، ويعتبر أتباعهم أن العمل الجنسي عمل شرير ، وأن الزواج يبعث على السقوط المعنوي وانحطاط الشؤون الروحية .

«سلكت الكنيسة الأولىٰ ، تمسكاً بنظريات بولس ، طريق التفريط في الغريزة ، لدرجة أن العزوبية اكتسبت مفهوم القدسية ، حتى هام الرجال نحو الصحارى ليحاربوا (الشيطان) ، بينما كان الشيطان نفسه يملأ أذهانهم بالأوهام الشهوانية»[4] .

---

(١) الكافي ج ٥ ـ ص ٣٢٧ .
(٢) الكافي ج ٥ ـ ص ٣٢٩ .
(٣) وسائل الشيعة ج ٥ ص ١ .
(٤) الزواج والأخلاق ص ٤٩ .

«أما الأشخاص الشرفاء ، في القرون الوسطىٰ ، فإنهم كانوا يعتبرون أن هذه اللذة الغريزية هي نتيجة الخطيئة الأولىٰ ، وبما أنها كانت كذلك ، فإنهم كانوا يكرهون الميول الجسمية ، ويرون السعادة والطهارة المحضة في الأفكار المتسمة بالعزلة بعيداً عن أية شائبة جنسية»(١) .

«يذكر وستر مارك مواقف كثيرة عن الخطيئة ، والتمرد علىٰ الزواج ، والعلاقات الجنسية ، فهو يقول : في بعض النقاط البعيدة عن تأثير ونفوذ أديان بوذا والسيد المسيح عليه السلام كان هناك دائماً كهان يعتزمون عدم الزواج ، كما أن فرقة (حسيديم) وكذلك في أوساط اليهود حيث تعتبر طائفة (حسيديم) جميع العلاقات الجنسية قبيحة وقذرة»(٢) .

خطأ الفلاسفة :

لسوء الحظ ليس فقط أتباع الكنيسة وبعض الأديان وحدهم اعتبروا الزواج وإشباع الغريزة شراً ، وإنما في الماضي وقع الكثير من الحكماء والفلاسفة في هذا الخطأ وأدانوا الغرائز . في نظرية علمية ، واعتبروها سداً أمام رقي وتكامل البشر .

«يقول إدغارپش أستاذ الفلسفة وعلم النفس : إن أكثر الفلاسفة وعلماء الأخلاق ، قبل فرويد ، أدانوا الغرائز أي أنهم اعتبروها ، بصراحة أو بالإشارة ، عوامل تربط الإنسان بالخصائص الحيوانية . وكانوا بالتأكيد يعتقدون أن الوصول إلى الحضارة يتم فقط بالمكافحة الدائبة للغرائز ، وكانوا يسمونها (الأرواح الحيوانية الحقيقية) . بعبارة أخرىٰ فإن هؤلاء المفكرين كانوا يقولون : إن الغرائز تمنع تكامل البشر ، وكان من الممكن في غيابهاإيجاد حياة

(١ ـ٢) المصدر السابق ص ٣٨ و ٦٤ و ٦٨ .

اجتماعية مناسبة ومنسجمة»[1] .

اسلوب الافراط والتفريط :

إن أتباع حرية الغرائز ، وفرويد وأتباعه أيضاً ، سلكوا طريقاً خاطئاً حول الغريزة الجنسية . وابتعدوا عن الواقع تماماً كأولياء الكنيسة ومجموعة من فلاسفة الغرب ، مع اختلاف أن زعماء الكنيسة وأتباع أفكارهم سلكوا طريق التفريط بالنسبة للعلاقات الجنسية ، وقمعوا الغرائز وحددوها بحدود وقيود غير منطقية ، ومنعوا أتباعهم ، خلافاً للمصلحة العامة ، من التمتع باللذائذ الطبيعية المشروعة . كما أن أتباع حرية الغرائز اعتبروا القيود الأخلاقية والقانونية ، في حياة الإنسان ، زائدة وتركوا العنان للعلاقات الجنسية ، وإثر هذا الإفراط ، الذي تجاوز المصلحة العامة ، دخلوا المنطقة الممنوعة ، وبالنتيجة ساقوا أتباعهم إلىٰ الإنحراف والشرور والفساد .

ونظراً إلى أنّ أكثر الشعوب الأُوروبية والأمريكية كانوا من أتباع الكنيسة وتحملوا علىٰ مدىٰ قرون عديدة حرمان العلاقات الجنسية أو محدوديتها ، ربما أمكن القول إن الإفراط في الشهوة والحرية غير المحدودة في العلاقات الجنسية ، التي سادت منذ مدة هناك في عالم الغرب ، إنما هو انعكاس لتلك التحريمات والصعوبات التي وضعوها في الماضي أمام هذه المسألة .

فرويد ونظرية الافراط :

«يشير ستيفن زفايغ إلى احتمالٍ في نظرية فرويد الإفراطية حول إطلاق الحرية للغريزة الجنسية ، ويقول : من المحتمل أن فرويد قد أعار أهمية كبيرة للغريزة الجنسية تتجاوز الحقيقة وكذلك لسيطرة هذه الغريزة في جميع شؤون الحياة النفسية للبشر ، فسلكوا بذلك طريق الإفراط . ولكن يجب أن لا ننسىٰ أن فرويد قد بدأ تعاليمه في عصر كانت الغريزة الجنسية مهملة بنحو عام ،

---

(١) أفكار فرويد ص ٥٠ .

وكانوا ينظرون إليها علىٰ اعتبار أنه لا أهمية لها . إذن فإفراط فرويد ، في الحقيقة ، ردة فعل بالنسبة لمعتقداتِ زمنه ، وإذا كان قد أفرط في هذه المسألة فلأنه أراد أن يحطم سداً عظيماً أمامه»[1] .

بما أن فرويد وأتباعه هم من حماة نظرية إطلاق الحرية للغرائز فإننا سنتطرق هنا ، ولمعرفةِ نظرية إفراط هذه المجموعة ، إلى بعض الأقسام من حديث فرويد كما نشير إلى بعض الانتقادات الموجهة من العلماء إلى أفكاره :

فالغرائز قوىٰ محركة ، خُلقت في الإنسان بحكمةٍ إلهية ، علىٰ أساس الإحتياجات المحتلفة للحياة ، وتبرز ، طبقاً لظروف الحياة ، بالتدريج وتخرج من مكمنها كقوة فاعلة ، وهي ، بنظر العلماء ، كثيرة ، ولكل غريزة دور مستقل ، ولكن ، من حيث الوجود ، يعتبر (غريزة حب الذات) و (الغريزة الجنسية) هما الغريزتين الأساسيتين ، وبقية الغرائز ترتبط بواحدة منهما ، بصورة من الصور :

غريزتان أساسيتان :

«ما هي الغرائز المختلفة ؟ يجب الإجابة بالفرض على هذا السؤال وقد اقترح فرويد الفرضيات التالية :

في البدء (غريزة البقاء) التي تحفظ النفس ، ثم (غريزة الجنس) التي تتحمل من حيث البيولوجيا ، مهمة بقاء الجنس البشري» [2] .

«واستنتج فرويد بالتعمق ، بهذه المسألة أنه يجب الإهتمام فقط بالغرائز البدائية التي تتعلق بعمل بيولوجي ، وتحليل أكثر من ذلك غير ممكن . وهكذا فإنه يقسم الغرائز إلى قسمين :»

---

(١) كتاب فرويد ـ ص ٧١ .

(٢) فرويد والفرويدية ـ ص ٢٨ .

أولاً : الغرائز التـي تتعلق بحفظ الذات .

ثانياً : الغرائز الجنسية[1] ،

لقد وسّع فرويد من محيط فعالية الغريزة الجنسيـة ، بكلامِـهِ ، وجعل من مسألة (الجنس) أساساً لمدرسته، وفسّر ذلك بشكل واسع ، واستنتج أن الكثير من (الفطرة) والغرائز الإنسانية المستقلة إنما هيَ من مشتقات الغريزة الجنسية . والأهم أن فرويد اعتبر هذه الغريزة أساساً للحضارةِ والثقافة الإنسانية .

القاعدة الأساسية للحضارة :

«يجعـل فـرويـد مسـألـة الجنس شـاملة للكثيـر من العـواطف والإحساسات الإنسانية . ويعتبر معظم النشاطات ، التي كانت في السـابق تُعتبرُ على أنهـا غيـر جنسيـة بـأنهـا تنشـأ عن الجنس وأن الأمومة ، ومحبة الأبناء ، والأخـوة ، والصداقـة ، إنـما هي بنـظر فرويد مشتقة من (الجنس) ، وأن علاقات الأم بأبنـائها ، والأستـاذ بتلاميذه ، وبشكل عام جميع العلاقات الإجتماعيـة بين الأشخاص إمـا أن تكون ذات خصيصـة جنسية ، أو أن لهـا جـذور جنسيـة . وكذلك مسائل الجمال وعلم الجمال والإبداعات الفنية ، والأعمال الشعرية العظيمة الخـالدة ، وكـذلك في مجـال الأدب . كلها لهـا عوامل جنسية ، أو أنها نشأت من (الجنس)» [2].

« اعتبـر فـرويـد وأتبـاعـه ، بتعميم مسـألـة الجنس ، أن الغـريـزة الجنسيـة هي أساس الحضـارة والثقافـة وجميع الأفكـار الإنسـانيـة والتغييـرات الإجتمـاعيـة ، وسعـوا إلى حـل جميـع المسـائـل الإجتماعية والتاريخية عن هذا الطريق»[3].

---

(١) أفكار فرويد ـ ص ٤٧ .

(٢) المصدر السابق ـ ص ٥١ .

(٣) علم النفس لفرويد ـ ص ٢٠ .

نقد نظرية فرويد :

لقد اعتبر الكثير من العلماء والمحققين نظرية فرويد حول الغريزة الجنسية غير صحيحة وغير واقعية ، وانتقدوها بشدة من وجهة النظر النفسية والإجتماعية ،

«معارضو فرويد اعتبروا نظريته حول (الجنس) مخالفة للحقيقة . فهم يقولون : من الناحية النفسية لا يجب الغلوّ في أهمية الغريزة الجنسية إلى هذه الدرجة ، واعتبار جميع مظاهرنا النفسية متعلقة بالغريزة البهيمية»[1] .

«أحد كبار العلماء يقول في كتابه حول عدم أولوية الغريزة الجنسية : إن تحقيقاً بعيداً عن التعصب يدل بشكل مقنع ، أن الغريزة الجنسية ، في الحقيقة ، ليست هي المحرك للأخلاق وتصرفات البشر ، بل إن شخصية الإنسان تظهر للوجود بواسطة شروط تاريخية ، والبيئة الإجتماعية هي التي تعيّن أشكال المظاهر الغريزية»[2] .

الطفل وغريزة اللذة :

يعتقد فرويد أن طلب اللذة التي تنبع من (الجنس) لا تقتصر علىٰ البالغين ، وإنما توجد هذه الغريزة في كافة مراحل الحياة ، ولهذا الدافع يمتص الأطفال الصغار ثدي الأم ، وكذلك يلتذّون بعضّ إصبعهم أو قطعة قماش أو أي شيء آخر .

إنّ الأطفال في بداية حياتهم ، يلتذون بحرية بأيّ شيء يعجبهم ، لأنهم في هذه المرحلة لا يرون أنفسهم مقيّدين بأية قوانين طبيعية ، أو قيود

---

(١) كتاب فرويد ص ٧٠ .
(٢) علم النفس ، فرويد ص ٢٣ .

أخلاقية واجتماعية ، ولكن لن تدوم هذه الحرية طويلاً حتى تنتهي مرحلةُ حريتهم وتحددهم قيود ، وكلما كبروا أصبحوا أكثر تقييداً لأن القوانين الطبيعية ، والأصول الأخلاقية ، والضوابط الإجتماعية ، والتعاليم الدينية ، والعادات والتقاليد العامة لا تسمح لهم بالانطلاق في اللّذة بحرية ، بل إنهم يتمكنون من الحصول علىٰ اللّذة طبقاً للموازين الطبيعية والقانونية .

التقيد بالضوابط :

إن الأشخاص الذين ينسجمون مع قرارات الخَلْق ، ومعايير المجتمع ويستخدمون قواهم الجنسية في المسار الطبيعي والقانوني ، فإنهم يمتازون بوجدان هادىء وضمير مطمئن ، وهؤلاء يتمكنون من أن يمضوا عمرَهم براحة مع سلامة المعنويات وراحة البال .

وعلى العكس من ذلك فإن الأشخاص المصابين بانحرافٍ جنسي ، ويميلون إلىٰ الأساليب غير القانونية والأخلاقية ، ولا تسمح لهم الظروف الإجتماعية بالإنطلاق بحرية إلى هذا النوع من الإشباع ، هؤلاء يبتلون بالقلق الروحي والنفسي ، وتتراكم في بواطنهم الميول المنبوذة والفشل ، وبالتدريج يصابون بالأمراض النفسية والعصبية .

«الغرائز هي مخزن الطاقات الروحية والحياتية للإنسان وتحظىٰ (اللبيدو) بينها ، من حيث القوة والقدرة ، بمكانة مهمة . والإنطلاق بحرية لأغلب هذه الغرائز لا ينسجم مع الظروف والأوضاع والأحوال الإجتماعية وبصورة عامة فإن جميع الحضارات بمختلف درجاتها ، استخدمت مؤسساتها وتشكيلاتها العائلية والإجتماعية لكبح الغرائز منذ بداية الحياة»[1] .

«ويأتي هذا السؤال : ما هي الميول المكبوتة ؟ هل تزول وهل تتوقف ؟ أمْ أنها تكمن في زاوية من الضمير الباطني ؟ .

---

(١) أفكار فرويد ـ ص ٥٥ .

الضمير الباطني :

نستطيع القول بجزم وصراحة : إنها لن تزول ، بل أيضاً تنمو وتستمر في حياتها في الباطن . إن العوامل التي تمثل قيوداً وتقاليد اجتماعية أو أخلاقية تمنع ظهور تلك الميول ، ولها تأثير يؤدي إلى بعض الأعراض النفسية يجهلها الإنسان بصورةٍ من الصور . وفي بعض الأحيان تكون هذه الأعراض شديدة بحيث تجعل الإنسان يفقد اتّزانَهُ وتعادله . بعبارة أُخرىٰ إن الرغبات الممنوعة ، التي تعتبر السبب الرئيسي للميول المكبوتة تُغير أشكالها وتصبح كأعراض مرضية ، ونحن نسميها أمراضاً عصبية»[١] .

فرويد والميول المكبوتة :

تمثل الرغبات أو الميول المكبوتة أساس الأبحاث النفسية لفرويد ، فهو يعتقد ، أنه عندما تُكبت الميول والرغبات الجنسية بفعل القيود الإجتماعية أو العوامل الأُخرىٰ ، فإنها تكمن في الضمير الباطني وتحدث ، بضغوطها الشديدة ، اختلالات نفسية ، وتُصيب الإنسان بالأمراض النفسية والعصبية .

«يستنبط فرويد أن الأمراض العصبية تنتج عن عدم إشباع رغبة شهوانية ، ولهذا بقيت مكبوتة في باطن الشخص ، وبالتدريج تؤثر في قوة الإنسان الفاعلة»[٢] .

برأي العلماء أنه من الممكن أن تكون هناك عوامل كثيرة سبباً للأمراض النفسية والعصبية ، وأحد تلك العوامل هو الفشل الجنسي والرغبات المكبوتة . ولكن فرويد يسلك طريق المبالغة ويقول : إن سبب الأمراض النفسية هو فشل إشباع الرغبات الجنسية وكبت الغرائز .

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥ .
(٢) كتاب فرويد ـ ص ٥٩ .

منشأ الأمراض النفسية :

«يعتقد فرويد أن جميع أنواع وأقسام الإنحرافات وعدم التعادل النفسي ، يبدأ من الغريزة الجنسية ، وعلى المعالج النفسي أن يلمَّ بجميع ماضي الشخص»(١) .

«عندما يواجه طبيب بأي خلل نفسي ، ولو جزئياً ، فإنه يستطيع بشكل مؤكد أن يقول إن أمراً غريباً وغير طبيعي قد أصاب جهاز الغريزة الجنسية والرغبات الشهوانية . »(٢) .

كما أشرنا فإن فرويد اعتبر غريزة الصداقة وحب الذات كالغريزة الجنسية ، وأنها أصيلة وأساسية ، ولكنه لم يُشِر إلى الفشل في هذه الغريزة ، ولم يحسب حسابها في عوامل إيجاد المرض النفسي ، رغم أن كبت غريزة حب الذات أيضاً يمكنه أن يكون ككبت الميول والرغبات الجنسية منشأً للإختلالات النفسية .

مثلاً فتاة شابة تصاب بالعمىٰ وفقدان جمالها إثر انفجار مصباح غاز سائل ، وبهذه الحادثة فإن غريزة حب الذات تتحطم ، ومن الممكن أن تصاب بصدمة نفسية من شدة حالات القلق والاضطراب .

أو شاب تقطع يده تحت آلة ، فتتحطم لديه غريزة حفظ النفس ، ومن الممكن أن القلق الفكري وعدم الاستقرار يسلبان الراحة لديه ويصل إلىٰ درجة الجنون .

نظرية فرويد لا أساس لها :

من الواضح أن فقدان البنت لبصرها والشاب ليده قد سبب لهما اختلالات نفسية لا ارتباط لها بأي شكل من الأشكال بالغريزة الجنسية ، ولكن

---

(١) كتاب فرويد ص ٦٢ .

(٢) كتاب فرويد ص ٦٩ .

طبقاً لقول فرويد : (عندما يواجه طبيب أي اختلال نفسي ، ولو جزئياً ، فإنه يستطيع بشكل مؤكد أن يقول : إن حادثة غريبة وغير طبيعية قد حدثتْ في جهاز الغريزة الجنسية والرغبات الشهوانية) ، فإن الطبيب المعالج مجبر على القول بأن مرض الشابة والشاب مرض نفسي ناتج عن الغريزة الجنسية ، وأنه يجب معالجتهما عن الطرق النفسية بمعرفة ميولهما الجنسية المكبوتة .

أحِد المواضيع غير الواقعية في فرضية فرويد أنه يعتبر أن الغريزة الجنسية والرغبات المكبوتة سبب جميع الأمراض النفسية ، إن هذا الرأي مرفوض من قبل علم النفس ، وغير صحيح ، والكثير من العلماء انتقدوا نظرية فرويد لهذا السبب .

«معارضو فرويد ، يقولون من وجهة نظر علم الطب : لماذا شخّص فرويد أن سبب جميع العلل في الإنحرافات النفسية ، هو اختلال الغريزة الشهوانية ، وبدأ معالجتها من هذا المبدأ ؟ إن الخطأ الكبير الذي وقع فيه فرويد أنه اعتبر أن جميع الإختلالات النفسية والعصبية ناتجة عن التحولات غير المتعارفة للغريزة الجنسية ، وبالنتيجة فإنه لا يهتم أبداً بالعوامل المادية والإقتصادية والإجتماعية لكل شخص في ظروفه الزمانية والمكانية ، التي من الممكن أن تكون سبباً للأعراض النفسية . مثلاً يمكن أن يصاب عامل باضطرابات نفسية نتيجة البطالة والفقر وجوع أُسرته ، فنلاحظ **أولاً** : إن الأعراض النفسية ليس مصدرها الغريزة الجنسية ، **ثانياً** : إنها ترتبط بالزمن الحاضر والماضي القريب ، وليس الماضي البعيد وعهد الطفولة ، **ثالثاً** : إن مجرد اطلاعه على سبب قلقِهِ واضطرابِهِ النفسي لا يُعيدُ إليه سلامته واعتداله النفسي ، ومن الطبيعي أن عثوره على عمل وحصوله على الدَخْلِ الكافي سيكون مؤثراً جداً في إزالة ما به من أعراض»[١] .

---

(١) علم النفس ، فرويد ـ ص ٢٢ .

لقد اعتبر فرويد الغريزة الجنسية مهمة جداً ، فبنىٰ مدرستَـهُ على أساسِ اللذة والحرية الجنسية ، إنه بكلماتِه قد أطلق على القوة الجنسية المحركـة إسم ليبيدو (Libido) ، واعتبرها أكبر عامل للإرضاء واللذة النفسية في حياة البشر .

السعادة في رأي فرويد :

إن السعادة والهناء لأي إنسان ، في رأي فرويد ، يتعلقان بكيفية استهلاك الليبيدو الفردية واللذة المكتسبة عن هـذا الطريق . الـطريف أن فرويـد وقع في خطأ كبير بالنسبةِ لـلإرضاء واستهـلاك القوة الجنسيـة (الليبيدو) ، وسلك طـريق المبالغة ، حتىٰ إنه استخدمَ حكمة (السعادة) فيما يخص استعمال المخدرات ، واستحصال اللّذات المضرة وضد المصلحة العامة .

«يعتقـد فـرويد أن الغريـزة الجنسيـة هي الجـوهـرة الأُولىٰ للحيـاة وأعمق وأشـد الغرائـز النفسية في الشخصيـة الإنسانيـة ، فكما أن الجسم بحاجة غـريزيـة للطعام ، فـإن النفس أيضاً تـطمح للتنعمِ الشهوي ، ويمثل هذا التنعم الشهوي والغريزة الأساسية (الليبيـدو) العطش الذي لا يمكن إرواؤه»[١] .

كيفية استهلاك الطاقة الجنسية :

«وبعـد أن يحلل فرويـد الأساليب الأسـاسيـة التي يسلكهـا النـاسُ بهدف الوصول إلى السعادة ، يشرح نظرياته هكـذا :

إن السعادة ترتبط بمسـألة واحـدة ، وهي كيفية استهـلاك الليبيدو الفـردي ، وهنا لا تفيد نصيحة أي شخص ، بـل على كل شخص أن يسلك الطريقة التي يسعـد بواسـطتها . والسعـادة ترتبط بمـدىٰ راحة البال التي يتوقعها الإنسان»[٢] .

---

(١) كتاب فرويد ـ ص ٦١ .
(٢) أفكار فرويد ـ ص ١٠٨ .

«حسب قول فرويد إنّ المواد المخدرة ، التي تؤمّن السعادة وتـزيل آثـار الفشل ، تحـظى بمكـانـةٍ خـاصـة ومهمـة ، لـدىٰ الأفـراد ، لاستهلاك الليبيدو لديهم»[1] .

انتقاد فرويد للدين :

إن فرويد الذي يرىٰ سعادة كل إنسانٍ في انطلاقِهِ بحرية في استهلاك قواه الجنسية ، فإنه ضمن كلامِهِ هاجم الضوابط الدينية والقوانين المدنية وانتقـدها ، فهو يقول : إن الدين والحضارة حـاجزان أمـام حريـة الغريـزة الجنسية ، وهـذه المحدودية تقلل من قيمة الحياة وتوجه ضربة لسعادة الإنسان .

«يقـول الأُستاذ الفـرنسي إدغـارپش : إن الانتقـاد الشـديـد الـذي يوجهه فرويد إنما هو للدين ، لأنه يعتقد أن الدين لا يعرف قيمـة الحرية . ويكتب ما يلي بهذا الصدد» :

«إن الـدين يوجـه ضربـةً لمـوضـوع التـطبيـق والاختيـار ، لأنـه للوصول إلى السعادة وللإبتعاد عن الآلام ، يضع أمام الناس طرقـاً متشابهة . إن فن أو تكتيك الدين هو تقليل لقيمة الحياة»[2] .

انتقاد الحضارة :

«ويقول الأُستاذ الفرنسي حول انتقـاد فرويـد للحضارة : لا يعتقـد فرويد فقط بأن الحضارة تقمع الغرائز ، بل إنه يعتقد أن ذلـك يتم بـإفراط ، ولهـذا السبب فـإنـه يتهم الحضـارة بشـدة لأنهـا تحـول دون إشباع الغرائز الجنسية بأساليب عنيفة وغير صحيحة ، وتضع المصاعب أمامها أكثر من الحد اللازم . إن انتخاب موضوع من قبـل شخص بـالغ ينحصـر بـالجنس الآخـر ، وإن أغلب المـوافقـات الجنسيـة الناتجة عن إشباع الجنس خارج إطار التنـاسل تعتبـر مانعـاً وتؤدي

---

(١) أفكار فرويد ص ١١٣ .

(٢) المصدر السابق ـ ص ١١٤ .

إلى الفساد والضياع» .

«والشيء الوحيد الذي لا زال حراً ولم يتعرض للمنع لحد الآن هو (حب الجنس الآخر) ، وعمل التناسل الذي يخضع هو الآخر للمحدوديات ، لأنه **أولاً** : يجب أن تكون العلاقة مع الجنس الآخر مشروعة ، **ثانياً** : يجب على كل شخص الاكتفاء بشخصٍ واحد من الجنس الآخر»[1] .

إن الإنسان ، وبسبب الجاذبية الغريزية ، يعشق الحرية الجنسية واللذة والمتعة ، ولكن حفظ الحياة الإجتماعية والوصول إلى التكامل المعنوي يتطلبان تحديد غرائز الإنسان ، وإشباعها في حدود المصلحة الفردية والإجتماعية .

بالشرح الذي تقدم عرض فرويد موضوعين غير صحيحين ضمن نظريتهِ ؛ **الأول** إنه قال إن سعادة كل شخص تكمن في إرضائه وكيفية استهلاكه لقواه الجنسية بحرية . **والثاني** : إنه اعتبر أن الإرضاء الحر للرغبات الجنسية شرط أساسي لسلامة النفس ، وصَرَّحَ بأنّ جميع الأشخاص الذين يصابون بأمراض نفسية إنما يكون ذلك إثرَ كبت غريزة اللذّة وكبح جماح الميول الجنسية لديهم .

أضرار نظرية فرويد :

لقد أضفىٰ فرويد على نظريتِهِ في الشهوة والحرية الجنسية ، صبغةً علمية وطبية . لقد أحدثت نظريته التي توافق الطبع الحيواني وتنسجم مع طلب اللذة والشهوات ، أحدثت ضجةً في عالم الغرب ، وأثّرت في الأفكار العامة ، وجذبت إليها الكثيرين من الجيل الشاب ، مما وجه صفعة للعفاف الأخلاقي والتعاليم الدينية من جهة ، ومن جهةٍ ثانية تزلزلت القيم القانونية في نظر الناس ، وبالتدريج منحت الحكومات بموجب قرارات جديدة حريات للناس تجاوزت حدود المصلحة العامة .

---

(١) أفكار فرويد ـ ص ١٢٨ .

في الحقيقة كانت نظرية فرويد بمثابة الغرسة السامة التي انغرست في أفكار الناس ، وسُقيت على مدى عشرات السنين بأقلام المؤمنين بتلك النظرية ، وقد أعطت هذه الغرسة ثمارها في بعض النقاط ، ولكن مع الأسف كانت الثمار مرّة وقاتلة .

وفي السنوات الأخيرة حقق بعض الشبان ، في أمريكا وأُوربا ، نظرية فرويد ، وعملوا وفقها ، فأزالوا جميع الموانع أمام رغباتهم الجنسية وتركوا جميع القرارات الدينية والقانونية والأخلاقية ، وكذلك جميع التقاليد والآداب الإجتماعية ، ولإرضاء وإشباع غرائزهم الجنسية بحرية والحصول على اللذات المختلفة قطعوا جميع القيود ، واجتازوا جميع الحدود والموانع ، وحصلوا على كل ما كانت تتوق إليه نفوسهم . وخلافاً لنظرية فرويد لم يحصلوا على السعادة والتوفيق بل أصبحوا نموذجاً للبؤس والتعاسة ، والسقوط في مستنقع الفساد .

شعار حرية الحب :

«إن الفئات التي كتبت على العَلَم شعار (حـ ية الحب) تبدلت إلى كائنات ذات قيم ضائعة ، ولوحظ بينهم وجود من يقوم بالعمليات الجنسية على مختلف أنواعها ، كعلاقة الرجل بالمرأة ، والرجل بالرجل ، والمرأة بالمرأة ، وحتى الأعمال الجنسية الجماعية فالعلاقات الجنسية لديهم مباحة في كل مكان ، في وضح النهار في المنتزهات ، تحت الأشجار ، أو أي مكان آخر ، لا يهم بالنسبة لهم ، حتىٰ ولو كان أمام الناس .

كتبت مجلة نيوريفيو (Neuerevue) في عددها الثاني عشر لشهر نوفمبر ١٩٦٧ : يتبدل فردوس الحرية ، بالنسبة للفتيات بسرعة إلى جحيم ، لأنهن ولكي يستمررن في الحياة ، خاصةً في سبيل الحصول علىٰ المخدرات ، يُجبَرنَ علىٰ الفساد ، وفي هذه الحالة ، فإنهن لن يقدرن ، بما كن يتوقعن من نظرية (حرية الحب) أن يجدن الشخص المطلوب ، وإنما يجبرن على الرضوخ لكل ما يستجد ، ولكي يتحملن مثل هذا الوضع فإنهن يشعرن

بحاجة ماسّة للمخدرات ، وللحصول عليها يحتجن إلى رجال آخرين .

الأمراض الجنسية :

إن الأمراض الجنسية بين هذه المجموعة شائعة ويومية ، فالسفليس والسَيَلان منتشران بينهم بشكل فظيع ، ولكن أكثرهم يهملهما ، حتىٰ إنهم لا يراجعون المستشفيات للمعالجة لأنهم يعتقدون بأنهم يعيشون لليوم ولا يفكرون في الغد ، ويولد في مراكز هؤلاء ، كل يوم ، أطفال يحملون الأمراض الجنسية .

المركز الرئيس لهذه المجموعة يقع في سان فرانسيسكو . وقد ازدادت الأمراض الجنسية بينهم خلال السنتين الأخيرتين ستة أضعاف . وفي لوس أنجلس تبلغ نسبة الأمراض الجنسية لدىٰ هذه المجموعة ستة أضعاف ما لدىٰ بقيّة سكان المدينة .

وبناءً علىٰ تصريحات (روبين لوكار) المستشار في دائرة صحة لوس أنجلس ، أن نسبة إصابة أي واحد من هذه المجموعة ، التي تجعل من (حرية الحب) شعاراً لها ، بأمراض السفليس والسيلان أو بالاثنين معاً هي ١٠٠٪»[(١)] .

جريمة وحشية :

«ربما اطلعتم علىٰ مأساة الآنسة (ليندا باتريك) البالغة ١٨ عاماً ، والتي اغتُصبت أربع مرات ، في نوفمبر ١٩٦٧ خلال حفلة مخدرات ، في طابق تحت الأرضِ لمحل يقع في مدينة نيويورك ، وبعد الإعتداء عليها قُتلت بشكلٍ وحشي . وقد قال موظف لجنة الجرائم في نيويورك : إنها أكثر الجرائم التي رأيتها وحشيةً»[(٢)] .

---

(١) الهيبية ـ ص ٣٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٣ .

قال علي عليه السلام : «مَنْ تَسَرَّعَ إلى الشهواتِ تَسرَّعَ إليهِ الآفاتُ»(١) .

وعنه عليه السلام : «وَلوعُ النفس باللّذاتِ يُغْوي ويُرْدي» (٢) .

«إن الإنسان المنحل أخلاقياً ، لا يشبه أبداً نسـراً يحلّق في السماء الواسعة ، وإنما يشبه الكلب الهارب من مسكنه ، وتسوقُهُ الصُّدف إلى زحام السيارات فيهرب من هنا وهنـاك ، ولا شك أنـه كالكلب يستطيع أن يتصرف علىٰ هواه ، وأن يذهب أينما يـريد ولكنـه أينما يـذهب يضيع ، لأنـه لا يعرف إلى أين يـذهب وكيف يحفظ نفسه من الأخطار التي تواجهه»(٣) .

أكبر عوامل التعاسة :

إن اتباع الأهواء والاندفاع في الشهوات والميول النفسية دون قيد أو شرط هو من أكبر عوامل تعاسة الإنسان . وقد أشـار إلى ذلك الـرسول الأكـرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأطهار عليهم السلام في روايات كثيرة ، وحذّروا أتباعهم منه .

قـال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إنّ أخـوَفَ ما أخـافُ علىٰ أُمتي الهـوىٰ وطـولُ الأمل»(٤) .

وقال الإمام الجواد عليه السلام : «مَنْ أطاع هواه أعطىٰ عدوَّهُ مُناهُ»(٥) .

وقال الإمام الجواد عليه السلام : «طوبىٰ لمن غَلَبَ نفسَهُ ولم تغلِبْهُ ، ومَلَكَ هواهُ ولم يَمْلِكْهُ»(٦) .

---

(١) غرر الحكم ص ١٨٨ .
(٢) غرر الحكم ص ٧٨١ .
(٣) طريق الحياة ؛ ص ١٣ .
(٤) سفينة البحار ج ٢ مادة(هوى) ص ٧٢٨ .
(٥) بحار الأنوار ج ١٧ ـ ص ٢١٤ .
(٦) غرر الحكم ـ ص ٤٢٧ .

الأنبياء وقيادة الناس :

جاهد الأنبياء طوال القرون والأعصار ، وبكل ما لديهم من قدرةٍ ، ليهدوا الناس إلى طريق عبادة الله تبارك وتعالى والقيام بواجبهم الإنساني ، وتعليمهم طريق تزكية النفس . وقد استطاع أُولئك الذين نشأوا في مدرسة الأنبياء أن يتغلبوا على أهوائهم بقوة الإيمان والأخلاق ويسيطروا على غرائزهم الجامحة وأن يحددوا أهواءهم النفسية في حدود المصلحة العامة ، ولكن عالم اليوم ارتكب خطأً فاحشاً باسم الحرية ، فحطم حدود المصلحة ، وهيأ أرضية التمرد وطغيان الغرائز ، وأنزل الإنسان من ذروةِ الفضائل الإنسانية إلى حضيض الشهواتِ الحيوانية .

الحرية غير الملائمة :

«يقول الدكتور كارل : كل إنسان يسعىٰ للحصول على حياةٍ وفق هواه ، وهذه رغبة فطرية لدىٰ الإنسان ، ولكنها لدىٰ الشعوب الديمقراطية اشتدت دون مبرر ووصلت إلى حدِّ الضرر . وفلاسفة قرون الازدهار في أُوروبا وأمريكا هم الذين بذروا بذور مثل هذه الحرية المطلقة ، وسخروا باسم المنطق ، من السنن والأُصول ، واعتبروا كل إلزامٍ بأنه غير معقول ، ثم انتقدوه ، ومن هنا بدأت الحرب ضد المبادىء التي تركها لنا القدماء والتي كنا نتبعها في حياتنا ، ونتمسك بها بمساعدةِ أخلاقِنا الدينية»[١] .

إن الإفراط في اللذة والشهوة لا يُوجه ضربة لأساسِ الإنسانية ويُوقِف سمو النفس والتكامل المعنوي فحسب ، بل إنه يُصيب الحياةَ المادية بالاختلالِ والاضطراب ، فيدبُّ عدمُ التفاهم والمشاجرات في العائلة والمجتمع ، ويُحدثُ مصائب كبيرة لا يمكن التعويض عنها .

---

(١) طريق الحياة ـ ص ٢ .

إن حرية الغريزة الجنسية واكتساب اللذة دون قيد أو شرط ، التي هي من أهداف نظرية فرويد ، أدت إلى خلق مشاكل عظيمة في أوروبا وأمريكا ، وأقلقت العائلات كثيراً ؛ فإن إرضاء وإشباع الشهوات لم يعرِّض فقط شباب الغرب للسقوط والضياع ، بل إن الشبان الصغار لم يبقوا في مأمنٍ من ذلك .

العلاقات الجنسية بين الصغار :

«نيوزويك : لقد دب الخوف الشديد في العائلات نتيجة شيوع العلاقات الجنسية بين الشبان الصغار . إن هذه المسألة أصبحت من أحدِّ المشاكل الداخلية في أمريكا بعد ازدياد استعمال المخدرات والتفرقة العنصرية ، وأقلقت الآباء والأمهات والمسؤولين في المدارس والإدارات الرسمية في الحكومة الأمريكية ، وقد دلَّت الإحصائيات على أن عدداً كبيراً من فتيات تحت سن الخامسة عشرة تظهر عليهن آثار الحمل كل شهر ، وبما أن الأطباء يخشون القيام بإسقاط الجنين ، لصغر سنهن ، فإنهن يُصبحن أمهات . في الأسبوع الماضي ، حملت فتاة في سن الثانية عشرة من فتىً في سن الرابعة عشرة ، وقد امتنع الأطباء من إسقاط جنينها فأقدمت علىٰ الإنتحار . الأطباء يعتبرون عملية سقط الجنين بالنسبة لصغيراتِ السن خطراً ، وأنها تشكل خطراً كبيراً وأضراراً كثيرة عليهن في المستقبل ، ومن الممكن أن يُصبن بالعقم . هذا ويزداد يومياً عدد الحوامل الصغيرات نتيجة المعاشرة والمخالطة الحرة بين الشبان والفتيات في المدارس الإبتدائية والمتوسطة . وقد راجع في الشهر الماضي ١٥٠ فتاة تحت سن الخامسة عشرة المستوصفات في أمريكا يطلبن إجراء عملية إجهاض ، وقد أثار نشر هذه الإحصائيات خوفاً عظيماً لدىٰ الكبار»[١] .

---

(١) صحيفة اطلاعات الايرانية ؛ العدد ١٣٤٢٥ .

«لندن : خضع طفل في سن الخامسة من عمره إلى معالجة طبية لإصابتهِ بمرضٍ جنسي، وقد سرىٰ المرض إلى هذا الطفل من طفلة في التاسعة من عمرها كانت مصابة بذلك المرض، إن هذه الحادثة دليل على انتشار الأمراض الجنسية بين شبان الدول الغربية، حتى إنها وصلت إلى الصغار»(١).

إن اللجوء إلى المخدرات لاكتساب اللذة، أو (السعادة) كما يقول فرويد، مصيبة أُخرىٰ من المصائب الكبيرة لعالم اليوم، إن هذا البلاء والعدو الخطر للسعادة البشرية، قد انتشر كالمرض في العالم الغربي، ويزداد يوماً بعد آخر، وأخذ يسري إلىٰ الشرق.

الموت بالمخدرات :

«باري ماتش : يتواجد أكثر من نصف المدمنين على المخدرات في أمريكا البالغ عددهم ستمائة ألف شخص في نيويورك، ووجود هذا العدد هو الذي جعل من مدينة نيويورك أكثر مدن العالم خطورة، إلى حد لا يجرؤ أحد على السير في بعض الشوارع الخالية بعد الغروب. فالمخدرات في أمريكا لا ترسل المبتلين بها إلىٰ الموت فحسب، بل إن الأبرياء لا يجرؤون على الدفاع عن أنفسِهم أمام المدمنين، فيُقتلون، ونصف الجرائم التي تقع في نيويورك إنما هو بسبب الهيروييين، فالمدمنون ومن أجلِ الحصول على خمسين دولاراً يهاجمون الناس بالسلاح»(٢).

«مات شاب نيويوركي في سن التاسعة عشرة بسبب الإفراط في تعاطي المخدرات، وهو رابع شاب مات خلال أُسبوع نتيجة تعاطي المخدرات وتوفي منذ بداية العام الحالي في نيويورك

(١) صحيفة إطلاعات الإيرانية ؛ العدد ١٣٥٦٥ .
(٢) صحيفة اطلاعات الإيرانية ـ العدد ١٤٠٦٠ .

حتى الآن ، اثنان وثلاثون شخصاً بهذه الطريقة . وقد فاق عدد ضحايا المخدرات من الشباب في الشهرين الأخيرين عدد كل ضحايا العام الماضي .

قال الدكتور جولين مدير المجمع الطبي (أُوديسه) : لقد مات لحد الآن ، خلال السنة الحالية ١٣٠ شخصاً من نيويورك بينهم ثلاثة وثلاثون شاباً في سن أقل من العشرين نتيجة استعمال المخدرات بإفراط وأضاف : لو انقرض هذا الشعب فلن يكون بسبب قنبلة ، وإنما سيكون زواله بالمخدرات»[١] .

«مات شابان في سن ١٩ و ٢١ عاماً في هولندا بفعل استعمال المخدرات بإفراط ، وقد عثرت الشرطة على جثتيهما في شقتهما بأمستردام ، ولدىٰ تفتيش الشقة وجدوا عشرات العلب الحاوية حقن المورفين ، وأقراص الكوكايين وإل إس دي ، وكذلك كمية من الحشيش»[٢] .

السرقة من أجل اللذة :

طبقاً لأخبار الصحف ، إن الشبان الذين لا تجربة لهم ، ومنذ مدةٍ طويلة في الغرب ، يقيمون علاقات مع بعض الأشخاص الأشرار على أساس حرية الغريزة الجنسية بعيداً عن رقابة الوالدين ، ومن ثم ينحرفون ، فيسلكون طريق السرقة والخطيئة ، فيحطمون بالتصرف الخاطىء مكانتهم وكرامة عائلتهم الإجتماعية .

ولسوء الحظ فإن الإفراط في طلب اللذة سَرَى أخيراً من الغرب إلى الشرق ، وانجرف بعض شبابنا إلى تلك الأساليب المخالفة للمصلحةِ العامة ، وإليكم بعض النماذج :

---

(١) صحيفة كيهان الإيرانية ـ العدد ٧٩٧٩ .
(٢) صحيفة كيهان الإيرانية ـ العدد ٧٩٨٣ .

«حصلت الشرطة علىٰ معلومات تفيد أن أحد المقاهي أصبح مقراً لبعض الشبان والشابات ، طلابِ المدارس الثانوية ، وهؤلاء بدل الذهاب إلى المدرسة لتلقي العلوم يأتون إلىٰ هذا المقهى للتسلية والرقص . وفي الساعة الثالثة بعد الظهر دخلت الشرطة لاستطلاع الأمر ، فوجدوا أن الطلاب تركوا كتبهم على الموائد وانشغلوا بالرقص . ولكي يوضع حد لمثل هذه الأعمال في المستقبل ،والتي تشكل خطراً على كرامة الأُسر وسمعتهم ،فإن الشرطة قامت بنقل الطالبات وعددهن خمس عشرة طالبة إلى مركزها وهناك اعترفن بأنهن قد غُرر بهن من قبل الشباب وبذريعة الذهاب إلى المدرسة جئن إلى المقهى وانشغلن بالرقص»[1] .

سرقة السيارات :

«إن ازدياد نسبة الجرائم بين الشباب وانحرافهم عن الطريق السليم قد دفع الشرطة إلى التحقيق في هذا الأمر وقد دلت هذه التحقيقات على أن أكثر المجرمين ، مع الأسف تقل أعمارهم عن ١٨ سنة ، يتمتعون بحرية مطلقة ، ساقتهم إلى أماكن غير صالحة ، وبما أن هذه الأماكن تحتاج إلى نقود ، فلذا انحرفوا عن الطريق السليم ، فقاموا بسرقة السيارات أو الأجهزة الأُخرىٰ ، وهناك من الأفراد المنحرفين المستغلّين مَنْ يدفعون بهؤلاء نحو الإنحراف .

يقول والد فتاةٍ وفتىً في مرحلةِ الثانوية : إنني كأي والدٍ مطمئن كنت مرتاح البال إلى أن أبنائي عندما لا يكونون في البيت فهم بالتأكيد في المدرسة ، ولكنني عندما قرأت في الصحف أن الأولاد ، وبسبب التساهل ، يمضون ساعات الدرس في صالات الرقص والمقاهي ، وأحياناً وكما أعلنت الشرطة ، يقومون بسرقة

---

(١) صحيفة كيهان الإيرانية ـ العدد ٨٨٨٤ .

السيـارات والأشياء الأُخـرى ، للحصول على نقـود لدخـول هـذه الأماكن وشراء الحشيش وغيره ، فإن الخوف قد سيطر عليّ»(١) .

«نقل رجال الشرطة صباح اليوم فتـاتين كان السكـر قد أخـذ منهما كل مأخذ بعد تناول المشروبات الكحولية إلى مستشفىٰ المسمـومين بطهران ، ويبلغ عمر كل من هـاتين الفتاتين ثمـانية عشر عاماً وهما تلميـذتان في الصف الثـالث الثانـوي ـ القسم العلمي ـ وكانتـا قد تـركتا المـدرسـة وذهبتـا بـرفقـةِ شـابين إلى إحـدىٰ الحـانـات في (يسربند) ـ من نـواحي طهران ـ وبعـد تناولهم الفـودكا خـرجتا عن الحـالة الـطبيعية وقلبتـا وضـع الحـانـة رأسـاً على عقب فنقلتهمـا الشـرطة عنـدما وجـدتهما قـد تسممتـا بـالكحـول ، إلى مستشفىٰ المسمومين للمعالجة الكاملة»(٢) .

نماذج من الانحراف :

هذه الوقائع المـؤسفـة والمؤثـرة تدل على هـذه الحقيقة ، وهي أن بعض شبابنا من الجنسين سلكـوا كشباب الغـرب المنحرف سلوك الإفـراط في إرضاء وإشباع غريزة اللذّة ، وحرية الشهوات ، فأصبحوا عُرضـة للتعاسـةِ والسقوط . ولا شك أن قسماً من سوء التفاهم والاختلافات في بعض الأُسر ناجم عن إفراط أمثال هؤلاء الشباب في الاندفاع إلى اللذة .

الوالدان والأولاد المنحرفون :

يعم الوالـدين الغضب وعـدم الرضـا من تصرفـات أبنائهم غيـر الصحيحة والمضـرة ، فيبـدأون بـالصـراخ والغيظ والحنق لأنهم يـرون أن ثمـرة حيـاتهم المتمثلة بهؤلاء الشبان توشك على الإفلات من أيديهم ، نتيجة إصابتهم بالفساد الأخـلاقي وتلوثهم بالشهـوات المضرة ، وسلوكهم طـريق السقـوط والضيـاع ، ومن جهةٍ أُخرى يرون أن هؤلاء الأبناء الجـاهلين يعرضـون كرامتهم الإجتمـاعية

(١) صحيفة اطلاعات الإيرانية العدد ١٤٠٣٩ .

(٢) صحيفة كيهان الإيرانية ـ العدد ٨٨٨٨ .

للخطر ويلوثون سمعتهم ، ويجلبون العار للأسرة بتصرفاتهم المشينة .

إن أمثال هؤلاء الشبان المنحرفين ، هم دائماً عُرضة للإختلاف والمشاجرة . وتصبح العائلة والمجتمع بالنسبةِ لهم مكاناً مكروهاً وميداناً للصراع ، فلا الوالدان يتفاهمان معهم ولا يستقبلهم أفراد المجتمع بترحاب واحترام .

الافراط في إشباع الغريزة :

إن الإفراط في اللذّة وإرضاء الغريزة بلا حساب هما من عواملِ الفساد والضياع فالشبان ، الذين لا يعيرُون الضوابط الأخلاقية والقانونية أهمية ، ويتجاهلون المصالح المادية والمعنوية ، في اكتساب لذّةٍ ما ، سريعاً ما يرون أخطاءهم ، ويندَمون علىٰ أعمالِهم غير المعقولة ، ولكن كثيراً ما يحدث ذلك في وقت يرون أن طريق العودة قد أُغلق . والرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم يصف أمثال هؤلاء الشباب الآثِمين بالجنون .

مرَّ برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم رجلٌ وهو في أصحابهِ ، فقال بعض القوم (مجنون) .

فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : «بل هذا رجل مصابٌ ، إنما المجنون عبدٌ أو أَمَةٌ أبْليا شبابَهما في غير طاعةِ الله»(١) .

إن طلب اللذة بلا حساب والاندفاع في الشهوات بجنون في عالم اليوم ، هما منشأ الكثير من المشكلات الكبيرة ، إذ يوجدان عدم التفاهم ، والاختلافات والمشاحنات ، والمجادلات والخشونة ، والاشتباكات ، وربما وقعت جرائم بين الشباب والشيوخ وبين الأزواج وبين الوالدين والأبناء ، وبقية أفراد المجتمع .

المتحللون من الأزواج والزوجات :

أحياناً يترك الأزواج من عبّاد الشهوة أزواجهم الأطهار وأبناءهم الصغار ،

---

(١) مشكاة الأنوار ص ١٥٣ .

وجميع الموازين الدينية والقانونية والأخلاقية ، بهدف الحصول على اللذّات .

وأحياناً تلتحق النساء الفاسدات ، الملوثات في غيابِ أزواجهن ، تاركات أطفالهن في البيت ، بالشبان أمثالهن غير الطاهرين لا لشيء وإنما لإرضاء وإشباع غريزة اللذّة غير المحدودة ، ثم يتجاهلن واجباتهن الإيمانية والإنسانية .

وتارةً يقوم الآباء والأُمهات الآثمون ، بأعمال مخزية ، في سبيل الحصول على لذّة أكثر ، فيثور الأبناء الشباب الذين يرون كرامتهم وشخصيتهم تتعرضان أكثر للخطر ويحادثونهم بعنف وخشونة ، فيتبدل جو البيت إلى ميدانٍ للصراع والمعارك .

وتارةً يرتكب الفتيان والفتيات أعمالاً قذرة غير مشروعة للحصولِ على اللذات ، فيغضب الآباء والأُمهات ، ويعاملون أبناءهم بشدة ، ويتعرضون لهم ، فيؤدي ذلك إلى الشجار والمجادلة والصراع ، وأحياناً ينتهي الأمر بانفصال الأبناء عن الآباء .

وأحياناً يقوم عبيد الشهوات المفرطون ، وفي سبيل إشباع ميولهم المنحرفة ، بالاعتداء على المجتمعات ، مثلاً ، اغتصاب النساء ، السرقة ، الهجوم المسلح ، القتل ، فيؤدي كل ذلك إلى إيجاد خلل في نظام المجتمع .

الهيرويين والانحراف :

«پاري ماتش : حتىٰ يوم أمس كانت مناطق (هارم) و (برونكس) مركزاً للمخدرات ، ولكن اليوم سرىٰ ذلك إلى جميع مناطق نيويورك وأصبحت المخدرات تهدد المدارس ، وتسوقُ في كل ثماني دقائق شخصاً نحو الموت .

١٢٥ ألف من بين ٣٠٠ ألف مدمن في نيويورك ، مدمنون على الهيرويين ، وهؤلاء يحتاجون يومياً إلى ٥٠ ـ ١٠٠ دولار لكل شخص لتأمين الهيرويين لأنفسِهم ، والقسم الأعظم من الجرائم في نيويورك ، من أمثال سلب سائقي التاكسي ، الهجوم المسلح

على الأشخاص ، سرقة حقائب النساء ، السطو على البيوت ، وأمثال ذلك ، إنما هي تُرتكب من قبل هؤلاء المدمنين . إن إحصاءات الجرائم في نيويورك تدل على أن الجرائم بلغت ٣٦٨ ألف جريمة خلال العشرة أشهر الأُولىٰ من عام ١٩٧٢ ، جرائم من أمثال القتل ، الإغتصاب ، الهجوم المسلح وغير ذلك»[١] .

تعديل الغرائز الجنسية :

نستنتج من مجموع البحث أن ضبط الغريزة الجنسية وتعديل الميول الشهوية ، ضرورة مؤكدة في حياة الفرد والمجتمع البشري ، ومن العوامل المهمة للتفاهم في محيط العائلة والمجتمع ، فالعقل والعلم ، والدين والتقوىٰ ، والأخلاق والفضيلة ، والتوفيق والسعادة ، أُمور تحتم علينا أن ننصرف عن الإفراطِ في اللذة والإنطلاق اللامحدود في الغريزة الجنسية ، ونخضع للقرارات القانونية والأخلاقية ،ونشبع الغريزة الجنسية في حدود موازين ومعايير المصلحة العامة .

بالشرح الذي تقدم اتضح أن رجال الكنائس وبعض فلاسفةِ الغرب سلكوا طريق التفريط في الغرائز الجنسية ، واعتبروا كبت الميول الجنسية عملاً مستحسناً ، ورجّحوه ، بينما سلك فرويد وأتباعه طريق الإفراط ، واعتبروا استهلاك القوىٰ الجنسية بحرية معياراً لنجاح وسعادة البشر ، وهاتان النظريتان مرفوضتان في الدين السماوي كما صرحَ به القرآن الكريم . فأولياء الإسلام اعتبروا العزوبية التي هي كبت للغريزة الجنسية ، عملاً مذموماً ، ومنعوا ، من جهةٍ أُخرىٰ ، الحرية المطلقة دون قيد أو شرط للغريزة ، التي تستلزم البعد عن العفة ، وتتبع الشهوات المضرّة ، وحذّروا أتباعهم منها . وبين هٰذين الأُسلوبين الخاطئين ، وغير المعتدلين ، جعلوا أمرَ الزواج المشروع وسيلة صحيحة لإرضاء وإشباع الغريزة الجنسية تحت ظل القانون والأخلاق ،وشجعوا المسلمين على أداء هذه السُّنّة المقدسة .

---

(١) صحيفة اطلاعات الإيرانية ـ العدد ١٤٠٦٠ .

إن هذه الطريقـة الصحيحة والعـادلة تنسجم مـع نظام الخَلْق وتتـوافقُ مع المصالح الفردية والإجتماعية . وتستطيع منـع الناس من أي إفـراطٍ وتفريط في الغريزة الجنسية ، وتؤدي إلى نجاحهم وسعادتهم .

المحاضرة السابعة :

التفوق وعدم التوافق

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾ .

[القرآن الكريم]

الاعتداء على حقوق الآخرين :

كما أن تكريم شخصية الآخرين ، يؤدي إلى اكتساب المحبة والصداقة وحسن التفاهم بين الكبار والشباب ، فإن الإهانة وتحقير شخصياتهم تؤدي إلىٰ العداء والبغضاء ، وتبعث علىٰ سوء التفاهم والتّضاد في العائلة والمجتمع .

وبما أن احترام الحقوق الطبيعية والإجتماعية للناس يُؤدي إلىٰ الإحترام وحسن التفاهم والتعاون ، ويشد العلاقات مع أعضاء العائلة والمجتمع ، فإن الاعتداء على حقوق وحدود الآخرين يؤدي إلى الاختلاف والتشتت والصراع والعداء مع العائلة والمجتمع .

هناك أسباب وعوامل كثيرة بإمكانها أن تؤثر في الناس وتبعثهم علىٰ العمل خلاف الحق والفضيلة وأن يهينوا ولا يحترموا شخصيات الآخرين ، ويعتدوا على حقوقهم وحدودهم ، فيكون ذلك سبباً للفوضىٰ والاختلال . ولا نبالغ إذا قلنا إن أحد أهم العوامل في هذا الموضوع ، هو حب السيطرة والرئاسة .

ينبع قسمٌ من المشاجرات وعدم التفاهم في العائلة والمجتمع ، ويؤدي بسبب حب التفوق والتميُّز لدى بعض المغرورين إلىٰ مفاسدَ كبيرة ، وفي هذه المحاضرة سنلقي ضوءاً على هذا الموضوع .

إن غريزة حب التسلط والتفوق هي من الغرائز القوية ، المخلوقة في وجود الإنسان . وفي رأي بعض العلماء فإن هذه الغريزة هي أكبر محرّك للإنسان في فعالياته الإجتماعية ، وهي أقوىٰ غرائز الإنسان .

إن غريزة حب التسلط تبدأ فعاليتها منذ عهد الطفولة ، وتبقىٰ متوهجة في وجود الإنسان حتى الشيخوخة ونهاية العمر .

الأمر الوحيد للطفل :

«برأي (آدلر) ، إن أول تجربة لدىٰ الطفل ، في مقارنة نفسه بعالم غيره ، هي إحساسه بالضعف ومواجهة الموانع ، فيلاحظ أن هناك أشخاصاً مستقلين وأقوياء حوله يستطيعون وكما يشاؤون أن يؤدوا الأعمال ، أما هو فبعكسهم غير قادر حتى علىٰ الوقوف والسيطرة على حركاته .

ولذا فإن أقصىٰ أماني الطفل هو أن يستطيع الوقوف على قدميه كالآخرين وإنقاذ نفسِهِ من سيطرة وقوة الآخرين .بعبارة أُخرىٰ إن القدرة والقوة في نظره (خيرٌ) بينما الضعف والمسكنة (شرٌ) .

وهكذا فإن السعي الطبيعي للإنسان في الحياة ، لا يعدو السعي للخلاص من الضعف والوصول إلى القدرة»[1] .

«يقول راسل : بما أن الطفل لا قدرة له ، لذا فإنه يجد ويأمل لكسبها . فالرغبة بالحصول على القدرة هي التي تدفعه لتنمية عضلاتِهِ والاهتمام بدروسه ، وباعتقادي أن الإندفاع والرغبة

---

(١) كتاب روح البشر ـ ص ٢٤٢ .

لاكتساب العلم هو من متفرعات غريزة الحصول على القدرة ، فإذا كان العلم قوة ، فإن اكتساب العلم ، في هذه الحالة ، هو رغبة في اكتساب القدرة»[1] .

حب الرئاسة :

إن أفراد البشر يختلفون فيما بينهم من حيث الرغبات النفسية ، ولهذا السبب فإن كل واحد ، بطبعه البدائي ، يميل إلى إرضاء غريزة التفوق له بالطريقة التي توافق ميلَهُ الباطني . بعضهم يحب الثروة فيندفع بغريزة التفوق لديه إلى جمع المال ، وآخرون يعشقون العلم ، وبواسطته يشبعون غريزتهم والبعض الآخر يطمح إلى المكانة الإجتماعية والتأثير على أفكار الآخرين ومن خلاله يندفعون لكسب هذه المنزلة . وهناك قسمٌ يصلون إلى القدرة عن طريق الرياضة والحصول على البطولة . وبعضٌ آخر يعشقون الرئاسة والقيادة ، فيصلون إلى (القدرة) من خلال الهيمنة على الآخرين ، وسيكون موضوع بحثنا في هذه المحاضرة ، هو طلب (الرئاسة) وإرضاء غريزة القدرة عن طريق التحكم بالآخرين .

رغم أن قدرة المتحكمين وأصحاب المناصب في العائلة والمجتمع ، ليست متساوية بل تختلف درجة اقتدارهم وتحكمهم، من حيث الكمية والكيفية ، لدى بعضهم البعض ، فإن الدافع الأساسي للرئاسة والتحكم ، مهما كان المقام ، هو واحد ، وهو إشباع غريزة التفوق .

إرواء عطش القدرة :

إن الشاب أو الكبير الذي يريد أن يتحكم في محيط العائلة . و (العمدة) الذي يريد أن ينشر سيطرتَهُ على القريةِ ، والمدير الذي يريد أن يُظهر رئاستَهُ على العمال والموظفين ، والشخص الذي يريد أن يرأس (محلته) أو مدينته ، وكل شخص يريد إظهار رغبته في (الرئاسة) . . كل ذلك إنما من أجل إطفاء

(١) الزواج والأخلاق ـ ص ٢٧٥ .

شعلة التعطش للقدرة والتفوق ، ومتطلباتِ غريزة القدرة في نفسهِ .

والجدير بالملاحظة أن بعض الأفراد في العائلة والمجتمع لديهم شروط القيادة ، وهؤلاء نتيجة لياقتهم وجدارتهم ، أو بفعل الأحوال والظروف التي تكون لصالحهم يمسكون مباشرة بعنان السلطة ، فيشبعون غريزة السيطرة في نفوسهم . والبعض الآخر لا يجدون في أنفسهم الشروط اللازمة فيلتحقون بأصحاب السلطة ، فيقوّون أنفسهم عن هذا الطريق ، ويُرضُون غريزتهم .

أحياناً يسعىٰ الشبان والأطفال ، في محيط العائلة ، ولكي يكتسبوا القدرة ، إلى جلب انتباه واهتمام الأشخاص الأقوياء في العائلة وذلك عبر كسب رضاهم بإطاعتهم ليكونوا عضداً لهم ، فيشبعون بذلك غريزتهم في القوة والاقتدار .

وأحياناً أُخرىٰ ، يسعىٰ بعض الأفراد ، في المجتمع ، وكي يحققوا السيطرة المحلية ، أو النقابية ، أو الإنتصار في في الشؤون الإجتماعية ، والشؤون الأُخرىٰ المماثلة ، يلتجئون إلى أصحاب السلطة ، وعن طريق إطاعة هؤلاء يصلون إلىٰ السلطة .

قادة وأتباع :

«تظهر غريزة السيطرة على شكلين متمايزين ، إما أن تظهر بشكل (بارز وواضح) في القادة ، وإما أن تظهر بشكل (ضمني مغلق) من خلال الأتباع . فعندما يطيع أتباعٌ قائدهم برضىً ، فإنما لكي يحصلوا تحت قيادته على القدرة التي يتمنونها ، يعني ، في الحقيقة ، تأمين منافعهم المادية أو رغباتهم النفسية عبر ذلك القائد ، وهناك الكثير من الأشخاص الذين لا يرون في أنفسهم الجدارة في قيادة بني جنسهم ، ولهذا السبب يبحثون عن قائدٍ لهم له شروط التفوق نظراً لتدبيرهِ وشهامتِهِ»(١) .

(١) كتابُ القدرة ـ ص ٣٥ .

حب السيطرة :

الإنسان يحب السيطرة والقوة ، ويكره الضعف والعجز ، وغريزة السيطرة موجودة لدىٰ كل إنسان ، والجميع يسعون في سبيل إشباعها .

وغريزة القدرة ، كباقي الغرائز ، عمياء ولا تشعر ، ولا تفهم العدل والإنصاف ولا تدرك معنىً للفضيلة والأخلاق ، وإنما تطلب إشباع نفسها ، وفي سبيل الوصول إلى هذا الهدف فهي لا تعرف حداً ولا حدوداً ، ولو كانت هذه الغريزة القوية حرّة وأطاعها الإنسان بلا قيد أو شرط لتعرض المجتمع للفوضىٰ والاضطراب ، ولتغلب الأقوياء على الضعفاء ، ولحطّم المقتدرون الكبار الصغار عن غير حق ، ولتعرّض الناسُ للعدوان ونزلت بحقهم الجرائم . وفي مثل هذه الظروف تصبح الحياة صعبة ، لا تطاق ، وتنزل المصائب الكبيرة والآلام التي لا يمكن تعويضها ، بالمجتمعات البشرية .

تشكيل الحكومة :

ولكي تبقىٰ المجتمعات مصونة من الفوضىٰ ، ويعيش فيها الأقوياء والضعفاء جنباً إلى جنب في راحةِ بال وأمان ، اضطرت الشعوب والأقوام البشرية إلىٰ : **أولاً** : وضع القرارات القانونية والأخلاقية لتعيين حدود وحقوق جميع الأفراد ، وما هو المسموح ، وما هو الممنوع . **وثانياً** : ولكي يخضع المتسلطون للضوابط القانونية والأخلاقية ، ولردعهم عن الإعتداء والإفراط ، وضع أساس الحكومات ، لتكون المشرفة علىٰ حُسن تنفيذ القوانين ، وليصبح الأفراد في منجىً من شر القدرات الكبيرة والصغيرة، وليحصلوا على حقوقِهم المشروعة .

إن وجود الحكومة ، يعني وجود قدرة كبرىٰ تهدف إلى تنظيم العلاقاتِ الإجتماعية ، وتأمين حقوق الناس ، والحيلولة دون عدوان المعتدي ، وبما أنها وُجدت لتنفيذ القانون ، فهي من ضروريات المجتمعات البشرية . وهذا الموضوع قد أُشير إليه في الأحاديث الإسلامية ، وقد صرح بذلك أيضاً العلماء الإجتماعيون

اليوم وأوردوها في كتبهم .

سمع فضل بن شاذان الإمام الرضا عليه السلام يقول : «إنا لا نجد فرقة من الفِرَق ، ولا ملةً من المِلَلِ بَقُوا وعاشوا إلاّ بِقَيِّمٍ ورئيس لِما لا بدَّ لهم منه في أمر الدين والدنيا»(١) .

الحكومة وبقاء الأمة :

«إن النظام من ضروريات كل مجتمع ، لأنه لا يمكن إقامة مجتمع بدون نظام ، ولكل مجتمع إنساني نوع من أنواع الحكومات ، يتم عبرها تنظيم العلاقات بين الأفراد ، وتأمين مصالح المجتمع ، وطبيعي أن نوع السلطة يختلف حسب ضعف المجتمع وتخلفه أو قوته وتقدمه . إن الواجبات الأساسية للحكومات هي تأمي النظام والإطمئنان في المجتمع ، وتطبيق نشاطات الأفراد وانسجامها فيه . وبدون وجود مثل هذا الجهاز التطبيقي المنسِّق لا يمكن إيجاد تعاون بين أفراد ذلك المجتمع»(٢) .

«أينما وجد مجتمع فلا بدَّ من وجود حكومة ، وقدرةُ هذه الحكومة هي التي تُوجدُ الوحدة والإتحاد ، ولا يمكن أن يقوم مجتمع ، دون سلطة تتغلب على حالة الفوضى»(٣) .

الاسلام وتحديد غريزة حالة السيطرة :

لقد حدد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غريزة السيطرة لدىٰ الناس بوضع قرارات قانونية وأخلاقية ، فحالَ بذلك دون تفشيها ، لأنها منشأ العدوان واختلال النظام الإجتماعي . وقد استفادَ الرسولُ الأكرم من قوتين ، قوة الإيمان وقوة الحكومة ،

---

(١) بحار الأنوار ج ٣ ـ ص ١٠٨ .
(٢) علم الإجتماع صموئيل كينغ ـ ص ١٦٢ .
(٣) الآمال الجديدة ـ ص ١٠٤ .

لحسن تنفيذ القوانين ، لأن الإسلام دين إلّهي وتعاليمه تقوم على الإيمان بالله تبارك وتعالى ، وبيوم القيامة .

قوة الإيمان :

لقد أفهم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أتباعَهُ بتعاليمه السماوية أن التفوقَ والتميّز ، بلا حساب ، ليس فقط له ضرر دنيوي إذ يصيب العائلة والمجتمع بالفوضىٰ ، ويُحدث مفاسد مختلفة ، بل إن هذا الخُلُقَ غير المرغوب فيه ، من الناحية الإيمانية والمعنوية يسبب الحرمان من الفيض الأبدي الإلّهي يوم القيامة .

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾[1] .

إن قوة الإيمان أكبر ضمانٍ لتنفيذ القرارات الدينية ، وفي الدين الإسلامي يكون هتك الحرمات ، والإهانة والظلم ، والإعتداء ، والتهديد والتخويف لأي مسلم من الذنوب الكبيرة . والملتزمون الحقيقيون بالإسلام يحذرون دائماً لئلا يتجاوزوا الحدود القانونية والأخلاقية الإسلامية ، ويلوثوا أنفسهم بالمعاصي والآثام . إن الشخص المؤمن من أجل طلب القدرة والتفوق لا يعتدي على حقوق الآخرين ، بل لا يسمح لنفسِهِ أن يظهر قدرته بنظراتٍ حادة ، ومرعبة تخيف وتؤذي الآخرين ، لأنه وفقاً للإسلام ، يعتقد أنه يُحاسبُ يوم القيامة على النظرةِ الحادة ويُعاتبُ عليها .

عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «مَنْ نظر إلىٰ مؤمن نظرةً ليُحيفَه بها أخافَهُ الله يوم لا ظِلَّ إلاّ ظِلُّه»[2] .

---

(١) سورة القصص ؛ الآية : ٨٢ .
(٢) مشكاة الأنوار ـ ص ١٠٠ .

الحكومة وتنفيذ القوانين :

قوة الحكومة :

يستفاد ، في الدين الإسلامي أيضاً ، من قوة الحكومة لتنفيذ القوانين على أحسن وجه . إن الله تبارك وتعالىٰ شرّع أساس الحكومة الإسلامية لتنفيذ القرارات الإلٰهية ، ولكي لا يتمرد المخطئون على الموازين والقوانين ويعتدوا على حقوق الآخرين ، وكلّف المسلمين إطاعة الحكومة .

كان فضل بن شاذان من تلاميذ مدرسة الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام . وقد تعلم من الإمام الرضا عليه السلام مواضيع كثيرة ومختلفة حول علل القرارات الدينية والفرائض الإسلامية ، ثم نظّم هذه القرارات والفرائض علىٰ شكل أسئلة وأجوبة لينتفع منها الآخرون ، ومنها حول ضرورة الحكومة الإسلامية ، حيث يقول :

«فإن قال قائل فَلِمَ جعل أُولي الأمر وأمرَ بطاعتهم ؟ قيل لعلل كثيرة منها : إن الخلق لما وقفوا علىٰ حد محدود وأُمروا أن لا يتعدوا ذلك الحدّ لما فيه من فسادهم لم يكن يثبت ذلك ولا يقوم إلاّ بأن يجعل عليهم أميناً يمنعهم من التعدي والدخول فيما حظر عليهم ، لأنه لو لم يكن ذلك لكان أحد لا يترك لذته ومنفعته لفساد غيره ، فجعل عليهم قيّماً يمنعهم من الفساد ويُقيم فيهم الحدود والأحكام»[1] .

حماية الحق والعدالة :

إذن إن الهدف الأساس لتشكيل الحكومات هو إيجاد قدرات كبيرة في المجتمعات البشرية لكي تكون حامية ومدافعة عن الحق والعدالة ، ومشرفة علىٰ إجراء وتنفيذ القوانين على أحسن وجه ، لكي لا يتمكن الأشخاص المغرورون وطلاّب السيطرة من التحكم بالناس الضِعاف والاعتداء علىٰ حقوقِهم .

---

(١) عيون اخبار الرضا عليه السلام ج ٢ ـ ص ١٠٠ .

ومما يؤسف له أن أصحاب السلطات الكبيرة في عالم اليوم ، هم مصابون بمرض التفوّق والتجبر فقد أخذوا يمارسون العنف والقوة على الشعوب الضعيفة في العالم ، ولهذا السبب نرى الشقاء والتعاسة على الكثير من أبناء البشر على وجه الأرض .

ضعف المبادىء الإيمانية :

في عصرنا الحاضر نجد أن المبادىء الإيمانية والأخلاقية ، التي هي عامل معنوي لتعديل غريزة السيطرة ، قد ضَعُفَتْ ، ولف النسيان مصطلحات الفضيلة والتقوىٰ ، ومن جهةٍ أُخرىٰ ، ومع تقدم الصناعة ، حصلت القوى الكبرى على أجهزة تدمير متطورة جداً ، ويزداد يوماً بعد آخر خطر التخريب في العالم مما يمهد لهلاك الكثير من البشر. وبعقيدة العلماء ، إنه إذا استمر الوضع هكذا في العالم واستمرت هذه الظروف اليائسة ، فإنه سيؤدي بالتالي إلى سقوط الحضارة ، وفناء البشر تماماً .

قوى الآلة السحرية :

«يقول راسل : إن رئيس الحكومة ، يمتلك قدرة ميكانيكية عظيمة ، إذا ترك بدون ضوابط فإنه سيشعر نفسه إلّهاً ، طبعاً ليس إلّه محبّة ، بل إلّه شر»[١] .

«في الحرب العالمية الثانية ، رغم أن صاعقة الآلهة قد نزلت على (روما) و (برلين) ونجت (لندن) و (باريس) منها . ولكن ، حقاً ، هل يستطيع البشر ، بعد كل هذه الفجائع ، أن يعيش باعتدال ؟ !

ألن يصبح الأشخاص ، الذين كانوا يتمتعون بالمشاعر الإنسانية ، وبسبب الضغوط النفسية ، أقل إحساساً من فاقدي هذه المشاعر ؟

---

(١) كتاب القدرة ـ ص ٦٨ .

في القرون الماضية ، كان الإنسان يستسلم للشيطان ، لكي يحصل على قدرة سحرية ، ولكن ، في عالم اليوم ، يمكن الحصول على القدراتِ السحرية من العلم والآلة ، وبالنتيجة سينمو الإحساس الشيطاني بسرعة لدىٰ الإنسان .

علىٰ أية حال ، لا يمكن عَقْدُ الآمال على مصير البشرية ، إلّا إذا تم حلٌّ قضية (السلطة) في عالم اليوم . أي أن تعتدل القوىٰ وتتوازن ، وتُصبح أهلية ، وأن لا تكون بيد مجموعات وطبقات اجتماعية خاصة ، أو بيد قادة مستبدين ، متعصبين ، بل تكون في خدمة البشرية جمعاء ، لأن التقدم العلمي العجيب للعلوم والفنون في العصر الحاضر قد أوجد الظروف التي تقول : إما أن يكون هناك تعايش كامل ، أو أن يهلك الجميع معاً»[1] .

طرح شخص اسمه (نيتشه) في أواخر القرن التاسع عشر ـ والذي أصبح اسمُهُ في مصاف حكماء الغرب واكتسب شهرة عالمية ـ طرح على العالم نظرية خطيرة حول طلب السيطرة، علىٰ شكل نظرية فلسفية ، أجازَ فيها أنواع الجرائم لنيل التفوق ، ودافع عن أصحاب السلطة في عدوانهم ووحشيتهم . وربما وُجد ، إلى الآن ، عدد كبير من أصحاب السلطة ، عن عمد أو جهل ، وقعوا تحت تأثير كلام (نيتشه) ،فهم يتبعون نظريته ، ويرتكبون الجرائم للحصول علىٰ سلطة أكبر ، وقوةٍ أكثر ، ومقامٍ أعلىٰ ، دون أن يطرف لهم جفن أو يتأثروا من أعمالهم اللاإنسانية .

فلسفة نيتشه ومبدأ السيطرة :

وضع نيتشه فلسفته على أساس مبدأ القوة ، وضمن شرحِهِ لأفكارِهِ اعتبر جميع الصفات السيئة واللاإنسانية التي توصل إلى السيطرة والقوة ، مفيدة ، واستحسنها ، واعتبر أن جميع السجايا الإنسانية والفضائل التي تقف في طريق

---

(١) كتاب القدرة ـ ص ٧٠ .

القوة والتفوّق ، سيئة وخاطئة .

«اعتبر جميع علماء الدنيا (حبَّ الذات) مذموماً ، واستحسنوا الصداقة والشفقة ، ولكن (نيتشه) ، بعكس الجميع ، اعتبر (حبَّ الذات) حقاً ، و (الشفقة) ضعفاً للنفس وعيباً .

أساس فكر (نيتشه) هو أن الشخص يجب أن يكون قوياً ، ما أمكنه ذلك وأن تكون حياته هي الأفضل ، وتكون (الأنا) قوية لديه ، وينفذ طلباتِهِ ورغباتِهِ . إذن ، الوصول إلى هذا الهدف حسنٌ ، حتى ولو سلك القسوة وعدم الرحمة ، والحيلة والخداع والشجار والصراع . وإن المعارضين لهذا الهدف ، حتىٰ ولو كانوا صادقين ورحماء وذوي فضيلة وتقوىٰ ، فإنهم سيئون .

ولذا فإن (نيتشه) يعتقد خلافَ ما يعتقده الآخرون في المحاسن والفضائل ، ولذا فإن نصف كتاباتِهِ مخصصٌ لهدم البناء الأخلاقي الذي شيده السابقون ، والنصف الآخر لاقتراح ما هو المطلوب والمستحسن بنظره .

يقول (نيتشه) : يجب عبادة النفس وترك الضعيف والعاجز حتىٰ ينقرض ، ويقل الألم والحزن ، ولا يكون الضعيف عبئاً على كاهل القوي وحجر عثرة في طريقه .

الرجل الأفضل هو ذلك القوي ، والذي يعيش بقوة ، ويحقق جميع رغباتِهِ وأهوائه ، يكون سعيداً ويعتبر نفسه سيداً وإلٰهاً ، ويزيل من أمامِهِ كل ما يمنع سيادته ، ولا يخشىٰ الأخطار والمعارك»[1] .

إن ما يُستنبط ، بصراحة ، من أقوال (نيتشه) هو أن نظريته تقوم علىٰ

(١) سير الحكمة في أوروبا ـ ج ٣ ص ١٢٧ .

أساس (حبّ الذات) وإرضاء غريزة طلب السيطرة والتفوق دون قيد أو شرط . وفي رأي هذا الفيلسوف الأوربي أن العدل والإنصاف والحق والفضيلة والطهارة والتقوىٰ، والأخلاق والإنسانية، لا تعدو أن تكون ضعفاً وانحطاطاً أمام التفوّق، وهو يعتقد أن السيطرة والقوة هما أساس إرضاء شهوات أصحاب السلطة ، والرجال الأكثر تفوقاً عليهم أن يحصلوا على أقصىٰ ما يريدون في هذا المجال ، ويتمتعوا ما أمكن من لذائذ الحياة وما تشتهيه الأنفس لديهم .

إن فلسفة (نيتشه) تَعْتَبِرُ الإنسانَ حيواناً ، وتنمي (حب الذات) في النفس ، وتقمع صفة حب الآخرين ، وتسحق مبدأ التعاون والدفاع عن الضعف وتعتبر الضعفاء أساساً للألم والحزن إذ يقول إنه يجب ترك هؤلاء ليفنوا عن وجه الأرض. من الواضح أن هذه النظرية اللاإنسانية تنمي الوحشية في وجود الإنسان وتبعث على الفساد والضياع ، وتبذر الإختلاف وعدم التفاهم بين البشر ، وتخلق الصراع والشجار في الأسر والمجتمعات وتسوق العالم نحو الشقاء .

الاسلام ومبدأ الحق :

إن موقف الدين الإسلامي من (السلطة) مخالفٌ تماماً لهذه الفلسفة اللاإنسانية كما ورد في أقوال وأعمال أولياء الإسلام ، ودعوا إليه أتباعهم .

إن فلسفة (نيتشه) مبنيةٌ على أساس (عبادة الذات) و (هوىٰ النفس) ، والأولوية تختص بالسيطرة والقوة ، وفي رأيهِ أن العدل والإنصاف ، والحق والفضيلة ، ومكارم الأخلاق والسجايا المعنوية ، والإنسانية والتعاون والشرف وكل الصفات الإنسانية إذا وقفت في طريق (السيطرة والقوة) فهي سيئة ومرفوضة والإنسان في رأيه ، له الحق في سحق كل تلك الصفات في سبيل الوصول إلى القوة .

إن الدين الإسلامي يقوم على أساس عبادة الله عز وجل ، وإطاعة أوامرِه ، في هذا الدين المبدأ للحق والحقيقة ، والأولوية للعدل والفضيلة . إن الشخص الذي يريد السيطرة ويسحق حق وعدالة الآخرين ، ويظلم ويستبدّ ،

يكـون في رأي أولياء الإسـلام مُذنبـاً ، وعمله خـطأ ومـرفـوض والتفـوق الـذي يحصل عليه عن هـذا الطريق ، هـو في الواقـع فشل . أو بعبـارة أُخرىٰ إنـه إذا استلزم الحصول على السلطة تـرك العدل والأخـلاق . فإن أتبـاع فلسفة (نيتشـه) يعطون الأولوية للحصول على (السـلطة) . ويضحون في سبيـل ذلك بـالفضائـل الأخلاقية والمكارم الإنسانية ، ولكن أتباع مذهب القرآن الكريـم يرجحون الحقّ والفضيلة ، وهم مكلفـون بتـرك (السلطة) الـتي تـأتـي عن طـريـق الـظلم والإستبداد ، وعدم تلويث إنسانيتهم بالعدوان ، وهناك أحـاديث كثيرة وردت في هذا الباب .

قال الإمام علي عليه‌السلام : «إختر أنْ تكون مغلوباً وأنت منصف، ولا تختر أن تكون غالباً وأنت ظالم»[1] .

وعنه عليه‌السلام : «ما ظَفِرَ مَنْ ظَفِرَ بالإثم، والغالبُ بالشرِّ مغلوب»[2] .

عن أبي عبدالله الصادق عليه‌السلام : «قال لرجُلين تخاصما بحضرتِه أما إنه لم يَظْفَرْ بخيرٍ مَنْ ظَفِرَ بظلم .»[3] .

قال رجل لجعفر بن محمد الصادق عليه‌السلام : إنه وقع بيني وبين قوم منـازعة في أمـور وإني أُريد أن أتـركـه فيقـال لي إن تـركـك لـه ذل . فقـــال جعفـر بن محد عليه‌السلام : «إن الذليل هو الظالـم .»[4] .

أشـار الإمـام الصـادق عليه‌السلام في حديثه إلى مبـدأ نفسي مهم ، وهـو أن الظلم والإستبداد دليل على عجز الظالم ، ودليـل حقارتِـهِ وذِلتِهِ النفسيـة . وقد ورد ذلك في دعاء يوم عيد الأضحىٰ والجمعة للإمام السجاد عليه‌السلام :

«وقد علمتُ أنـه ليس في حكمـك ظلمٌ ، ولا في نقمتِـكَ عجلة ، وإنمـا يعجلُ مَنْ يخافُ الفَوْتَ ، وإنما يحتـاجُ إلى الظلمِ الضعيفُ ، وقـد تعاليتَ يـا

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ـ ج ٢٠ ـ ص ٣٥٨ ـ كلمة ٣٧ .
(٢) مشكاة الأنوار ص ٣٢٥ .
(٣) تحف العقول ص ٣٥٨ .
(٤) بحار الأنوار ج ١٧ ص ١٧٣ .

إلهي عن ذلك عُلُوّاً كبيراً»[١] .

الاسلام ونظريات نيتشه :

يتضح من الأحاديث السابقة الإختلاف بين الدين الإسلامي ونظريات (نيتشه) بجلاء . يرفضُ الدين الإسلامي السيطرة والقوة التي تأتي عن طريق الظلم والاستبداد ، ويعتبر الظلم دليلاً على الضعف والعجز الباطني للظالم ، ويحذِّرُ أتباعه من ذلك . وأما نظرية(نيتشه) فإنها ترجح كسب القدرة في أية ظروف ، وتجيز لأتباعها ارتكاب أي عمل غير صحيح في سبيل السيطرة وترك جميع السجايا الأخلاقية والصفات الإنسانية .

إن أساس فكر (نيتشه) هو أن الشخص يجب أن يكون قوياً ويستفيد من ميوله النفسية ، إذن فإن أي عمل يوصل إلى نيل هذا الهدف يساعد على زيادة سيطرة الشخص فهو حَسَنٌ ، حتىٰ ولو كان بالمكر والخديعة ، والقسوة والعنف والصراع والقتال .

أما أساس تعاليم الإسلام فتؤكد بأن يكون المسلم صادقاً ومتقياً وبأن يتجنب ارتكاب الذنوب والآثام حتىٰ ولو كانت هذه الذنوب ستؤدي لتقويتِهِ وزيادة قدرته .

لقد كان الإمام علي عليه السلام يوزع أموال بيت المال بالمساواة بين الناس طبقاً لواجبه الديني وعلى أساس العدل والإنصاف ، فقال له بعض الناس ممن يبدون الصداقة ويريدون الخير : إنه يجب تخصيص بعض الأشخاص بعناية خاصة لتدعيم أُسس حكومته وأن يعطيهم عطايا أكثر فقال لهم عليه السلام :

«أتأمرونني أنْ أطلبَ النصرَ بالجَورِ فيما ولّيتُ عليه»[٢] .

نيتشه وإهمال الضعفاء :

إن الهدف الأساسي في رأي (نيتشه) لأصحاب السلطة هو إرضاء الأهواء

---

(١) الصحيفة السجادية ـ دعاؤه عليه السلام يوم الأضحى والجمعة .

(٢) نهج البلاغة ـ الخطبة ١٢٦ .

النفسيـة والميول الشهـوانية أكثـر فأكثـر . وبعقيدتِـهِ أن الرجـل الأقوى هـو ذلك الرجل الذي يعيش بقوة ، ويحقق أهواءه وميولـه النفسية . و (نيتشـه) ليس فقط لا يهتم بـالضعيف والمظلوم ولا يدافع عنهما ، وإنما على العكس ، فهو يقول ، (يجب ترك الضعيف والعاجز لكي يهلك) .

أما في الدين الإسلامي فإن أسمىٰ الأهداف للسلطة والإستطاعة هـو إقامـة الحق والعـدالة وحمـاية المـظلوم والضعيف . ومن واجب المسلم أن يساعـد المظلوم قدر استطاعته كواجب ديني . وأن يحارب الجور والظلم وَيَمد يد العون للضعفـاء لحل مشـاكلهم ، ويخفف عنهم المصـاعب ، وبهـذه الـوسيلة يبـدي شكره على السلطة التي يمتلكها .

الاسلام وحماية المظلومين :

لقد كان علي عليه السلام في ذروة سلطته وقـوتِهِ عنـدما ذهب مـع جيشه لحـرب البصرة ، يقول ابن عباس : لقد كنـا في ذي قار عنـدما تشرفتُ بالمثول بين يدي أمير المؤمنين ، وكان يخصف نعله فقـال لي : «ما قيمـة هذا النعـل ؟ فقلتُ لا قيمـة لهـا . فقـال عليه السلام : واللهِ لهي أحبّ إليَّ من إمـرتِكم إلاّ أنْ أُقيمَ حقـاً أو أدفعَ باطلاً»(١) .

عنـدما تحـدث الإمام علي عليه السلام إلى عبـدالله بن عباس ، بهـذا الحديث كان سلام الله عليه حاكماً لبلاد الإسلام الواسعة ، وبيده أكبـر سلطة ،ولكنـه لم يستخدمها من أجل إرضاء ميوله ، وإنمـا كانت سـلطة الحكومـة في رأيهِ تنحصـر في إقـامةِ الحق ومحـو الباطـل . إنه عليـه السلام ، كـان يريـد الإستفادة منهـا لصالح العدلِ والفضيلة وحماية المظلومِ ، وقطع يد الظالم .

انتقاد نيتشه للأخوة والمساواة :

«يقول نيتشه : في بداية الأمر كانت الدنيا تسير وفق إرادة القوي .

---

(١) نهج البلاغة ـ خطبة ٣٣ .

وكـان الضعيف خادمـاً وعبـداً لـه ، ولكن الأقـويـاء قلة والضعفـاء كثرة ، وقد استفاد الضعفاء من كثرتهم وقامـوا بحيلة ومكر بـإظهار الرأفة والشفقة والتواضع والعطف والرحمة والعـدالة والكـرامة بصـورة جميلة في أذهان الناس كصفات خير وصـدق وذلك لتعـديل قـدرة الأقوياء والتخلص من الرق والعبودية وقد تقـدموا بهـذا الهدف عن طريق الأديان في إطـار أسماء (الله) و (الحق) وسقـراط وبوذا هما أكبر معلمي هذه التعاليم .

وبرأي نيتشه أن الأسوأ من كل ذلك أن عيسىٰ المسيح قـد تحمل الكثيـر في سبيل الأخـوة والمساواة بين الناس،وتأكيده على ضرورة حماية ورعاية البؤساء والضعفاء .

إن الأخـلاق المسيحيـة هي أخـلاق العبـوديـة وقـد قضىٰ المسيـح علىٰ أخـلاق المستكبـرين الأقـويـاء . الحـديث عن الأُخـوة والمساواة والسلام ورعاية حقـوق النساء والمعـذبين ، وأمثال هـذه الأحاديث الشائعـة اليوم إنمـا نشأت عن ذلـك . . . ، يجب هدم هذه المبادىء والإلتجاء إلى مبـدأ سيادة الأقوياء في الحياة»[1] .

انتقاد نيتشه للدين :

في هـذا القسم من حديثـه يهاجم (نيتشـه) الدين وينتقـد قادة الأديـان ، ويقول : إنهم نهضوا بالدعوة للرأفة والشفقة والرحمة والعطف والعدالة والكرامة والأخـوة والمساواة ، ومراعاة حقوق الآخـرين ، قـد نهضـوا لحمـايـة الضعفـاء والعجزة ، وحرروهم من عبودية الأقوياء والرؤساء ، وبالتالي فقد تلاشت أخلاق المتكبرين . ولهذا السبب يبدي في نهاية مقالته وجهـةَ نظره بهـدم المبادىء الأخلاقية للأديان ، وسلـوك حياة سيادة الأقوياء والأعيان .

انتقاد الشيوعيين للدين :

الشيـوعيـون أيضـاً هـاجمـوا الأديـان في كتبهم وانتقـدوا قـادة المـذاهب

(١) سير الحكمة في أُوروبا ـ ١٢٨ .

الدينية . ولكن هؤلاء خلافاً (لنيتشه) خالفوا التعاليم الدينية وقالوا إن الدين يقوم بحماية الأقوياء وأصحاب رؤوس الأموال ، ويُبقي الطبقة الكادحة والضعيفة في حرمان وضيق .

«يقول لينين : الدين هو أحد أنواع الضغط النفسي على الطبقة الكادحة . التي تكدح من أجل الآخرين دوماً وتبقىٰ في حرمان . لقد جاء الدين لصالح أصحاب رؤوس الأموال ، إذ يشجع العالم على العمل وتحمل الألم من أجل الآخرين»(١) .

«الدين والطبقة الحاكمة الفاسدة يعملان دائماً ضد أبناء الشعوب ، ورجل الدين والثري هما قطبان متحدان لاستثمار الطبقة الكادحة» (٢) .

تناقض النظريتين :

تلاحظون هنا بأن نظرية(نيتشه) تخالف النظرية الشيوعية ؛ يقول نيتشه إن الدين بتعاليمه الأخلاقية يحامي عن الأكثرية الضعيفة والعبيد ، إذ أنقذهم من عبودية الأشراف ، وهدم حياة السيادة . بينما الشيوعية تقول : إن الدين جاء لحماية أصحاب رؤوس الأموال الأقوياء والأغنياء ، وجعل المعذبين الكادحين في ضيقٍ وحرمان .

بنىٰ نيتشه نظريته على (مبدأ القوّة) ، والشيوعية بنت نظريتها على أساس (مبدأ الإقتصاد) ، وكما أشرنا في المحاضرة السابقة فإن فرويد أسّس نظريته على (مبدأ اللذة) .

حرية الفكر والواقعية :

إن أتباع هذه النظريات سجنوا أنفسهم في إطار (السيطرة) و (الاقتصاد) و (اللذة) ، وسلبوا أفكارهم ، وكل واحد منهم يريد مشاهدة الحقائق

(١) المادية التاريخية ص ٩٠ .

(٢) علم النفس فرويد ـ ص ٧ .

من خلف منظاره الخاص وتحليلها طبقاً لنظريته ، غافلاً أن تحديد الفكر يقف حائلاً أمام النظرة الواقعية . ولهذا السبب فإن أتباع هذه النظريات ، وفي كثير من المواضيع ، ومن جملتها الأديان الإلهية ، عجزوا عن إدراك الحقائق ، وبما أنهم لم يروا طريق الحقيقة لذا سلكوا طريق الأساطير ، وذكروا مواضيع كثيرة خاطئة وغير واقعية .

التقارب الزمني بين نيتشه وفرويد :

ولد (نيتشه) عام ١٨٤٤ م وتوفي عام ١٩٠٠ م . وأما فرويد فقد ولد عام ١٨٥٦ م وتوفي عام ١٩٣٦ م . وقد عاش هذان الشخصان تقريباً ، في زمن واحد ، وعرضا نظرياتهما في زمن واحد ، وحصلا بالتدريج على الشهرة ولكنهما عرضا ، من خلال نظرياتهما ، آراء خطرة على الناس ، فأحدثا مفاسد كثيرة .

نظرية فرويد وإشاعة الفساد :

عمل فرويد ما بوسعه على إطلاق حرية الغريزة الجنسية وانتقد بشدة ضوابط الدين والقانون في هذا المجال ، وهو يرى أن سعادة الإنسان تكمن في أن يتمكن الإنسان من استهلاك قواه الجنسية طبقاً لما يريد بحرية . إن هذه النظرية وجهت لطمة إلى أساس العفة والأخلاق العامة ، حثّت على الركض وراء اللذة المضرة والشهوات المخالفة للمصلحة العامة . ولقد وضّحنا في المحاضرة السابقة بتفصيل ، أن عدداً كبيراً من شباب الغرب قد اعتنقوا أسلوب فرويد لإرضاء وإشباع غريزة اللّذة لديهم ، وتركوا جميع القرارات والتعاليم الدينية والأخلاقية والقانونية ، وفي النهاية لم يصلوا إلى السعادة بل سقطوا في مستنقع الفساد والضياع .

نظرية نيتشه والظلم :

لقد دافع (نيتشه) عن غريزة القدرة بشدة في نظريته ، واعتبرها سبباً للسعادة وعماد نجاح الإنسان . وقد أجاز لأتباعهِ توسل الأعمال اللاإنسانية في

سبيل الوصول إلى (السلطة) . وأن يتنكروا للعدالة والإنصاف وسحق القرارات القانونية والأخلاقية ، وأن يسودوا عن طريق القتال والصراع ، والمكر والخداع ، والظلم والاستبداد ، والعنف والقسوة ،وكل ما ينافي الأخلاق والقانون وسحق الضعفاء والعاجزين ، للجلوس بعدها على عرش السيادة والاتكاء على وسادة القوة للعيش بهناء ولذّة .

ولقد شوهد الكثير من أعمال (السيطرة) الظالمة والعنيفة خلال الحرب العالمية الثانية ، وبعض الحروب المحلّية والإقليمية ، بشكل واضح . فقد كانوا ، لكي يظهروا تفوقهم ، يهاجمون الناس الأبرياء ، ويريقون الدماء ، ويقتلون الناس ، ويحرقون ، ويدمّرون ، ولا يرحمون الصغير ولا الكبير ، ولا المرأة ولا الرجل ، ولا الإنسان ولا الحيوان ، وهم في أعمالِهم الوحشية هذه يبدون سرورهم .

لكي يطلع الشبان أكثر على نظرية (نيتشه) الخاطئة ، ويعرفوا أُسلوب تفكيره ، وأعماله اللاإنسانية التي يهدف من ورائها إلى إرضاء غريزة السيطرة والحصول على التفوق ، نشير هنا إلى نموذج واحد من تعاليم (نيتشه) السيئة :

«قال موسوليني عن معركة الحبشة : . . . لقد أحرقنا الهضاب التي كانت تغطيها الغابات الخضراء وكانت المزارع والقرى (حين تحترق) وسيلة لهو لنا كحالها حين كانت تظلل أيضاً ، وكانت القنابل تنفجر حين وقوعها على الأرض ويخرج منها دخان أبيض ونار عظيمة . . . وإني أتذكر كيف كانت الحيوانات والمواشي تفر رعباً ، وعندما فرغت مخازن القنابل فرحتُ لأنني بدأت أُطلق الرصاص بيدي ، ولكم أن تتصوروا سروري عندما استطعت إصابة سقف كوخ محلي بسهولة وكان محاطاً بأشجار كبيرة وكثيرة ، وعندما شاهد سكان الكوخ عملي البطولي هربوا بجنون ، وكان هناك خمسة آلاف حبشي محاطين بدائرة من النار ثم أُجبروا على اللجوء إلى نهاية خط النار ، فوجدوا جحيماً ملتهباً أمامهم»[1] .

---

(١) كتاب القدرة ص ٦٣ .

طلب التفوق وارتكاب الذنوب :

إذا تم تنفيذ نظرية (نيتشه) المضرة في المجتمعات البشرية وسُمِحَ للأشخاص المتكبرين الطامحين للرئاسة ، كي يشبعوا غريزة السيطرة لديهم بارتكاب الأعمال غير الإنسانية ، والممنوعة ، والظالمة فإن الأمن والاستقرار يزولان من العالم ، وستعاني الأُسر والقرىٰ والمدن والمحافظات وجميع الأماكن من أنواع الشقاء ، وستضطرم نيران الفتن والفساد والصراع والشجار ، والجرائم في كل مكان .

إن طلب السيطرة، وحبَّ الرئاسة ، من الرغبات الخطرة . وإن لم تكبح ، وتحدد حريتها بالمعايير القانونية والأخلاقية فإنها تُخمد توهجَ العقل ، وتطفىء شعلة الضمير الأخلاقي ، وتمحو الإيمان من القلب ، وتُنسي الصفات الإنسانية ، وتدفع بالإنسان إلى أنواع الخطايا .

إن الأشخاص الذين يعشقون الرئاسة والقيادة ، وللحصول عليهما يتوسلون الأعمال الخاطئة وغير المشروعة ، هم دائماً عُرضة للسقوط الديني والأخلاقي ، ولهذا فإن أولياء الإسلام حذروا أتباعهم ضمن تعاليمهم من هذا الخطر الكبير .

عن أبي عبدالله (الصادق) عليه السلام ، قال : «من طلب الرئاسة هَلَك»[1] .

عن معمر بن خَلّاد عن أبي الحسن (الرضا) عليه السلام أنه ذَكَر رجلاً فقال : إنه يحب الرئاسة . فقال عليه السلام : «ما ذِئْبانِ ضاريان في غنمٍ قد تفرّقَ رُعاؤها بأضرَّ في دين المسلم من الرئاسة»[2] .

كان عبد الملك بن مروان ، قبل أن يصل إلى الخلافة ، يمضي أغلب أوقاتِهِ في المسجد يتعبد حتىٰ إن الناس أسموه (حَمَام المسجد) . وعندما

---

(١) وسائل الشيعة ـ ج ٤ كتاب الجهاد ـ ص ٤٧ .

(٢) الكافي ـ ج ٢ ـ ص ٢٩٧ .

أخبروه بموت أبيه كان منهمكاً في تلاوة القرآن الكريم ، وعندما سمع وعلم أن موعد خلافتهِ قد حان ، سيطرت عليه حالة من الفرح ، فأغلقَ القرآن الكريم مودّعاً وقال : لقد حان وقتُ انفصالي عنك .

إن حبّ الرئاسة والمقام أثّرَ عليه لدرجة أن أخلاقهُ تغيرت حتى قال : إنني كنت قبل خلافتي عطوفاً ورحيماً لدرجة كنتُ أتأثر لقتل نملة وأصبحت الآن لا أتأثر أبداً عندما يكتب الحجاج بن يوسف بأنه قتل جمعاً كثيراً في مكة .

كان الزُّهري من الشخصيات المعروفة في زمن عبدالملك ، فجاءه يوماً وقال لعبد الملك : سمعتُ أنك تشرب الخمر ؟ ! فقال عبدالملك بكل برودة وصراحة : نعم ، قسماً بالله إنني لأشرب . إضافة للخمر ، دم الناس[1] !

العلم وطلب الرئاسة :

رغم أن أولياء الإسلام شجعوا على طلب العلم في أحاديث كثيرة وكرّموا الأشخاص العلماء واحترموهم، إلاّ أنهم أنتقدوا الأشخاص الذين يريدون العلم بهدف (الرئاسة) وتحطيم شخصيات الآخرين .

عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام أنه قال : «من طلبَ العلمَ ليباهي به العلماء أو يُماري به السُّفهاء أو يصرف به وجوه الناس إلى نفسِهِ ويقول أنا رئيسكم فليتبوَّأ مقعده من النار»[2] .

حب الذات لدى أصحاب التفوق :

إن أصحاب التفوق وعشاق الرئاسة ، من الناحية النفسية لهم أخلاق خاصة . فهم مغرورون جداً ويعبدون ذواتهم ، ولا يهتمون إلاّ بأنفسهم ، ولا يُقيمون وزناً للآخرين ، إلاّ الأشخاص الذين يساعدونهم لتحقيق آمالهم ويلعبون دوراً في تقوية مقامهم وسلطتهم . وفي الحقيقة يجب القول إنهم في

---

(١) تتمة المنتهىٰ ـ ص ٨٤ .

(٢) مستدرك الوسائل ـ ج ٢ ـ ص ٣٢٢ .

هذه الحالة غير الصادقة ، يحبون أنفسَهم أيضاً .

«إن الشخص الذي يحب التوفق يكونُ عنيفاً ، جسوراً ، يسخر من كل نوع من أنواع المشاعر ، ويعتبرها دليلاً على الضعف في الشخصية . ومن مميزاته أنه لا يعير اهتماماً للآخرين ويقول في نفسه : ما شأني كي أُفكر بالآخرين ، ولذا فهو يفكر في نفسِهِ فقط ، وحالة تفكيرِهِ تشبه تفكير شخص يسافر في سفينة محطمة في البحر مع شخص آخر ، ويفكر كل منهما في قتلِ صاحبه لكي يتغذىٰ بلحمِهِ للبقاء على قيد الحياة ، من وجهة نظر طالب التفوق ، إن الذي يبقى على قيد الحياة من هذين الشخصين يكون أقل حمقاً ويُسرع في قتل الآخر»[1] .

تعديل غريزة التفوق :

للحيلولة دون المفاسد والإختلالات الناشئة عن (حب الذات) و (التفوق) ، من الضروري أن يقوم النساء والرجال ، الكبار والشباب ، بل جميع الأشخاص ، في أي مقام كانوا ، بإخضاع غريزة حب السيطرة إلى معيار العقل والشرع وتعديلها ، والابتعاد عن حب الذات والأوهام ، والقبول بحدود القانون والأخلاق ، وحصر مشاعر التفوق لديهم في حدود المصلحة الفردية والإجتماعية ، وبهذه الصورة تُحفظ المجتمعات من أخطار طلب التفوق والحرب والصراعات ويستطيع أعضاء العائلة والمجتمع أن يعيشوا جنباً إلى جنب ، وينعموا بالأمن والتفاهم .

الحكومة والعدالة :

وإذا لم يقم البعض بواجبهم العقلي والديني ، وسلكوا طريق العدوان والظلم لنيل التفوق ، واعتدوا على حقوق الآخرين وخاصة الضعفاء خلافاً للحق والعدالة لكي يحصلوا عن هذا الطريق على السلطة ويثبتوا تفوقهم ، في هذه

(١) تناقضاتنا الداخلية ـ ص ٥٥ .

الحالة(الحكومة) هي مرجع وملجأ المعتدىٰ عليهم ويجب على المظلومين تقديم الشكوىٰ إليها ، والإستعانة بسلطة المجتمع الكبرى للتخلص من شر الظالم وعدوانه . والحكومة يجب عليها أن تنصف المظلوم بسرعة وتساعده ، وتضع حداً لطالب التفوق ، وتُحطم قدرته الظالمة ، لكي ينعم المظلوم بالأمن والراحة .

وبهذه الطريقة يزول الإختلاف وعدم التفاهم ، وتنتهي المفاسد الناتجة عن طلب التفوق وحبِّ الذات ، ويمكن لأعضاء العائلة والمجتمع أن يتعايشوا مع بعض ، ويبتعدوا عن الصراعات وينعموا بالأمن والتفاهم .

إغاثة اللهفان :

في خبر أنه رجع علي عليه السلام إلى داره في وقت القيظ فإذا امرأة قائمة تقول : إن زوجي ظلمني وأخافني وتعدّى علي وحلف ليضربني فقال : يا أمة الله اصبري حتى يبرد النهار ثم أذهب معك إن شاء الله ، فقال : سيشتد غضبه وحرده علي فطأطأ رأسه ثم رفعه وهو يقول : لا والله أو يؤخذ للمظلوم حقه غير متعتع ، أين منزلك؟ فمضى إلى بابه فوقف فقال : السلام عليكم ، فخرج شابٌ فقال علي عليه السلام : يا عبد الله إتق الله فإنك قد أخفتها وأخرجتها فقال الفتى : وما أنت وذاك ؟ والله لأحرقنّها لكلامك ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام آمرك بالمعروف وأنهاك عن المنكر تستقبلني بالمنكر وتنكر المعروف ؟ قال : فأقبل الناس من الطرق يقولون : سلام عليكم يا أمير المؤمنين ، فسقط الرجل في يديه فقال : يا أمير المؤمنين أقلني من عثرتي فوالله لأكونن لها أرضاً تطؤني ، فأغمد علي سيفه فقال : يا أمة الله ادخلي منزلك ولا تلجئي زوجك إلى مثل هذا وشبهه[1] .

يُستفاد من هذه الرواية أن الرجل عندما يريد أن يُظهر تفوّقه وسيطرته

(١) بحار الأنوار ج ٩ ص ٥٢١ (ج٤١ ص ٥٧ من الطبعة الجديدة) .

على العائلة فإنه يبدأ بإهانة زوجتِه ، ويتصرف معها بعنف ، ويحطم عزّة النفس والشخصية لديها ، ويهددها بالحرق والضرب ، ويجعل من حياتها جحيماً لا يُطاق .

والمرأة من جانبها ، عندما ترىٰ أعمال زوجها ، طالب التفوق ، تقلق وتضطرب ، وللدفاع عن شرفها وشخصيتها ولحلٍّ مشكلتها فإنها تلجأ إلى القانون ، وتطلب من رئيس المحكمة المساعدة لإنقاذها لتجد منفذاً تتخلص من خلاله من أسرها وخوفها .

ولحسن الحظ كان حاكم البلاد رجلاً عادلاً ، وفي أول فرصة ودون إهدار للوقت قام باستحصال حق المرأة ، ووقف شخصياً أمام الزوج طالب التفوق ، وفي النهاية دعاه إلى إطاعة القانون والعطف علىٰ الزوجة وهكذا انتهت تلك الحادثة الخطرة والموحشة بالنسبة للمرأة ، ونعم المنزل بنعمة الأمن والراحة .

كيفية تعويض الانكسار :

وهذه المرأة إن لم تتمكن من الوصول إلى الحكومة ، أو أن الحكومة لم تقم بإنصافها أو كانت الحكومة ضعيفة لاتملك قدرة العدالة ، أو أن الزوج كان هو أحد أعضاء (الهيئة الحاكمة) ويمنع تنفيذ القانون ، وفي النتيجة لم تتمكن المرأة من الإستفادة من الحكومة والقانون مقابل الضغوط التي لا تحتمل والتي يفرضها الزوج الطالب للتفوق ، فماذا كان سيحصل ؟ وكيف يمكنها أن تُعوض عما ينزل بها من ظلم ؟

إن هذا السؤال يمكن طرحه بالنسبة لهذه المرأة ولكل الناس الضعفاء الذين يتعرضون لعدوان طلاّب التفوق والسيطرة ولا يملكون لأنفسهم دفاعاً .

ولكن لا يمكن الإجابة علىٰ هذا السؤال بصراحة وحزم ، أولاً لأنه في مثل هذه المواقف لا تكون الأوضاع والأحوال والظروف الزمانية والمكانية واحدة . ثانياً أن نفسية وأُسلوب تفكير الأشخاص يختلفان عند بعضهم البعض . ولذا يجب

القول عند الإجابة : إن الناس في الظروف المختلفة ، مع امتلاكهم لأفكار مختلفة ، تبدر منهم ردود فعل مختلفة ومتنوعة .

من الممكن أن بعض الأشخاص يتلاءمون مع ذلك الوضع الذليل أو يبدون انسجاماً مع الظروف المذلة والمحقِّرة ، ويخضعون لعدوان طالب التفوق ويمضون العمر في تعاسة وبؤس دون أن تبدر منهم ردود فعل . ولكن أكثر الناس يضيقون ذرعاً بأفعال طالب التفوق ويغضبون ، ومن ثم يحقدون عليه ، وينظرون إليه نظرات بغيضة ، منتظرين الفرصة المناسبة للإنتقام وحل العقدة في نفوسهم وإنقاذ أنفسهم من الظلم الذي أنزله بهم .

دور غريزة التخريب والهجوم :

في مثل هذه المواقف تلعب غريزة التخريب والهجوم دوراً مؤثراً جداً . وهذه الغريزة القوية تستيقظ في وجدان طلّاب التفوق المعتدين وكذلك في وجود الضعفاء الذين يتعرضون للعدوان والتحقير ، وكل واحد من المجموعتين تقوم الغريزة بتحريكه ضد أعضاء المجموعة الأُخرىٰ ومن المحتمل أن تقع خسائر لا يمكن تعويضها . ولتوضيح هذا الموضوع لا بد من تفصيل أكثر حوله .

إن غريزة التخريب والتهاجم هي إحدىٰ الغرائز البشرية ، تبدأ مع الإنسان منذ طفولته وتنتهي بنهاية حياته . فالأطفال الذين لا يكونون مقيدين في السنين الأولىٰ من العمر بقيود التربية والأخلاق ، فإنهم يقدمون على تصرفات مخربة في سلوكهم وعن هذا الطريق يُشبعون هذه الغريزة في نفوسِهم .

الاطفال وغريزة التخريب :

«إذا وضعنا أطفالاً في عمر السنة أو السنتين في غرفة واحدة فإننا نلاحظ أن أحدهم يسحب شعر رأس الآخر للَّعب ، ويخطف لعبه دون الإهتمام بردود فعل وتألم سائر الأطفال . هؤلاء الأطفال يمرون بمرحلة تكون فيها غريزة التخريب والهجوم لديهم قوية ، وعندما ننظر إلى الأطفال الصغار بصورة دقيقة نراهم يحطمون

ألعابهم ، ويقتلعون أيديها وأرجلها ويثقبون كراتهم المطاطية ، ويحطمون كل ما هو قابل للتحطيم ، وكلما اكتسبوا حرية واستقلالاً ، وقوة أكثر ازدادت ضرورة مراقبتهم للحيلولة دون إحداث أضرار كبيرة وإصابة أحدهم الآخر أو ضرب الضعفاء منهم.. إننا نقول دائماً ، إن هناك نزاعاً وصراعاً في غرفة الأطفال قصدنا من ذلك أن في هذه المرحلة من الحياة تكون غريزة التخريب والهجوم قوية جداً لدىٰ الأطفال ، نشاهد مثلها لدىٰ الكبار وقت اشتعال الحرب الحقيقية»[1] .

الأم وتربية الطفل :

إن الأُم أو المربية ، وبهدف تربية الطفل ، تقوم دائماً بمنع الطفل من إلحاق الأذى ببقية الأطفال ، وتقف بوجه تصرفاته التخريبية . وبالتدريج فإن هذه النصائح المستمرة تترك أثراً في نفسية الطفل ، وبعد مدة يكف عن إنزال الأذىٰ برفاقه الأطفال ، ولكن غريزة التخريب والهجوم تبقىٰ في باطنه بصورةٍ فعالة وتطالب بإرضائها .

ويكبر الطفل ، يخرج من الغرفة إلى ساحة البيت والحديقة، فيوجِّه غريزة تخريبه إلى المزروعات والحيوانات ، فيكسر أغصان الأشجار ، ويفتت الأزهار ويوجه الماء إلى حفر النمل ، ويفرح للإختلال الذي يحدثه في حياتها ، ويدمر أعشاش العصافير ، ويضرب جراء الكلاب والقطط الصغيرة ، وبهذه الأعمال فإنه يشبع لديه غريزة التخريب والهجوم .

ويواجه الأطفال في أعمالهم هذه تحذيرات الكبار ولومهم ، من تعنيف الوالدين إلى المربية والفلاح والخادم وبقية الأفراد ، فهم يلومونهم ، ويمنعونهم من تكرار هذه الأعمال القبيحة والمنافية للتربية والأخلاق .

إن التحذيرات العنيفة والتوبيخ المكرر للكبار أُمور تؤثر في الصغار ، وبالتدريج يبدأون بوعي قبح أعمالهم ، وبعد مدة يفهمون أنهم لا يستطيعون ،

(١) اعجاز التحليل النفسي ـ ص ١٢ .

بهذه الأعمال التخـريبية ، إشبـاع ميولهم وطلبـاتهم النفسية ، لـذا يجبرون على تركها ، ولكن غريزة التخريب والهجوم تبقىٰ في بواطنهم يقظة ، متحـركة نحــو الهجوم والتخريب .

الشاب وغريزة الهجوم .

يكبر الطفل ، ويصل إلى مرحلة البلوغ والشباب ، ويدخل إلى المجتمـع وتتفتح لديـه غريـزة التخريب والهجـوم أكثر ممـا مضىٰ ، ويكون أكثـر استعداداً للاشتباكات والشجار ، والإرباك والتدميـر ، والأعمال الهجـومية الأُخرى ، ولكنه قَدر الإمكان ، لا يندفع نحو الأعمال التخريبية ، لأنه يشعر بأنـه فـرد مسؤول في المجتمع ، وأنه إذا قـام بعمليات تخريب وهجوم فإنه سيواجه المحاكم القضائية والقوانين الجزائية ، ولهذا فإنه يضطر إلى الإبتعاد عن تنفيذ مطالـب غريزته .

خـلال السنوات الـطويلة ، وإثر ضغوط التربيـة العائلية والرقـابة الإجتمـاعيـة والقوانين ، فإن غريزة التخريب والهجوم بـدأت تقمع ، وتُبعـد عن الظهـور العلني ، وهذا لا يعني أن الغريزة تزول وتندثر ، وإنما تغيَّر مكانها إلى الضمير الباطني ، في انتظار الفرصة المناسبة ، فإذا أُتيحت الظروف المناسبة والموافقة فإنهـا تقوم بنشاطها وفعالياتها وتحريكاتها التخريبية مرةً أُخرىٰ .

إن من يعشق الـرئـاســة ، ويـريـد إشبـاع تعـطشــه للسلطة والتحكم بالآخرين ، فإنه يقوم بنشاطات توصله لهذا الهدف ، إن لم يصطدم بحواجز مانعـة تمنعه من إشباع غـريزتـه وإذا مـا اعترضـه عارض فإنه يتضايق ، ويغضب ويقوم بالصراع ، ولا يدع سبيلاً إلا سلكه للوصول إلى الجلوس على كرسي الرئاسة .

ظهور غريزة التخريب :

إن الهيجان النفسي ، والغضب الباطني للشخص طـالب الرئاسة ، يتيحان فرصة مناسبة جداً لظهـور غريـزة التخريب والهجـوم من الضمير البـاطني إلى الوجـود العلني ، ولبـدء عملياتها التخريبية . وفي هذا الموقف يفقد طالب التفوق تـوازنه ووضعه العادي ويتحول إلى شخص خارج على القانون ومنحـرف أخلاقياً ، ومن

الممكن أن يرتكب الخطايا الكبيرة ويحدث أضراراً لا يمكن التعويض عنها .

الدفاع عن الاستقلال :

ينهض الأشخاص الذين يتعرضون لعدوان طالب الرئاسة المغرور ، للدفاع عن حريتهم واستقلالهم وأول مواجهة هي التحذير العادي ،ثم الإستعانة بسلطة الحكومة ، لإيقاف توقعاتِهِ وأعمالِهِ الظالمة وإذا لم ينفع تحذيرهم ، ولم تقم الحكومةُ بحمايتهم ، وبقي طالب التفوق مستمراً بشدة في أعماله الخاطئة ، فإن غضبهم يتأجج بقوة وينهضون للإنتقام من طالب السيطرة والتفوق وتحطيم سلطته بكل عنف وخشونة . وفي هذه الفرصة المناسبة تنتقل غريزة التخريب والهجوم إلى الوجود العلني وترتبط بغريزة حب الذات وتبدأ العمليات التدميرية والتهاجمية ، ولا أحد يعلم كيف ستنتهي هذه الحرب ، وهذا الصراع ، وأية أضرار كبيرة تحدثها في العائلة والمجتمع .

طلب التفوق وعدم التفاهم :

نستنتج من مجموع البحث ، أن طلب التفوّق هو أحد أهم عوامل عدم التفاهم والإختلاف بين الكبار والشبان .

إن المغرورين طلاب السيطرة . ولكي يفرضوا تفوقهم على الآخرين ويشبعوا رغباتهم ،يتجاهلون شخصية واستقلال الآخرين ، ويحتقرونهم بأعمالهم الخاطئة ، ويعتدون على حقوقهم . ومن البديهي أن مثل هذا الأسلوب يجلب الحقد والعداء ، ويُغضبُ الأشخاص المهانين ويدفعهم للإنتقام وإحداث الأضرار ، وفي النتيجة تتحول العائلة والمجتمع إلى مركز للخلاف والصراع والشجار وساحة للحرب والنزاع .

التحكم بالرغبات :

يجب على الفتيات والفتيان ، الآباء والأمهات ، الأجداد المعمرين ، النساء والأزواج ، الأخوات والأخوة ،بل جميع أعضاء العائلة ، أن يحددوا رغباتهم بمعايير القانون والأخلاق ، ويتركوا حب الذات ، ويبتعدوا عن طلب

التفوق لكي يسود جو العائلة الإنسجام وحسن التفاهم .

وعلى أرباب العمل والعمال ، المدراء والموظفين ، الرؤساء والأعضاء ، وجميع طبقات وأفراد المجتمع أن يجعلوا حدودهم وفق ميزان الشرع والعقل ، وأن ينصرفوا عن طلب التفوق ، ويحترموا حقوق جميع أعضاء المجتمع ليبقىٰ جو المجتمع بعيداً عن النزاع والشجار والصراع .

المحاضرة الثامنة :

دور الاقتصاد في الأسرة والمجتمع

﴿إنه لحبِّ الخير لشديد﴾

[القرآن الكريم]

دور الاقتصاد في حياة الانسان :

تعتبر المسألة الإقتصادية أحد الأركان الأساسية في حياة الفرد والمجتمع ، والإقتصاد يلعب دوراً مهماً في الشؤون العلمية والأخلاقية والتربوية ، والإجتماعية والسياسية ، وبقية الشؤون المتعلقة بكيفية حياة الناس . وللاقتصاد أثر عميق في سعادة وبؤس ، وتقدم وانحطاط ، وفوز وهزيمة ، وعزّة وذلة الإنسان . وينشأ قسمٌ مهمٌ من عدم التفاهم والإختلافات والتضاد والتشاجر والصراع والقتال والجرائم في نطاق الأسرة والمجتمع من القضايا الإقتصادية .

وكثير من الزوجات ينفصلن عن أزواجهن والأبناء يتركون الآباء ، وتنقطع العلاقة بين الأخوة والأخوات ، وتنفصم عرى الأُسرة ، ويظل الأطفال دون رقيب يشرف عليهم ، كل ذلك يحدث بسبب الأُمور المادية بالنتيجة نقول : إن أحد أهم أسباب الخلاف والتناقض في الأُسرة هو المسائل الإقتصادية .

الاقتصاد والحرب :

في المجتمعات أيضاً هناك قسم كبير من النزاعات والاختلافات التي تقع بين الأفراد أو بين المجموعات ، أو الأقوام والشعوب ، وتجعلهم يواجهون بعضهم البعض ، وتشعل بينهم فتيل الحرب ، كل ذلك له جذور اقتصادية .

«إذا طرح سؤال : أي سبب يشعل الحرب في المجتمع ؟ فإن الجواب لن يكون سهلاً ، ويزداد يوماً بعد يوم الإعتقاد بأن العامل الإقتصادي له دور كبير في ذلك نتيجة وجود دلائل عينية كثيرة»[١] .

إن علماء الإجتماع ، ومؤسسو المدارس الفلسفية تحدثوا كثيراً حول المسائل الإقتصادية ، ووضحوا دورها في المجتمعات البشرية وإدارة أمور الحياة ، وقد سلك البعض طريق المبالغة والإفراط في ذلك وخرج عن الواقعية .

الشيوعية ونظرية الافراط :

أعطت الفلسفة الشيوعية أهمية كبرىٰ للإقتصاد أكثر مما يستحقه ، وأفرطت في بيان تأثيره على مختلف مظاهر الحياة . إن أتباع هذه الفلسفة تصوروا أن الإقتصاد هو العامل الأساس في التطورات الإجتماعية ، ومصدر جميع التغييرات المادية والمعنوية في المجتمعات البشرية . إن هؤلاء يعتقدون أن البناء الإجتماعي القائم على الدين والحكومة والقانون والأخلاق والعقائد والأفكار، وأمثالها ، إنما ينشأ على أساس الإنتاج ولا يوجد هناك عامل آخر .

«إن العامل المؤثر في كل عصر يقوم على كيفية الإنتاج لذلك العصر ، كما أن المؤسسات الإجتماعية لكل عهد وزمن إنما تقوم علىٰ أساس اقتصاد ذلك الزمن ، وكذلك فإن الدين والسياسية ،

---

(١) علم النفس الإجتماعي ـ ج ١ ـ ص ٩٩ .

والحقـوق والفن والأدب ، وأمثال ذلـك إنما هي كلهـا نـاتجـة عن الوضع الاقتصادي وكيفية الإنتـاج ، وإذا حدث ، خـلال القرون ، تـطور في الآداب والسياسة والفن والقانـون إنما يكـون لأن القـوىٰ الإنتاجية والعلاقات الإقتصادية سارت نحو التطور والتكامل»[1] .

علاقة التكامل الاجتماعي بتكامل الانتاج :

تقوم الفلسفة الشيوعية علىٰ أسـاس مبدأ الإقتصـاد ، وأتباع هـذه الفلسفة يـوجهون كـل اهتمامهم نحـو الإقتصاد ، ويغفلون عن بقيـة الخصـال الفـطريـة والطبيعية للإنسان، التي هي مصدر الكثير من النشـاطات الفـردية والإجتمـاعية . وأصبح الإقتصاد في المذهب الشيوعي أساس جميع الأمور الإجتماعية والعامـل المصيـري لجميـع شؤون البشـر في جميع مظاهـر الحيـاة . ويكـون التكـامـل الإجتماعي ، طبقاً لهذه النظريـة تابعـاً لتكامـل الإنتاج ، كمـا أن الإقتصاد هـو الحـاكم المطلق في حيـاة الإنسـان . وعلى هـذا الأسـاس فـإن جميـع الأفكـار الإجتماعية ، والسجايا الإنسانية ، ومكارم الأخلاق ، والعقائد الدينية والقرارات القانونيـة ، في جميع المجتمعـات البشريـة تتعلق بالأوضـاع الإقتصاديـة وكيفية الإنتاج .

الحقيقة أن للإقتصاد أثراً مُهماً وكبيراً في حيـاة الإنسان والكثيـر من الأمور الإجتماعية تتعلق به ، ولكن هذا لا يعني أن نعيد جميع التحـولات الإجتماعيـة إلى كيفية الإنتاج ، وأن ننسىٰ بقية العوامل .

خطأ الفلسفة الشيوعية :

إن الخطأ الكبير الذي ارتكبه مؤسسو الفلسفة الشيوعية ، هـو أنهم ابتعدوا عن الواقع لدىٰ بيانهم للقيم الإقتصـادية ، كمـا أنهم بالغـوا كثيراً بـالنسبةِ لتـأثير الاقتصاد في الأمور المختلفة للحياة ، واعتبروه العامل الوحيد الفاعـل في جميع

---

(١) المادية التاريخية ـ ص ١ .

المظاهر الإجتماعية ، ولهذا السبب فإن الكثير من العلماء المحققين اعتبروا هذه الفلسفة خاطئة ، وانتقدوها من نواحٍ كثيرة .

« يقول الدكتور كارل : بعض الأشخاص جعل المادة في المكانة الأولىٰ ولذا ضحوا بالأمور المعنوية مقابل الإقتصاد . الإنسان لم يُخلق للإستهلاك ، بل إنه منذ بدء تكامله اهتم بالجماليات . والشعور الديني والمباحث الفكرية ، والتصوّر الخلّاق ، والتضحية والحياة البطولية الحماسية ، ولو أن الإنسان اقتصر علىٰ نشاطه الإقتصادي لأصبح وكأن قسماً كبيراً قد انفصل عنه . ولذا فإن الليبرالية والماركسية سحقتا الرغبات الطبيعية الأساسية»[1] .

«يقول راسل : لقد ارتكب الإقتصاديون خطأً كبيراً إذ تصوّروا أن المحرك الأساسي في علم الإجتماع هو الإقتصاد ،

عندما يتوفر الإستقرار بدرجة معتدلة فإن الفرد والمجتمع يتوجهان إلى القوة عوضاً عن جمع المال حتىٰ إن الغالبية تعتبر الثراء وسيلة لاكتساب السلطة ، كما أنه يحدث عند السير نحو التسلط أن يُصْرَفَ النظر عن جمع المال . وفي جميع هذه الأمور نلاحظ أن المحرك الاقتصادي لم يكن الإقتصاد ، بل إن الدافع الأساس كان من قبلِ العوامل النفسية ، كطلب السيطرة»[2] .

«يقول صموئيل كينغ : إن نظرية ماركس التي تُبنىٰ علىٰ أن القوىٰ الإقتصادية تشملُ جميع جوانبِ الحياة الأخرىٰ لا تستند إلى الحقيقة الكاملة ، إن الحقائق الكثيرة التي حصلَ عليها علماء الإجتماع والكثير من العلماء، عن نظام المجتمعات البدائية وكذلك المجتمعات المتحضّرة ، تنفي بشكل محسوس ذلك الرأي القائل

---

(١) طريق الحياة ـ ص ٣٤ .

(٢) كتاب القدرة ـ ص ٢٥ . .

بأن النشاط الاقتصادي يسيطر على أي نشاط آخر. طبعاً لا يمكن إنكار أن النشاط الإقتصادي له تأثير كبير، على كل مجتمع ، وكذلك أن للإقتصاد ، بشكل من الأشكال ، تأثيراً على الجوانب الأُخرىٰ لحياة الإنسان . ولكن يجب أن نتذكر دائماً أن النشاطات الإقتصادية ، كما ثبت تقع تحت تأثير عوامل غير اقتصادية في المجتمع ، بأنه لا يمكن أحياناً ملاحظة ومعرفة أيهما السبب ومن هو المسبب .

في الحقيقة لا يمكن الشك في أن المحيط الطبيعي لأحد المجتمعات له تأثير في نشاطاته الإقتصادية ، كما أن لتقدم الفنون والعلوم في مجتمعٍ ما تأثيراً كبيراً على نشاطات ذلك المجتمع . بالإضافة إلى أن الدين والسياسة ، وبشكل عام النظم الإجتماعية لها تأثير في نوع اقتصاد ذلك المجتمع»[١] .

تنشأ النظريات الإفراطية أو التفريطية ، حول أي موضوع ، من قِصر فكر صاحب النظرية ، لأن لكل موجود في هذا العالم المنظّم حدٌّ وحجم وإمكانية معينة ، وكل شخص يُدرك القيمة الحقيقية والحدَّ الواقعي لموجود فإنه لن يُصابَ في حكمه عليه بأي إفراطٍ أو تفريط .

قال الصادق عليه السلام : «ما مِنْ شَيءٍ إلاّ وَلَهُ حَدٌّ»[٢] .

الاسلام والمسائل الاقتصادية :

اهتم الدين الإسلامي بالمسائل الإقتصادية من عدة نواحٍ ، وعيّن الحدود الحقيقية لكل جانب على أساس المصالح والمنافع المادية والمعنوية ، وتأمين السعادة للفرد والمجتمع . ولا يوجد في القرارات والضوابط الإسلامية نقص أو

---

(١) علم الإجتماع ـ ص ١٣٧ .
(٢) تحف العقول ـ ص ٣٦١ .

إفراط وتفريط ، لأن واضع القانون في الشرع المقدس هو الله الخالق ، تبارك وتعالىٰ ، خالقِ الكون ، العالِم بجميع الحقائق .

وكما أن القوانين التكوينية ، في نظام الخلق ، منزهةٌ من الإفراط والتفريط ، وأن الله عز وجل عيَّن الحدَّ الواقعي لكل موجود، كما هو ، كذلك لا يوجد إفراط وتفريط في القوانين التشريعية وأن الله تبارك وتعالى عين في الشرع المقدس الحد الحقيقي لكل شيء بشكل واضح .

إن القوانين التكوينية لله عز وجل تُنفذ بالإجبار ، ولهذا السبب فإن عظمةَ الخَلْق قائمةٌ بنظم حكمتِه تعالىٰ . وأما تنفيذ القوانين الشرعية للخالق سبحانه فإنه تحت اختيار الإنسان . فلو أن الناسَ نفذوا القرارات الإقتصادية وسائر التعاليم الإلٰهية ، فإن الفرد والمجتمع يطوي طريق كمال سعادتهِ ونجاحه ويصل إلى الهدف . وأما إذا تخلفا عن ذلك فإن سعادتهما ونجاحهما يتعرضان للضرر أو الإصابة بنفس النسبة ، ويختل حسن التفاهم والتنسيق في العائلة والمجتمع .

القضايا الإقتصادية في الإسلام كثيرة وواسعة ، ويمكن دراستها من وجوه وجوانب متعددة . ولكن في هذا الفصل ، وبمناسبة موضوع الكتاب ، فإن الحديث سيدور حول بعضها ، الذي يؤثر في حسن التفاهم أو الإختلاف في العائلة والمجتمع .

دور الاقتصاد في العائلة والمجتمع :

نحن نعلم أن الإقتصاد السليم والمتوازن بإمكانه أن يترك أثراً في العالم الصغير (العائلة) وفي العالم الأكبر (الوطن) ليتنعما بنعمة الأمن والراحة . والإقتصاد المريض وغير المتعادل أيضاً بإمكانه أن يجعل العداء بين أعضاء العائلة والمجتمع ويبدل محيط التفاهم والصفاء إلى جوٍ مشحون بالعداء والشجار .

إن مجموع مواضيع هذه المحاضرة يتلخص في ثلاثة عناوين . ١ ـ حب

المال ٢ ـ كسب المال ٣ ـ صرف المال .

وسنقدم توضيحاً لكل عنوان مع بيان رأي الإسلام بالنسبة لـه ، ومن جهة أخرىٰ الآثار السيئة للإفراط والتفريط بالنسبة لكل عنوان .

الانسان وحب المال :

النـاس جميعهم يحبـون المـال ، ولكن بنسب متفـاوتـة ، لكن مـا جـرىٰ البحث حـوله هـو : هـل أن حبّ المـال ودافـعَ التملك فـطري وغـريـزي ، أم اكتسابي ؟ يعتقد البعض أن مسألة التملك عملٌ غريزي موجود في طبيعة ووجود الإنسـان ، ويقول هؤلاء إن الحيـوانات أيضـاً تمتلك هذه الغـريزة حيث تجمـع بعض الأشياء وتعتبرها مُلكاً خاصاً بها .

وسيلة لاشباع الغرائز :

برأي العلماء والمحققين، إن حبَّ المال ودافعَ التملك ليس غريزة طبيعية مستقلة ، وليـس له جذور فطريـة في وجود الإنسان ، وإنمـا هو وسيلة لإرضـاء غرائز وإشباع ميول طبيعية وأهواء نفسية .

إن الإنسـان يستطيـع ، بـامتـلاكـه للثـروة ، أن يُلبي حـاجـاتِـهِ الحيـاتيـة وضروريـاتِهِ مثل الغذاء ، والملابس والسكن ، وغيرها وعن هذا الطريق يُشْبـع غريزة حفظ الـذات وحبّ الحياة والإستمـرار في حياتـه بكل استقـرار وهدوء ، كمـا يُشبـع غريزتهِ الجنسية .

الإنسان يستطيع عن طريق التملك وجمع المال أن يُـوفِّر وسـائل الحفـاظ على أبنائه وتربيتهم طبقاً لما يريده فيلبي عن هذا الطريق رغبته في أن يكـون له أولاد. والخلاصة أن الثروة بإمكانها أن تلبي الكثير من الرغبات الفطريـة والميول الغريزية وتُحققها .

كذلك فإن تصرفـات حالـة التملك لدىٰ الحشـرات والحيوانـات ليس لها جذور مستقلة ، فطرياً وبيئياً ، وليست ناجمة عن دوافـع غريـزية ، وإنمـا تكون دوافع التملك لديها ، كما لدىٰ الإنسان ، وسيلة لتلبية الغرائز الطبيعية .

التملك على أساس الحاجة :

«بدأ (بيغل هول) بدراسة دلائل تصرفات التملك لدىٰ أنواع مختلفة من الحيوانات والحشرات ، وتوصل إلىٰ نتيجة عامة وهي أنه رغم أن تصرفات التملك لدىٰ هذه الحيوانات والحشرات كثيرة إلّا أنها لا يُمكن أن تعتبر هدفاً مستقلاً يُمكن بيانُه ، بل إنها وسيلة لإرضاء احتياجات البدن الأساسية .

إن الحيوانات تسعىٰ لامتلاك أشياء تحتاجها لأهداف معينة . والتملك الأساسي يتمثل بالغذاء والأنيس والبيت والوطن . ورغبة التملك في الحيوانات تتمثل غالباً في تلبية حاجات الجوع ، والتناسل ، والمحافظة على الأولاد .»[1] .

بالإضافة إلى الغرائز المشتركة الموجودة بين الإنسان والحيوان التي تُشبَعُ عن طريق تملك الأشياء والأموال ، توجد بعض الرغبات الخاصة الأُخرىٰ في وجود الإنسان تُلَبّىٰ أيضاً عن طريق امتلاك الثروة .

الإنسان لديه غريزة حبّ التسلط ،ولذا فإنه يستطيع بجمع الثروة أن يصبح قوياً ومقتدراً يتفوق بها علىٰ الأفراد العاديين ، ويُشْبع رغبته في هذا المجال بتلبية غريزة حبّ السيطرة .

والإنسان يحب الجمال والشهوة وكسب الفخر ، والثروة بإمكانها إلى حد كبير أن تلبي هذه الرغبات . إن بعضَ الناسِ يعتقدون أن الثروة تجلب الجمال والمكانة الإجتماعية لصاحبها ، وكذلك تمنحه الشخصية والعظمة . الأغنياء يعتبرون ازدياد المال سبباً للإفتخار والرّفعة ، ونقصانه فشلاً وحقارة .

الملكية وعظمة الشخصية :

«يعتبر وليام جيمس (الغنىٰ) في المجتمع بمثابة شهرة للشخصية ،

(١) علم النفس الإجتماعي ج ١ ص ١٠٤ .

أو نوعاً من زيادة الحجم النفسي . ويقول إنَّ الـ (أنا) ، بأوسع معانيها ، تعني مجموعة الأشياء التي يمكنه أن يدعي امتلاكها ، وهذه الأشياء لا تشمل فقط الجسم والقوىٰ النفسية ، بل اللباس والبيت والأرض وحسابه في المصارف أيضاً ، وجميع هذه الأشياء تُوجِدُ لديه شعوراً واحداً ، كما أنه يشعر بالقوة فيما إذا زادت لديه هذه الأشياء وأما إذا نقصت وانعدمت فإنه سيشعر بالحقارة والصَّغار. ورغم كل ذلك يجب أن نشير إلى نقطةٍ مهمة وهي أن العلاقة بين الشخص وثروته هي نتيجة التقاليد والعادات لدىٰ الجميع ، فإذا كان الناسُ يشعرون أن الشخصية لديهم ترتبط بنسبةِ ثروتهم فلأنَّ مجتمعهم يُعيرُ أهميةً كبرىٰ للثروة»(١) .

حب المال :

رغم أن حب المال وطلبه ليس فطرياً وغريزياً ، إلاَّ أنه اكتسب هذه الصفة تدريجياً لأنه عامل مؤثر في إدارة دفّة الحياة ، وإرضاء الغرائز ، واكتساب السيطرة، وبإمكانه أن يُلبي الكثير من رغبات الإنسان ويعزز شخصيته ، حتىٰ أصبح مطلوباً من قبل الإنسان . وبهذا الصدد يقول القرآن الكريم : **﴿وإنه لحبِ الخيرِ لشديد﴾**(٢) .

إن طلب المال سبب للتحرك الإجتماعي ، وإدارة العجلة الإقتصادية إذ يدفع الإنسان إلى السعي لتأمين الحياة . وحفظ الشرف الإنساني الذي هو من الواجبات الدينية المقدسة ، ولو كان طلب المال معتدلاً وبالميزان الصحيح ، ولا يتعدى حدود مصلحة الفرد والمجتمع فإنه مقبول من قبل أولياء الإسلام .

عن عمرو بن جميع قال : سمعت أبا عبدالله (الصادق) عليه‌السلام يقول : «لا خيرَ فيمن لا يُحب جمع المال من حلالٍ يَكُفُّ به وجهه ، ويَقْضي به دَيْنَهُ

---

(١) علم النفس الإجتماعي ج ١ ص ١١٠ .
(٢) سورة العاديات ؛ الآية : ٨ .

ويَصِلُ به رحِمَهُ»[1] .

إذا تجاوز حب المال حد المصلحة العامة ، وأصبح رغبة عصبية . وصار حبّاً شديداً في وجود الإنسان ، فإنه لن يكون مقبولاً من قِبَل الإسلام، بل يكون مذموماً . إن مثل هذا الحب يسلب عقلَ الإنسان ، ويعمي البصيرة ، ويصمّ الآذان ،ويدفع بالإنسان إلى السقوط .

قال عليٌّ عليه السلام : «حبُّ الدنيا يُفسِدُ العقل ويُصِمُّ القلب عن سماع الحكمة»[2] .

معيار التفوق :

إن الحبَّ الشديد للمال يحجب العقل ، ويمنع الإنسان من إدراك الحقائق . كما أن عشّاق المال والثروة لا يهتمون بمكارم الأخلاق والفضائل الإنسانية ، ولا يعتبرون هذه الصفات معياراً للشخصية ، بينما المال عندهم هو المعيار الوحيد للتفوق والعظمة ، والمقياس الوحيد للقيم والإحترام الإجتماعي ، وفي رأيهم أنهم كلما ازدادوا ثروة كلما زيد في احترامهم وتقديرهم .

لسوء الحظ أن عشّاق الثروة ينقلون مرضهم النفسي هذا إلىٰ أبنائهم أيضاً ، ويسعون إلى جعلهم في مثل أخلاقهم يصرفون جُلَّ اهتمامهم لجمع المال والثروة ، ويغفلون عن سائر القيم الإنسانية .

رُوي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه نَظَرَ إلى بَعضِ الأطفال فقال : «وَيْلٌ لأولادِ آخر الزمان من آبائهم . فقيلَ : يا رسولَ الله مِنْ آبائِهم المشركين ؟ . فقال : لا ، من آبائِهم المؤمنين لا يُعلِّمونهم شيئاً من الفرائض وإذا تعلَّموا أولادهم

(١) وسائل الشيعة كتاب التجارة ـ ج ٤ ص ١٠٢ .
(٢) غرر الحكم ـ ص ١١١ .

منعوهم ورضوا عنهم بِعَرَضٍ يسير من الدنيا ، فأنا منهم بَريءٌ وهم مِنّي برآءُ»[1] .

حب المال والأخطار الأخلاقية :

إذا استسلم عشّاق المال دون قيد أو شرط لأهوائهم هذه فإنهم يتعرضون لأكبر المخاطر الأخلاقية والإنسانية . فهم للوصول إلى هدفهم ومبتغاهم ، وهو المال ، وجَمْعِهِ أكثر فأكثر ، يديرون ظهورَهم للعدل والإنصاف والحقّ والفضيلة ويتنكرون لحبِّ بني جنسهم ، ويُزيلون العواطف الإنسانية من أذهانهم .

﴿كلا بل لا تُكرمون اليتيم ، ولا تحاضّون علىٰ طعام المسكين ، وتأكلون التُّراثَ أكْلاً لَمّاً ، وتُحبون المالَ حبّاً جَمّاً﴾[2] .

إن حبُّ المال أحياناً ، وبفعل شدة التأثير على الإنسان يجعله لا يستحي من القيام بأي عمل ، ولا يتورع عن ارتكاب أية جريمة ، يرىٰ الباطلَ حقّاً ، والقبيحَ جميلاً .

لقد حدث كثيراً ، طوال تاريخ البشر أن عبيد المال ، وفي سبيل الوصول إلى الثروة ، قتلوا الكثيرين ، وسفكوا الدماء ، وداسوا الحرمات ، وهتكوا الأعراض ، وأحدثوا أضراراً لا يمكن تعويضُها .

ولسوء الحظ فإن أمثال هؤلاء لشدة حبّهم للمال ، لا يشبعون منه أبداً ، بل إنه كلما زادت ثرواتُهم يشعرون بفقر ونقص ، ويأملون في زيادةِ ثرواتهم ، وبالتالي يكونون أكثر نهماً وحرصاً .

قال عليٌّ عليه السلام : «الحريصُ فقيرٌ ولو مَلَكَ الدنيا بحذافيرِها»[3] .

عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام أنه قال : «من تعلّق قلبُهُ بالدنيا تعلّق

(١) مستدرك الوسائل ج ٢ ص ٦٢٥ .
(٢) سورة الفجر ؛ الآيات : ١٧ ـ ٢٠ .
(٣) غرر الحكم ـ ص ٦١ .

قلبُهُ بثلاث خصال : هَمٌّ يُفني ، وأملٌ لا يُدركُ ، ورجاءٌ لا يُنال»(١).

مرض نفسي :

إن عشاق اكتناز المال مصابون بنوع من الأمراض النفسية والعصبية ، وهم في هذا المجال مسلوبو الإرادة ، ينجذبون لأهوائهم ، التي تنشط في وجودهم رغماً عنهم ، ولكي يبقوا بعيدين عن الأخطار ، ولا يعتدوا علىٰ حقوق الآخرين ، ولا ينحرفوا عن جادّة الحق والعدالة ، من الضروري أن يذكروا الله عز وجل دائماً ، ويكبحوا هذه الرغبات المتمردة بقوة الإيمان وبموازين القانون والأخلاق ، ويراقبوا أنفسهم في أن لا يخطوا خطوة خارج حدود الحق في سبيل الحصول علىٰ المال والثروة ، ولا يتمرغوا في الخطيئة والخيانة ، لئلّا يقعوا في مهاوي السقوط والتعاسة . والقرآن الكريم يوصي أتباعَهُ في هذا المجال :

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تُلهِكُم أموالكُم ولا أولادكُم عن ذكرِ الله ومَنْ يفعل ذلك فأُولئك هُمُ الخاسرون﴾(٢) .

الاعتدال في حب المال :

إن حبَّ المال إذا كان معتدلاً فإنه مقبول في الدين الإسلامي . كما أنه ، من جهةٍ أُخرىٰ ، يدفع الإنسان إلى التحرك الإقتصادي الصحيح ، والسعي للحصول علىٰ المعاش ، ويُبعد الكسل والبطالة ، ولا يبعث علىٰ الإفراط واللامبالاة والطمع والشرِّ الذي ينتج عنه ، وعليه فإن حبّ المال المعتدل يمهّد الأرضية للإنسجام وحسن التفاهم في العائلة والمجتمع .

وأما حبّ المال الشديد فإنه مذموم لدىٰ أولياء الدين الإسلامي . إنه يوجد البخل الذي يدفع الشخص البخيل إلى التشدد مع عائلته من جهةٍ ، ومن جهةٍ أُخرىٰ يبعث علىٰ الولع والحِرص الذميم الذي يدفع الإنسان إلى الإعتداء

---

(١) الكافي ـ ج ٢ ـ ص ٣٢٠ .
(٢) سورة المنافقون الآية ٩ .

علىٰ حقوق الآخرين ، وهـذه الصفة ، من صفـات حبِّ المـال ، سبب من أسباب الإختلاف في العائلة والمجتمع .

كسب المال :

إن النشاطات الإقتصادية ،والعمل ،والسعي للحصول علىٰ المال ، إذا كان معتدلاً وبهدف تـأمين العيش فإنـه مقبول من قبـل أولياء الإسـلام حيث يؤكدون هـذا الواجب المقـدس على أتباعِهم ، فقـد بشّروهم بـأن أجْـرَ السعي لتـأمين العيش يساوي عند الله عز وجل أُجْـرَ الجهاد في سبيله سبحـانه وتعـالىٰ . وعكس ذلك فـإن السّعي لاكتساب المـال الناتـج عن البخـل والحِـرْص بهـدف اكتنـازه وازدياده والتباهي به ، فإنه مذموم وغير مقبول ، ويحذّرُون أتباعهم منه .

كان صلى الله عليه وآله وسلم جالساً مع أصحابه ذات يوم فنظر إلى شابٍ ذي جَلَدٍ وقوة وقد بَكَـرَ يسعىٰ ، فقـالـوا : ويـح هـذا لـو كـان شبـابُـهُ وجَلَدُهُ في سبيـل الله ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «لا تقولوا هذا فإنه إن كـان يسعىٰ علىٰ نفسِهِ ليكفَّهـا عن المسئلة ويُغنيهـا عن الناس فهـو في سبيلِ الله ، وإن كـان يسعىٰ علىٰ أبوين ضعيفين أو ذُرّيةٍ ضِعافٍ ليُغنيهم ويكفيَهُم فهو في سبيل الله ، وإن كان يسعىٰ تفاخُراً وتكاثُراً فهو في سبيل الشيطان»(١) .

عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام أنه قال : «إيـاك والضَّجر والكسـل إنهما مفتاحُ كلِّ سوءٍ إنَّهُ مَنْ كَسِلَ لم يُؤَدِّ حقّاً ومن ضَجِرَ لم يصبر علىٰ حقّ»(٢) .

وعنـه عليه السلام : «ليكُن طلبُـكَ المعيشـة فـوق كَسبِ المُضيـعِ ودون طلبِ الحريصِ الراضي بدنياهُ المطمئن إليها»(٣).

نستخلص من هـذه الأحاديث الشـريفـة بـوضـوح أن النشـاط الإقتصـادي وكسب المال في حدود الإعتدال موضـع قبول وتشجيـع الدين الإسـلامي ، وأن

(١) المحجة البيضاء ـ ج ٣ ـ ص ١٤٠ .
(٢) وسائل الشيعة كتاب التجارة ـ ج٤ ـ ص ١٠٥ .
(٣) مجموعة ورام ـ ج ١ ـ ص ١٣ .

أولياء الدين الإسلامي الكرام يعتبرون الكسل والبطالة في حكم الأعمال المذمومة ولذا يعارضونهما بشدة ، كما أنهم يرفضون اكتناز المال والبخل ، ويحذرون أتباعهم من ذلك ، وبين هذين الأسلوبين الإفراط والتفريط ، مَدَحوا الإعتدال العاقل وأوجبوه علىٰ الناس .

العمل والحياة الشريفة :

إن الحياة الكريمة توجب علىٰ الإنسان أن يكون له عمل في المجتمع ، يعتاش منه ، ومن لا يملك مالاً ويريد أن يعيش دون عمل ويؤمن عيشه وعيش عائلته ، فإما أن يحصل علىٰ المال عن طريق السرقة أو عن طريق الأعمال غير المشروعة ، كاغتصاب أموال الآخرين ، أو الإستجداء ، وتحمل ذل السؤال أو الاتكال على أرزاق الآخرين ، وهذه الأعمال تتنافى مع التعاليم الإسلامية .

قال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم : «ملعون مَنْ ألقىٰ كَلَّهُ علىٰ الناس»[1] .

كان للإكتساب والعمل من أجل العيش مكانة مهمة لدىٰ الأئمة الطاهرين عليهم السلام بحيث إنهم ما كانوا ليسمحوا للمؤمنين بترك العمل من أجل عبادةٍ أكثر .

روىٰ علي بن عبد العزيز عن أبي عبد الله (الصادق) عليه السلام قال : قال لي : «ما فَعَلَ عمرُ بنُ مسلم ؟ قلت : جُعلت فداك أقبل علىٰ العبادة وترك التجارة . فقال : ويحَهُ ، أما عَلِمَ أَنَّ تاركَ الطلب لا يُستجابُ له دعوات ؟»[2] .

الاسلام والسعي إلى الرزق :

إن مَنْ يعمل بجدٍ ونشاط وهدفُهُ أن يكون عضواً نافعاً في المجتمع ، ويحصل على المال عن طريق مشروع ، ويؤمّنُ حياته وحياة عائلتِهِ بشرفٍ ولا

---

(١) تحف العقول ـ ص ٣٧ .

(٢) لئالىء الأخبار ـ ص ١٣٣ .

يحتاج للناس ، ويكون عزيز النفس فإنه يحظىٰ في الدين الإسلامي بالإحترام والتكريم .

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : «مَنْ طلبَ الدنيا حلالاً ، إستعفافاً عن المسئلةِ وسعياً علىٰ عيالِهِ وتعطّفاً علىٰ جارِهِ لقيَ الله ووجهُهُ كالقمرِ ليلةَ البدر»[١] .

الإسلام دينُ الشرفِ والفضيلةِ وعزّةِ النفسِ والحريّة ، ومن أرادَ أن يكون مسلماً حقيقياً ، ويتّبع بشكل تام تعاليمَ الإسلام ، عليه أن يبتعد عن الذلّةِ والحقارة وأن لا يتنازل عن حريتِهِ مقابل أي شيء .

رُوِيَ أن أمير المؤمنين عليه السلام مرَّ بقصّابٍ وعنده لحمٌ سمين ، فقال : يا أمير المؤمنين هذا اللحمُ سمين إشترِ منه . فقال عليه السلام : ليسَ الثمنُ حاضِراً . فقال : أنا أصبُر يا أمير المؤمنين . فقال له : أنا أصبُر عن اللحم[٢] .

الأحرار والاستقلال :

رغم أن التعاملَ التجاري بـ (الدَّين) مسموح في الإسلام ، ولكن الإنسان العزيز النفس لا يقوم بهذا العمل إلّا عند الضرورة ، لأن (المَدين) طالما لم يدفع دَينَه فإنه يشعر دائماً بأنه مقيد ، والأحرارُ الأُباةُ يشعرون بثقل الدَّين حتىٰ ولو كان قليلاً لأنه يَنالُ من عزّتهم واستقلالهم .

ولسوء الحظ فإن أشخاصاً ، في عصرنا هذا ، بسببِ طمعهم في التجارة ، أو لحبِّهم للتجمّل والمفاخرة في العائلة ، يقومون بشراء أشياء بالدّفعِ المؤجل ، أي الأقساط ، فيحملون على عاتقهم التزاماً ثقيلاً ، ويُشغلون أفكارهم ، ويتنازلون عن حريتهم ، وقد يعجزون أحياناً عن دفعِ الأقساط ، فيذهب حياؤهم ، ويتوسلون للدائن ويطلبون منه مهلةً للدفعِ ، ويعرضون بذلك أنفسهم للذلّة والمهانة .

ومن الواضح أن الإمام علي عليه السلام عندما يأبىٰ لتأمين غذاء يومِهِ شراء

(١) مستدرك الوسائل ـ ج ٢ ـ ص ٤٢٤ .
(٢) لئالىء الأخبار ـ ص ١٢٧ .

اللحم بالدين ، مهما كان قليلاً ، فإنه يستاء عندما يرىٰ إنساناً يتخلىٰ عن العمل رغم استطاعتِهِ ويلتجىء إلى طريق الذل للحصول على قوتِهِ اليومي . إن أولياء الإسلام الكرام ، ولكي يصونوا أتباعهم من ذلّ السؤال ويحتفظوا بالشرفِ وعزّة النفس ، يوصونهم بالعمل في أصعب الظروف والشروط لتأمين لقمة العيش والإستغناء عن الآخرين .

جاءَ رجلٌ إلى الإمام الصادق عليه السلام فقال إنه لا يملك يداً سالمةً ولا مالاً ليتاجِرَ به ، قال ذلك وكأنه كان يريد الحصول على موافقةِ الإمام عليه السلام بطلب مساعدة الناس ، ولكن الإمام رأى أن الرجل يملك جسماً سالماً فأبىٰ عليه أن يحطم عزّته وشرفه بذلِ السؤال فقال له :

«إعمل واحمل علىٰ رأسِكَ واستغنِ عن الناس»[1] .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «لئن يحتطب الرجل علىٰ ظهرِه يبيعُهُ ويستغني به ويتصدق بفضلِه خيرٌ من أنْ يسألَ رجلاً آتاه اللّهُ من فضلِهِ فيُعطيهِ أو يمنعُهُ»[2] .

دفع العاطلين إلى العمل :

إن أحد الأعمال المقبولة هو دفع الأشخاص الذين يريدون العيش عن طريق مشروع ، إلى العمل ، وكذلك تشجيع من يملكون أموالاً أن ينشئوا مؤسسات ويوجِدوا أعمالاً للأفرادِ الأقوياء وأمثال هؤلاء الأشخاص ، في رأي الإسلام ، ينالون توفيقاً كبيراً وحياةً حسنة .

قال علي بن شعيب دخلتُ على أبي الحسن الرضا عليه السلام فقال لي : «يا علي من أحسنُ الناسِ معاشاً ؟ قلتُ أنتَ يا سيدي أعلم به مني . فقال عليه السلام : يا علي مَنْ حَسُنَ معاشُ غيرِهِ في معاشِه»[3] .

---

(١) المحجة البيضاء ـ ج ٣ ـ ص ١٤٣ .
(٢) مجموعة ورام ـ ج ٢ ـ ص ٢٢٩ .
(٣) تحف العقول ـ ص ٤٤٨ .

إن العمل والنشاط الإقتصادي يبعثانِ على الإعتماد علىٰ النفس ويقويان الشخصية ، ويمنحان الإنسان العزّةَ والشرف . كما أن السعي للحصول علىٰ ضروريات العيش دليل علىٰ معرفةِ الواجبِ الإجتماعي والإستغناء عن الآخرين .

إن العمل والجهاد في سبيل تأمين الحياة الشريفة سببٌ للفخر وعاملٌ من عواملِ التفاهم العائلي والإجتماعي . وإن الشخص الذي يكد ويجتهد لتأمين حياتِهِ وحياةِ زوجتِهِ وأبنائِه فله عند الله عز وجل أجر ويحظىٰ لدىٰ عائلته وفي مجتمعهِ بالتكريم والإحترام .

وأما الذين يرفضون العمل ، وهم في حياتِهم عبءٌ علىٰ الآخرين ، أمثال هؤلاء يعيشون في ذل وحقارة ، ويفتقرون لأيةِ قيمة في نظر عائلتهم ومجتمعهم ، وينظر الناسُ إليهم نظرة احتقار .

الارتزاق من التسول :

إن هذه المجموعة لو أرادت الإرتزاق عن طريق الإستجداء والخضوع لذل السؤال ، فإنها تواجه غالباً بالإختلافات وعدم التفاهم في محيط العائلة ، لأن أبناء هؤلاء الأشخاص ونساءهم يشعرون بالخجل لتصرفِ هؤلاء الرجال الذليل ، ويستولي عليهم إحساسٌ بالحقارة ، فيواجهونهم باللوم والتقريع لعملهم غير المقبول .

وأما إذا أمَّنوا عيشهم عن طريق السرقة ، والجرائم ، والأعمال غير المشروعة الأُخرىٰ ، فإن الإختلاف والشجار يكون أشد ، لأن أفراد العائلة يتذمرون ويَشْكونَ من خزيِ هذه الحياة ، ويغلبُ علىٰ عدم رضاهم وقلقهم طابع الخشونة ، ويبدون اعتراضهم ، ومن جهةٍ أُخرىٰ يعترضُ عليهم الناسُ ، ويُسلمونهم إلى السلطة القضائية لاعتداءاتهم وإيجاد جوٍ غير آمن لينالوا جزاءهم .

البطالة وسقوط الشخصية :

والحقيقة أن البطالة وكون الإنسان عالة على المجتمع ما هما إلاّ قتلٌ للشخصية وسحقٌ للشرفِ الإنساني . إن الشخصَ القوي الذي يستطيع أن يحصل على لقمة العيش عن طريق مشروع ولكنه يمتنع عن ذلك إنما يقضي على قيمته الإجتماعية ، ويدفع بنفسِهِ نحو هاوية السقوط .

كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا نظر إلى رجلٍ فأعجبه قال : «هل له من حِرفَةٍ ؟ فإن قالوا : لا . قال : سَقَطَ من عيني»[1] .

الجدير بالذكر أن ممارسة الآباء لأعمال مشروعة من أجل تأمين متطلبات حياة أُسرهم أمر غير كافٍ ، بل يجب عليهم أن يدفعوا أبناءهم الشبان للسعي والعمل ، ويتشاوروا معاً في انتخاب العمل ، وهذا العمل بحدِّ ذاتِهِ من شروط إيجاد الإنسجام وحُسنِ التفاهم في محيط العائلة .

الشباب والاستقلال الاقتصادي :

إن فترة الشباب ، ومرحلة تكوين الشخصية والاعتماد على النفس ، هي أحد العوامل لإحراز الشخصية والاستقلال الإقتصادي ؛ فالشاب يضغط على الجيل السابق له ليجد لنفسِهِ مكاناً ، ويجد عملاً ، ويفتح طريقاً لنشاطاته الإقتصادية ليحصل على كسب مالي ، وهو لا يحصل على الاعتماد على النفس طالما لم يصل إلى هدفِهِ ولم يحصل على عمل ، أو أنه لم يحدد تخصصه الدراسي للحصول على عمل في المستقبل ، ويكون قلقاً على مستقبله ، ويرى شخصيته ضعيفة ، ومعنوياته مضطربة ، وكلما طال هذا الوضع يزداد اضطرابُهُ النفسي . وفي هذه الحالات يُصبح الشاب عنيفاً ، ويعسر التفاهم معه ، ويظهر ردود فعل شديدة لأسباب تافهة في محيط العائلة والمجتمع .

---

(١) بحار الأنوار ـ ج ٢٣ ـ ص ٦ .

وعندما يحصل علىٰ عملٍ يكسب من خلاله عائدات مالية مستقلة يغرقُ في الفرح والسرور ، ويشعر أنه يعتمد علىٰ نفسِهِ وله شخصية ، وتنتهي أحاسيس القلق ويطمئن قلبه ، ويسير بفخر واعتزاز ، مرفوع الرأس بين الناس ، ويود أن يعرف الناسُ جميعاً أنه قد نال نصيباً من النجاح ، وها هو قد أصبح عضواً نافعاً في المجتمع .

«للعمل وكيفية انتخابِهِ دور مباشر في إثبات شخصية الشاب ، لأن ذلك دليل علىٰ حريته ، وأنه يستطيع من الآن فصاعداً أن يستفيد من وسائلِهِ الخاصة للإستمرار في الحياة ، ولهذا السبب فإن الحصول علىٰ أول كسب مالي يكون مفرحاً ، وتكون النتيجة أن يحصل الشخص على مشاعر الاعتماد علىٰ النفس فينتشي حتى قمة رأسه . إن الشابَ الجامعي الذي لم يحصل على كسب مالي بعد، بل يحتاج إلى مساعدة مالية يشعر بنوع من الذلّة الغامضة ، وهو يرضىٰ ، على الأقل ، بأن يشعر بلذةِ تحصيل مصروفه اليومي»[١] .

الشاب واختيار العمل :

إن قضية انتخاب العمل في حياة الشباب من أهم المسائل الصعبة . لأنه يجب أن يكون العمل موافقاً لرغبة الشاب ، وليس أن يكون مفروضاً عليه ، هذا من جهة ، ومن جهةٍ أُخرىٰ إن أغلب الشبان ، ونتيجة عدم تجربتهم ، لا يطمئنون لأنفسهم ولا يجرؤون علىٰ انتخاب عمل بتصميمٍ وعزمٍ من أنفسهم .

بعبارة أُخرىٰ ، إن انتخاب عملٍ يعني قبول مسؤولية اجتماعية ، فالشاب يميل إلى أن يدرس بنفسِهِ وبحرية الأعمال المختلفة ، من كافة الجوانب ، وينتخب العمل الذي يوافقُ ميله واستعدادهُ الشخصي ، عندها يأخذ علىٰ عاتقِهِ مسؤولية العمل بشوق وإرادة وجدّية ، فيحصل بذلك علىٰ كسبٍ مادي ، وبذلك يثبت شخصيته . ولكن أكثر الشبان يخشون من خوض غمار ذلك ،

---

(١) ماذا أعلم ـ البلوغ ص ٧٨ .

لأنهم يشكّون في صلاحيتهِم وإمكاناتهم ، ويخافون قبول المسؤولية ، وينظرون إلى مستقبل الحياة بقلق واضطراب ، ويشعرون بعدم ارتياح لمستقبلهم ، ويخشون الفشل والهزيمة من أن لا يتمكنوا من مواجهة المستقبل ومواكبة المجتمع والحصول علىٰ المزايا الإجتماعية .

ولكي لا ينحرف الشبانُ ويضرّوا حياتهم ويفقدوا سعادتهم نتيجة التخطيط الخاطىء عليهم أن يتركوا الغرور والتعصب ، وأن يستفيدوا من أفكار وتجارب الكبار المحبين للخير ، وباستشارتهم يعيّنون خطَّ مسيرهم، وبذا يمهدون الطريق للنجاح والفلاح .

ولقد أوجبَ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ الآباء أن يساعدوا أبناءهم الشبان في انتخاب العمل الحَسَن اللائق بهم ، وجعل صلى الله عليه وآله وسلم هذا الواجب المقدس في مصافِّ حقوق الأبناء :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «يا عليُّ : حقُّ الولدِ علىٰ والدِهِ أنْ يُحْسِنَ اسمَهُ وأدَبَهُ ويضعَهُ مَوضِعاً صالحاً»(١) .

عن أبي الحسن موسىٰ الكاظم عليه السلام قال : «جاءَ رجلٌ إلىٰ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله ما حقُّ ابني هذا ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : تُحسنُ اسمَهُ وأدبَهُ وضَعْهُ موضِعاً حَسَناً» (٢) .

يتضح في هذين الحديثين أن العمل من أجلِ الأبناء يقع علىٰ عاتقِ الآباء مع اختلاف أن الحديث الأول ذكر (موضعاً صالحاً) وفي الحديث الثاني (موضعاً حسناً) . إن ذكر العمل الصالح والحَسَن في هذين الحديثين يمكن توضيحه بأشكال مختلفة :

الكسب الحسن والسيء :

أولاً : إن بعض الأسماء حَسَنة وبعضها سيئة ، وبعض أنواع التربية سيئة

---

(١) بحار الأنوار ـ ج١٧ ـ ص ١٨ .

(٢) وسائل الشيعة كتاب النكاح ـ ج ٥ ـ ص ١٢٦ .

وبعضها جيدة ، بعض الأعمال التجارية من حيث الشرع والمنافع الإجتماعية حسنة وبعضها سيئة . وكما أن القسم الأول والثاني من الحديث يوجب علىٰ الآباء أن يختاروا الأسماء الحسنة ويربوهم تربية صالحة وبأدب ، كذلك القسم الثالث من الحديث يكلف الآباء بوضع الأبناء موضعاً حسناً في الأعمال للكسب الصالح المباح ، وليس للطمع في جمع المال ودفعهم للأعمال السيئة والكسبِ الحرام . وهذا يعني العدالة في الثروات ، أي أن الآباء يجب عليهم أن يشرفوا علىٰ الأبناء وأن لا يترعرعوا عاطلين ويكونوا حملاً علىٰ المجتمع ، ولا يكونوا من الذين يكتنزون الأموال ويشتغلون بالأعمال المحرمة .

والمراد من (العمل الصالح) هو الكسب الحلال المنزه الذي يوافق تعاليم الإسلام في التجارة .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «طوبىٰ لعبدٍ طابَ كسبُه»[١] .

اختلاف الكفاءات :

ثانياً : الناسُ من حيث الهيكل الجسمي والصفاتِ الموروثة ليسوا متساوين ، فكما أن المظهر والشكل والعين والصفات الأُخرىٰ الظاهرية تختلف ، كذلك الاستعدادات والكفاءات المعنوية والنفسية تختلف أيضاً .

«يتمكن البعض من أداء أعمال لا يتمكن من القيام بها من هم أقل ذكاءً أو الجاهلون والضعفاء .

لقد خلق البعض للتفكير والبعض الآخر للعمل . وهذا يعني أن مجموعة تمتلك فطرياً موهبة القيادة ، بينما مجموعة أُخرىٰ تعجز حتىٰ عن إدارةِ نفسِها»[٢] .

وعلىٰ هذا الأساس ، فإن العمل الصالح والحَسَن لكل شخص هو ذلك

---

(١) تاريخ اليعقوبي ـ ج ٢ ـ ص ٥٩ .
(٢) طريق الحياة ص ١٤٩ .

العمل الذي ينسجم مع البناء الجسمي والطبيعي لذلك الشخص . فإذا كان هذا العمل منطبقاً مع الاستعداد النظري للشخص فإنه يتمكن من أداء ذلك العمل بصورة جيدة وحَسَنة ويحصل على النجاح فيه بسهولة .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إعملوا فكلٌ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له»[1] .

إن معرفة الكفاءة في انتحاب العمل المناسب ، في عالم اليوم، هي أحد عوامل النجاح المهمة في حياة البشر وقد حَظيت هذه المسألة باهتمام الخبراء في المؤسسات الخاصة لتقديم الاستشارات والتوصيات ، فهم يسألون عن رغبات الشبان ، ويدرسون كفاءاتهم بدقة وبعد ذلك يُعيّنون لهم الأعمال التي تناسبهم .

إستشارة أصحاب الخبرة :

«عندما يصل الأشخاص إلى مرحلة الشباب ، فإنهم إما أن يكونوا قد بدأوا تعلّم المهنة التي يريدونها ، أو بدأوا بدراسةِ الأرضية التي يريدونها للعمل في المستقبل ، وعليه فإنهم يعرفون الطريق الذي يجب أن يسلكوه لذلك ، ولكن رغم ذلك يجب عليهم أن يستشيروا الأشخاص ذوي الخبرة والواعين ويعملوا تحت إشرافهم واليوم يوجد في الكثير من دول العالم مراكز لهذا الهدف يعمل فيها الخبراء المستعدون لتقديم الاستشارات والتوصيات للمراجعين ودراسة حالاتهم ، فَهُم بعد دراسة الرغبات والكفاءات الذاتية للمراجعين يبدون آراءهم حول العمل الذي يناسبهم .

إن هؤلاء الخبراء يستنتجون من دراساتهم الدقيقة نوع العمل الذي يمكن أن يؤدي إلى نجاح وتقدم أي شخص وهكذا يمكن أن تَعْرِفَ كم هو نافع مراجعة واستشارة الفتيان لمثل هؤلاء الأشخاص . فهل يمكن إنكار أن حياة الكثيرين قد تلاشت

---

(١) سفينة البحار مادة يسر ـ ص ٧٣٢ .

لسلوكهم طريقاً بعيداً عن الصلاح وحرمانهم من الإرشادات الواعية ، فلم يجنوا من ذلك غير الفشل»[1] .

نحن نعلم أن الكثير من الآباء لا يستطيعون أن يتبينوا كفاءات أبنائهم بصورة واضحة ، ولكنهم يستطيعون ، إلى حدٍّ ما ، أن يراعوا مسألة دفع أبنائهم نحو الأعمال التي تتناسب مع وضعهم الطبيعي واستعدادهم الفطري .

العمل وشروط الزمان والمكان :

ثالثاً : يرتبط صلاح وحُسْنُ العمل بظروف الزمان والمكان ، ويتّبع كيفية الإنتاج ، فالكثير من المهن والأعمال التي كانت في الماضي حَسَنة وصالحة ، وكان الناس طبقاً لأوضاعهم وأحوالهم في تلك الأيام ، يحتاجونها ، ولكن في عالم اليوم ، ومع تقدم الصناعة والآلة ، خرجت تلك الأعمال والحِرَف من نطاقِ الأعمال الإجتماعية ، ولم يعد يحتاجها الناسُ إلاّ قليلاً .

إن الآباء الذين يريدون القيام بواجب الأُبوة عليهم أن يأخذوا مقتضيات الزمن بنظر الاعتبار عند انتخاب عمل لأبنائهم ، ويدفعوهم نحو الأعمال المفيدة التي يحتاجها الناس ، وليس أن ينتخبوا لهم أعمالاً تؤدي إلىٰ الفشل والحرمان وبالتالي إلى الندم .

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال : «العالِمُ بزمانِهِ لا تهجمُ عليه اللَّوابِس»[2] .

يترك الإنهماك بعمل ما أثراً علىٰ الأخلاق الإجتماعية للشباب ، بغض النظر عن النشاط الإقتصادي الذي يدرُّ عائداً مالياً ، كما يُضفي النظام والترتيب على حديثهم وتصرفاتِهم ، ويمهد الأرضية للتفاهم مع العائلة والمجتمع .

الشباب وإثبات الجدارة :

يكون الشباب في حالةِ اللامبالاة بالنسبة للخير والشر عندما يكونون

(١) نحن وأطفالنا ـ ص ٨٠ .

(٢) تحف العقول ـ ص ٣٥٦ .

عاطلين عن العمل ،ولا يشعرون بالمسؤولية ، كما أنهم لا يهتمون بالمعايير القانونية ، ويسخرون من الأخلاق والآداب الإجتماعية ، وأحياناً يكونون سبباً لعدم ارتياح الوالدين وبقية الأفراد بأعمالهم الخاطئة التي تؤدي أيضاً إلى اضطراب وفوضىٰ في النظام الداخلي للمنزل . وأحياناً أُخرىٰ يهينون الناس في المجتمع بحديثهم وعملهم غير المقبول ، فيسببون هتك الحرمات وتحقير الآخرين .

ولكن وضع هؤلاء يتغير عندما يتقبلون المسؤولية ويعثرون على عمل ويتخلقون بالآداب والأخلاق الحسنة ، ولكي يثبتوا جدارتهم فإنهم يتركون الأساليب الشاذة ، ويحترمون حقوق الآخرين ، ويدركون أن الأخلاق الحسنة وحسن التفاهم والإنسجام مع الناس مفتاح النجاح وشرط أساسي للتوفيق في المجتمع .

العمل واصلاح أخلاق الشباب :

«كانت عائلة (جيري) تتصور أن المدرسة تستطيع أن تحل المشكلة بصورة جيدة . جيري لم يكن مستعداً لكي يدرس ، وكان يتزعم جماعة من الأولاد يقومون بالسرقة ، وإلحاق الأذى بالآخرين ويخلقون لهم المضايقات ، وكانت تصرفاته سيئة ، وقد أبدل والداه مدرستَهُ ثلاثَ مرات فلم يحصلوا على نتيجة ، وعَلِمَ والداه أنه يخطط مع مجموعة من الأولاد للقيام بسفرة جماعية ، فكان أن وافقاه علىٰ أن يترك المدرسة والدراسة دون رغبة منهما بعد اطلاعهما على هذه الفكرة الخطيرة ، واضطرا للسماح له بالعثور على عمل ، رغم أنهما كانا قد تحملا الكثير منه لدراستِهِ وهو في سن السادسة عشرة ، إلا أنهما عندما قالا له : (إبحث عن عمل وارتزق منه وقم بإدارة نفسِكَ) تبدل جيري تماماً بشكل لا يصدق ، فلأنه كان ينفق على نفسه من عائداته فقد أخذ يُدقِّق في الأُمور أكثر ، وترك أعمالَه الخاطئة السابقة ، وهجر

صداقته للأولاد الأشرار ، وأدرك بالتدريج أنه بحاجة إلى تلقي الدراسة لأداء عمل أفضل»[1] .

كان داودُ بنُ زُرْبي شَكا ابنَهُ إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام فيما أفْسَدَ له فقال : «إستصلحْهُ فما مأة ألفٍ فيما أنعمَ اللّهُ عليك»[2] .

يجب أن نعلم أن المساعي العاقلة واعتدال الأشخاص في تأمين معاشهم ومعاش أفراد عائلتهم يختلف في الدين الإسلامي عن النشاطات الإفراطية للجشعين والحريصين على تكديس الثروة وجمع المال . فالمجموعة الأُولىٰ تريد المال لنفسِها ، والمجموعة الثانية تريد المال للمال .

المجموعة الأُولىٰ : تحفظ شرفها الإنساني عن طريق المال .

والمجموعة الثانية : تضحي بعزتها وشرفها الإنساني من أجل المال .

المجموعة الأُولىٰ : أحرار يعملون بجدٍ لتأمين عيشهم والخلاص من ذل السؤال .

والمجموعةُ الثانية : هم عبّاد الثروة يجلبون لأنفسِهم بالطمع والحرص ، الذل والحقارة .

قال عليٌّ عليه السلام : «الحِرْصُ ذُلٌّ ومهانةٌ لمن يَستشْعِرُهُ» [3] .

علاقات الرذيلة والفضيلة :

إن مساعي العمال ، الذين يريدون الارتزاق من سواعدِهم ، دليل على صلاحهم وفضيلتهم ، بينما مساعي عشّاق المال ، الذين يريدون جمع المال لإشباع غريزة طمعهم ، دليلٌ علىٰ سوئهم ووجود الرذيلة لديهم .

---

(١) المشاكل الروحية للشباب ـ ص ٨٣ .
(٢) وسائل الشيعة ج ٥ ـ كتاب النكاح ـ ص ١٢٦ .
(٣) غرر الحكم ـ ص ٦١ .

عن عليٍّ عليه السلام أنه قال : «يُستدلُّ علىٰ شرِّ الرجلِ بكثرةِ شَرَهِهِ وشدّةِ طمعهِ»[1] .

أخطار عبادة المال :

إن عبادة المال والحِرْص من الممكن أن يؤثِّرا علىٰ الإنسان تأثيراً كبيراً لدرجة أن ينسىٰ نفسه وينسىٰ قيمَهُ الإنسانية ، ولا يعود يفكر إلَّا في جمع المال واكتنازه ، وطلب المال وحبّه يمكن أن يُغفل الإنسان عن الله عز وجل وعن الحقيقة ، يَمنعه من السمو النفسي والتكامل المعنوي ، ويمحو من ذهنهِ مكارم الأخلاق والصفات الإنسانية . ويغرق البعض في حبِّ المال وجمعه لدرجة ينسون معها الزوجة والأبناء ، ينسون محبة الحياة الزوجية وعطف الأُبوة ، فيُبدِّلون دفء العائلة إلى برودة .

الاسلوب الأحمق :

«يقول راسل : في العالم الجديد يوجد عدو خطر للحُبّ ، وهو مبدأ العمل والكسب والنجاح الإقتصادي ، خاصةً في أمريكا حيث يعتقد الناسُ أن الإنسان يجب أن لا يسمح للحب بأن يكون مانعاً للنجاح في الحياة ، وإذا ما سمح بذلك فهو أحمق وجاهل . ورغم أن هذه المسألة ، كالمسائل الأُخرىٰ ، تحتاج إلى التعادل ، فإنه من الحماقة أن يضحي الإنسان بعملِهِ ومكانتِهِ من أجل (الحبّ) ، ولكنه من الحمق أيضاً أن يضحي الإنسان بالحبّ من أجل العمل ، ومع ذلك فإن هذا الأمر لا يمكن اجتنابه في مجتمعٍ أساسه مبنيٌ على العمل الحثيث للحصول على المال .

لاحظوا حياة أحد تجار هذا العصر خاصةً في الولايات المتحدة الأمريكية ، فهو منذ اللحظة التي عرف فيها نفسَهُ وشعر بالرجولة

(١) غرر الحكم ـ ص ٦٣ .

يسعىٰ من أجل الحصول علىٰ المال ، وفي رأيه أن معظم الأشياء ما هي إلا لعب تافه ؛ في شبابهِ يغرق في الفساد ثم يتزوج ، ولكن رغباته تختلف عن رغبات زوجتهِ ، ولذا لا يحصل بينهما أي نوع من الارتباطِ الحقيقي والضروري بينهما . يأتي عادةً منهكاً إلى البيت ، ويخرج من المنزل صباحاً قبل استيقاظ زوجتهِ ، ويقول : إن رغبات زوجتِهِ نسائية وهو لا يرغب أن تكون له علاقة بذلك ، وهكذا لا يستبعد أن تشعر زوجته ببرودٍ جنسي تجاهه ، لأن زوجها لم يكن لديه وقت لإظهارِ محبته لها»[١] .

إن الرجل الذي يمضي أكثر أوقاتِهِ خارج المنزل ، ويصرِفُ طاقاتِه لكسب المال ، يكون منهكاً لدىٰ عودتِهِ إلى البيت لدرجة لا يستطيع أن يهتم بزوجتِه أو يظهر محبته لها ، أو أن يحترم عواطفها ، ويلبي رغباتها الطبيعية .

برود الزوجة من الزوج :

من الواضح أن المرأة في مثل هذه الظروف تكتئب ويزداد تأثرها يوماً بعد آخر فإحباطاتها،وحرمانها المتتابع يصيبها بالبرود تجاه زوجها ، ويبث فيها اليأس من الحياة الزوجية ، ولا يمضي وقت طويل حتىٰ تبدأ بالشكوىٰ وعدم الرضا ، وتُظهر قلقها واضطرابها الباطنيين من الحياة الزوجية .

الخلاف العائلي :

وهذا الوضع إن لم يدفع بالمرأة إلى الفساد والإنحلال الخلقي والفضيحة ، أو يجعلها توسِّع من شكواها حتىٰ تصل إلى الطلاق ، إن لم يحصل ذلك فعلىٰ الأقل يؤدي إلى القضاء على العشق والحب والأمل والعطف في محيط الأُسرة ليحل محله اليأس والبرود ، وفي النهاية تبتلي العائلة بالخلافات وأحياناً بالشجار والخصام .

---

(١) الزواج والأخلاق ـ ص ١١٧ .

إن عبّاد الثروة الطامعين ، بأسلوبهم الخاطىء لا يدمّرون حسن التفاهم والمحبة في العائلة وحسب ، بل إنهم بعملهم المفرط يصيبون المجتمع بأضرار ، فهؤلاء من أجل أن يحصلوا على مال أكثر ، لإشباع رغبتهم هذه ، يضطرون للعمل في مجالات متعددة ، أو أنهم يوسعون نطاق عملهم الذي يعملون فيه إلى الدرجة التي تتحقق فيها آمالهم . على أية حال إنهم في هذا الأسلوب يضيقون مجالات العمل أمام الآخرين فيؤدي ذلك إلى حرمان هؤلاء . ومما لا شك فيه أن الفشل والحرمان هما من أسباب الصراع والتضاد .

يدخل الشبابُ إلى المجتمع بقلبٍ مليء بالأمل للحصول على العمل . وعندما يشاهدون أن جميع الأعمال بيد الجيل القديم يبدو عليهم الضجر فيدخلون ميدان التنافس ليجدوا لأنفسهِم موضع قدم ، ولدىٰ رؤية عبّاد الثروة يقبضون على أكثر الأعمال ،بينما هم يبحثون عن عمل واحد ،ينتابهم القلق ويشعرون بالضياع ، فيصل الأمر بهم إلى الإنفعال ، فيظهر الإختلاف وعدم التفاهم بشدةٍ أكثر في المجتمع .

الاسلام والنشاط المفرط :

باختصار يمكن القول إن الدين الإسلامي يذمُّ النشاط المفرط والحرص في جمع المال وجعل الناس عاطلين عن العمل ، والإرتزاق من كدِّ الآخرين ، فكما أن البطالة وكون الإنسان عالة على المجتمع يجعله ذليلاً ، ويوجد في العائلة الشجار والخلاف ، فإن الحرص والطّمع يبعثان على الحقارة ويكونانِ سبباً للاختلاف في العائلة والمجتمع .

إنفاق المال :

الاعتدال في إنفاق المال كالإعتدالِ في حبِّ المال وكسبه ، يعتبر من عوامل حسن التفاهم في العائلة والمجتمع ، وقد أوصىٰ أولياء الإسلام عليهم السلام ، أتباعهم أن يبتعدوا عن الإفراطِ والتفريط في إنفاق المال ، وأن يتبعوا أسلوباً وسطاً ، بعيداً عن الإمساك والإسراف .

جاء في فقه الرضا عليه السلام: «ولتكن نفقتُك على نفسِك وعيالِك قَصداً»(١).

بعض الآباء الميسورين والقادرين بإمكانهم أن يوفروا الرفاهية والراحة لعائلاتهم، ولكن نتيجة حبِّهم للمال وحرصهم يصابون بمرض البخل، ويضيّقون على نسائهم وأبنائهم ليعيشوا في ضنك وعسرة فيثيرون غيظهم وغضبهم ويجعلون حياتهم مرّةً لا تحتمل، وبهذا الأُسلوب الخاطىء يجلبون الخلاف والشقاء إلى محيط العائلة.

الإفراط في الإنفاق:

بعض الآباء يوسعون على عائلاتهم بإفراط بحجةِ الرأفة والشفقة والمحبة، وهذا الأُسلوب مذموم وغير مقبول أيضاً. فهؤلاء إضافة إلى أنهم يوجدون فواصل طبقية ويخلقون الإختلاف وعدم الإنسجام الإجتماعي، من الممكن أن يدفع بعض الآباء (لمواصلة حياة الترف) للاعتداء على حقوق الآخرين والحصول على المال بطرق غير مشروعة.

أوصى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابن مسعود قائلاً: «يا بنَ مسعود لا تحملَنَّ الشفقةُ على أهلِكَ وولدِكَ علىٰ الدخولِ في المعاصي والحرام»(٢).

إن الأشخاص الذين يفرطون في صرف الأموال على حياتهم اليومية، يمهدون الطريق لارتكابِ الخطايا، ويعرضونَ أنفسهم للإعتداءِ علىٰ حقوق الآخرين، حتى إنهم في بعض الأوقات يكونون سبباً لتعاسةِ أقاربهم وأصدقائهم ويبعثون، بتصرفهم الخاطىء العائلات الأُخرىٰ، التي لا تملك الإمكانيات المالية، على الإفراط في الصرفِ، وتكون النتيجة أن يقع هؤلاء في الخطيئة.

مع الأسف أن هذا الأُسلوب الخاطىء يوجد في بعض العائلات إلى حدٍّ

---

(١) مستدرك الوسائل ـ ج ٢ ـ ص ٤٣٣.

(٢) بحار الأنوار ج ١٧ ـ ص ٣٣.

ما ، حيث يظهر بعض الأشخاص أنفسهم كالأثرياء لكي يتخلصوا من لوم نسائهم وأبنائهم ، أو بسبب الغيرة والتنافس مع الآخرين ، فيشترون الألبسة الفاخرة والمجوهرات الغالية والسيارات الحديثة ، مما يدفعهم إلى ارتكاب حماقات تؤدي بهم في النهاية إلى السجن بعد الفضيحة وسوء السمعة .

وقد توقّع الرسولُ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم مثل هذا العمل أن يقع في أُمته فقال : «يُعيرونَهُ لِضيقِ المعيشة ويكلفونه ما لا يطيق حتىٰ يُوردوهُ موارد الهَلَكة»[1] .

من مجموع البحث نستنتج كيف أن الشؤون المالية لها تأثير في حسن التفاهمِ والاختلافِ في العائلة والمجتمع . ولو أن الأشخاص سلكوا الاعتدالَ في حبِّ المال ، وكسبه ، وصرفه ، واجتنبوا الإفراط والتفريط فإنهم يتمكنون من أن ينالوا الإنسجام وحسن التفاهم في العائلة والمجتمع .

---

(١) علم الإجتماع صموئيل كينغ ـ ص ١١٤ .

المحاضرة التاسعة :

التطور الصناعي والأخلاق النسبية

«يا علي؛ إن الله عز وجل أحبَّ الكذبَ في الصلاح وأبغض الصدقَ في الفساد» .

[الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم]

تقدم الصناعة وتحولات الحياة :

في الماضي ، كانت الأخلاق والآداب العامة لها وضع ثابت تقريباً ، ولا يدخل عليها أي تغيير إلَّا ببطء وربما خلال جيل كامل ، وأما في عالم اليوم ، ومع التقدم الصناعي المطّرد ، فإن حياة الناس تتعرض للتغيّر بسرعة ، وبموازاة تغير ظروف الحياة فإن الأخلاق العامة والتقاليد الإجتماعية تتغير أيضاً لدرجة أن بعض التقاليد تتبدل عدة مرات خلال حياة جيل واحد .

كانت القوانين والقرارات الخاصة بالأخلاق والسنن والتقاليد والعادات الإجتماعية قوية كالبنيان بإمكانها أن تبقىٰ لسنوات طويلة في المجتمع حتىٰ تندثر بالتدريج وبمرور الزمن ، ومن تلقاءِ نفسِها ، ولكن التقدم الصناعي جعل المجتمعات البشرية كمناطق الزلازل ، حيث تنهار أعمدة القانون والأخلاق الواحدة تلو الأُخرى أمام العيون الحائرة للناس ولتقوم مكانها ضوابط جديدة ، ولا يمضي وقت طويل حتىٰ يزعزع التقدمُ الصناعي والتحولات الجديدة تلك الضوابط ويدمرها بسرعة .

نتيجة الثورة الصناعية أصبحت الكرة الأرضية بمثابةِ بيت كبير ، واطّلعت المجتمعات البشرية على أوضاع وأحوال بعضها البعض ، كما قامت الإذاعاتُ والتلفزيونات، والصحف والمجلات ، والأفلام السينمائية ، والوسائل الإعلامية الأُخرىٰ بعرض أخلاق وعادات كل الشعوب البشرية أمام أنظار الآخرين ، وعن هذا الطريق انتقل قسمٌ من العادات الحسنة والسيئة ، والأخلاق المقبولة وغير المقبولة إلى الشعوب الأُخرىٰ .

اصطدام المدنية القديمة بالجديدة :

«إن تحقيقات علم الجنس البشري تدل على أن الأشخاص في المجتمعات النامية عندما يصابون بالاختلالات والفوضىٰ نتيجة اتصال ثقافتهم بالحضارةِ الغربية ، فإن أُصول حياتهم وسننهم وتقاليدهم تنهار ، كما يقول (سابير) : ويخرجُ الإنسان من البيئة الدافئة وثقافته المتوازنة إلى بيئةٍ باردة تتّسم بالضّياع»[1] .

إن التقليد والإقتباس إذا كان يعتمد على محاسبة عقلية وفق مقياس صحيح وعلمي ، هو المطلوب والمرغوب ، ويكون مفيداً للمجتمع . ولكن التقليد الأعمىٰ وغير المدروس يكون غالباً مختلطاً ، يعمل العَمَلَ الحَسَن والسيِّىء، والجميلَ والقبيح ، وفي هذه الحال فإن الكثيرين لا يمكنهم أن يتبينوا الحقائق ، حتىٰ إن الحَسَن يتجلّىٰ أمامهم سيئاً ويرون بعض المساوىء في صورةٍ حَسَنة .

إننا نعلم أن الكبار يحتاطون إلى حدٍّ ما ، ومع مرور الزمن يتلقون تجارب في مدرسة الحياة ، ويكونون على ثبات نسبي ولا ينساقون بسهولة للتقاليد والاقتباسات غير المدروسة . ولكن الجيل الجديد الشاب الذي لا يملك إلّا تجربةً قليلة في الحياة ، ويميل إلى الجديد، تؤثر فيه بسرعة المظاهر والأساليب الجديدة في الحياة ، ويقوم بتقليدها ويطبق أخلاقه وأعماله وفقها ، لا سيما إذا كانت هذه الأساليب الجديدة توافق رغباته وأحاسيسه الشابة وتنسجم معها .

---

(١) علم الاجتماع ـ صموئيل كينغ ـ ص ١١٤ .

وفي هذه الحالات يحدث اختلاف وعدم تفاهم بين الفتيات والأمهات ، والأبناء والآباء ، أي بين الشبان والكبار ، ويصبح جو البيت ، والمجتمع ، ساحة للصراع والنزاع .

الخلاف بين الشيوخ والشباب :

يعتبر الكبارُ قسماً من الأعمال المقلّدة من قبل الشبان خطايا وأنها مصدر للفساد ، ولذا يعطفون عليهم ويحذرونهم ، بينما الشبان يعتبرون تلك الأعمال نماذج للتقدم الإجتماعي ودليلاً على الحياة الجديدة ، ويقولون للكبار : «إنكم ممثلو حضارة الأمس ، وعلىٰ هذا الأساس تفكرون ، وتقيسون المفيد والضار طبقاً لذلك ، ولكننا أتباعُ الحضارة الجديدة، نخطو مع تقدم الزمن ، ونرىٰ الطيبَ والخبيث من وجهة نظر عالَمِ اليوم ، فإذا كان يوجد في زمنكم شيء سيء فليس من الضروري أن يكون سيئاً في زمننا ، لأن الطيب والخبيث شيءٌ نسبي ، ويتغير مع شروط الزمان والمكان وتغير الظروف والأحوال .

ومن المحتمل أن يكون هناك شيءٌ خاص طيباً في ظروف خاصة ، خبيثاً في ظروف أُخرىٰ ، إنكم غافلون عن مقتضيات عالم اليوم ، ولا تعرفون طريقة تفكيرنا ، بل إنكم لا تدركوننا» .

كيف يمكن إنهاءُ هذه الاختلافات ؟ هل الحق مع الكبار ويجب قبول استدلالاتهم ، أم أن الشبان يقولون الحق ويجب أن نعترف بمنطقهم ، أم أنْ نقول إن أقوال الطرفين صحيحة كانت أم خاطئة فهي نسبية أيضاً ؟ وإنَّ بعض أقوال الكبار صحيحة ، كما أنَّ بعض أحاديث الشبان صحيحة كذلك ؟

إن الجواب على كل ذلك سيتضح في هذه المحاضرة ، ويتم دراسةُ بعض أقوال الكبار والشبان .

الثورة الصناعية وتبدل الأخلاق :

إن الثورة الصناعية قد تناولت بالتغير أفكار وأعمال الناس بصورة عامة ، والشبان بصورةٍ خاصة ، وأثّرت في أعماق الأخلاقِ الإجتماعية ، ونتيجة لذلك

تُعتبر بعضُ الحسنات بمثابة مساوىء ، وبعض المساوىء حسنات ، وقد أوجدت هذه الحالة اختلافاتٍ بين الشبان والكبار ، وجعلت أحدهم في مواجهة الآخر ، وبالتالي أوقعت تناقضاً وأحدثت شرخاً في العائلات وفي المجتمع البشري .

ولكي يقف الشبان والكبار على هذا الموضوع المهم ، ويعرفوا واجبهم الديني والعلمي بصورةٍ واضحة حتىٰ يتمكنوا من تقليل الخلافات بينهم ، فإننا في بدايةِ هذه المحاضرة سنتحدث بصورةٍ مختصرة عن تأثير الثورةِ الصناعية على الأخلاق العامة ، ثم نتناول الأخلاق النسبية من وجهةِ نظرِ عالَمِ اليوم واختلافها مع الأخلاقِ النسبية في الإسلام ، وسيتضح ، خلال البحث ، الخط الصحيح لدىٰ الكبار والشبان .

منشأ تغيير الأخلاق :

«من الواضح أن المبادىء الأخلاقية قد تتغير ولكن ما هو الشيء الذي يوجب هذا التغيير ؟ ولماذا يكون بعض الأعمال في زمنٍ ومكانٍ ما مقبولاً ، وغير مقبول في زمنٍ ومكانٍ آخرين ؟ يظهر أن التغيير الذي يُصيبُ المباني الإقتصادية للحياة يستوجبُ تغييراً في الأُصول الأخلاقية . وقد حدث في التاريخ نوعان من التغيير العميق ، أحدهما الانتقال من حياة الصيد إلى الحياة الزراعية . والآخر الإنتقال من الحياة الزراعية إلى الحياة الصناعية .

إن جميع الحوادث والوقائع التاريخية الأساسية في حياة الإنسان نتجت عن هذين التغييرَين المهمين في تاريخ حياة البشر . فالأُصول الأخلاقية في كل مرحلةٍ من هاتين المرحلتين ، التي كانت تعتبر مفيدة لسلامةِ الإنسان ، اعتُبرت ضارة في المرحلةِ التالية ، وتغيّرت في حالةِ فوضىٰ .

إننا لا نعلم ، إلى الآن ، متىٰ انتقل الإنسان من مرحلةِ الصيد إلى

مـرحلةِ الزراعـة ، ولكننـا نعلم أن هـذا الإنتقـال الكبيـر ، استلزم وجـود فضائـل جـديـدة ، وانقـلاب كثيـر من الفضـائـل القـديمـة رذائل في مرحلة الحياة الزراعيـة الهادئـة والمستقرّة ، كمـا صارت الحـاجة للعمـل أكثـر لـزومـاً من الشجـاعـة ، والإعتـدال أكثـر من القسوة ، وصار السلام أكثر نفعاً من الحرب والقتال»[1] .

الآلة وارتفاع الانتاج :

لقد انتقلت الحياة من المرحلة الزراعية إلى المرحلةِ الصناعية ، وحـدثت تغييرات علىٰ كافة المجالات في المجتمعات البشرية ، وتغيّرت تدريجياً جميـع الظروف والأحوال الإجتماعية ، واتخذت النشاطات الإجتماعية شكلاً جـديداً ، ودخلت المكننـة في الزراعـة وحلت محل الـطاقة الإنسـانية والحيـوانية فـارتفع حجم وكيفيـةُ الإنتاج ، وتـوجّه القـرويون إلى المـدن للحصـول علىٰ العمـل ، ودخلوا أجواء المصانع المغلقة والمحدودة .

لقـد غيّر الإقتصـاد الصناعي أخـلاق وعادات الجميـع ، وزال قبحُ بعض الرذائل والخطايا ، ولم يعد المجتمع يهتم بها ، وفقدت بعض الفضـائل قيمتهـا وأهميتها ، ولم يعد الناس يهتمون بهـا ، وكل هـذا يعني أن الأعمال والأخـلاق قـد تغيّرت لـدىٰ الناس نتيجـة الثورة الصنـاعية وأصبـح الكثير من السيئـات في نظرهم حسنات ، والحسنات سيئات .

«لا تتغيـر في الحياة الصنـاعية الأنـظمة الإقتصـادية القـديمـة فقط لتحـل محلها مؤسسـات اقتصاديـة جديـدة كالمصـانع والشـركـات والبنـوك ، بل تتغيـر جميع المؤسسـات الإجتماعيـة أيضـاً وتـظهـر مكانها مؤسسات جديدة لم تكن موجودة .

فمن جهةٍ وبدلاً من طبقتَيْ صاحب الأرض والمزارع ، اللذين كانا يمثلان في العصر الزراعي ، عاملَ الإنتاج في المجتمـع ، ظهرت

---

(١) مباهج الفلسفة ـ ص ٨٦ .

طبقتا الرأسمالي والعامل الصناعي ، وظهرت بينهما صراعات لم تكن موجودة في العصور السابقة ، ومن جهةٍ أُخرىٰ فإن الصناعة أدّت إلى نموِ المصانعِ وتمركز الناس في المدنِ ، فاتّسع استيطان المدن ، وهكذا انتقل مركزُ الإقتصاد الصناعي للدول من القرىٰ إلى المدن ، وظهرت المدن الصناعية والتجارية العظيمة .

الوحدة الاجتماعية في الزراعة والصناعة :

في العصر الزراعي لم يكن الفرد ، شخصاً اجتماعياً ، إنما كان جزءاً من العائلة ، والعائلة هي التي كانت تعتبر الوحدة التي تشكل المجتمع . أما في العصر الرأسمالي ، فإن الفرد يشكل وحدة المجتمع ، ولا يكون لصلةِ الدم والعائلة من أثر في حياة الفرد كالعصر السابق .

في عصر الإنتاج اليدوي أو المنزلي ، فإن الوحدة الإنتاجية تتألف من عددٍ من أفراد العائلة أو الأصدقاء يجتمعون في محيط البيت أو المشغل الصغير بتآلف . أما في عصر الإنتاج الآلي ، أو المصانع ، فإن وحدة الإنتاج هي ذلك المصنع ، والمصنع ميدان واسع غريب مملوء بالضجيج الذي يتعالىٰ من الآلات المعقدة ، وحركة الأشخاص الغرباء حيث إن علاقات العمال مع بعضهم ومع أصحاب العمل ليست متينة»[١] .

«ظهرت المصانع فجأة وترك الرجال والنساء والأبناء البيت والعائلة ، ليعملوا كأفراد في أبنية كئيبة لم تقم لحماية الإنسان وإنما لدعم الآلات ويأخذوا أُجورهم كأفراد وليس كعائلة . واتسعت المدن وأخذ الرجال بدلاً من بذر البذور والحصاد في المزارع يصارعون الآلات والماكينات في ورش وسخة مظلمة وقذرة »[٢] .

---

(١) مبادىء علم الإجتماع ـ ص ٢٨٦ .

(٢) مباهج الفلسفة ـ ص ٨٨ .

تعاون العائلة في الزراعة :

في العصر الزراعي ، كانت العادة أن يقوم الأبناءُ ، قبل سن البلوغ ، وبهدف مساعدة الوالدين ، بالذهاب إلى المزارع ، ويعملون ما يقدرون عليه ، فيتعلّمون فنون الزراعة ، حتىٰ إذا ما بلغوا سن الشباب يكونون قد حصلوا على مهارة ، في الحرث والبذر والسقي والحصاد وغير ذلك ، بل إنهم عندما يبلغون سن العشرين يتحملون مسؤولية المزرعة كالمزارعين المحنكين ، الذين قضوا عمراً طويلاً في الحقول .

وفي تلك المرحلة كانت معظم الأعمال كالتجارة والصناعة اليدوية ، بسيطة وسهلة ، ولم تكن تحتاج إلى دراسةٍ عالية ، وكان أبناء أصحاب المهن والتجار والطبقات الأُخرىٰ يذهبون إلى مراكزِ أعمالِ آبائهم ، ويتعلمون بالتدريج أُسلوبَ عملهم ، وعندما يصلون سن الشباب فإنه يصبح بإمكانهم أن يتحملوا مسؤولية العمل . وتكون النتيجة أن أبناء المزارعين والكسبة والتجار ، عندما يبلغون سن الشباب ، ومع البلوغ الجنسي ، يصلون أيضاً إلى الرفاه الإقتصادي ، ونتيجة حصولهم على الاستقلال المادي ، فإنهم كانوا يقدمون على الزواج في سن مبكرة ، ولهذا فإنهم كانوا يملكون قانونياً ، الزوجة في سن الشباب ، ويبتعدون عن أخطار الفساد .

تغيّرت حياة الإنسان مع مجيء الثورةِ الصناعية ، واتخذ النشاطُ الإقتصادي شكلاً آخر ، فالعمل في الميدان الصناعي ، والوصول إلى الاستقلال المالي ، يستلزم تخصصاً ، والحصول على المعلوماتِ التخصصية يحتاج إلى وقت قد يصل بضع سنين .

والشبان الذين يريدون أن يتخصصوا في فرع من الأعمال عليهم أن يتوجهوا إلى الدراساتِ العليا ، ويدرسوا لسنواتٍ في الجامعة لكي يتمكنوا من الحصول على موقع ممتاز يوفِّر لهم الكرامة والمال ، والشابّ الذي يخطط ليكون مساعد مهندس ، أو عاملاً فنياً يتحمل المسؤولية في الميدان الصناعي ، عليه أن يمضي فترة تدريبية يتلقى خلالها دروساً تخصصية تتضمن معلومات

كافية تسمح له بالتعامل مع الآلات الدقيقة ليصل إلى وضع مالي مناسب وفي كلتا الحالتين فإن الاستقلال المالي يأتي بعدَ بضع سنين من سنِ البلوغ .

والشبان خلال هذه المدة ، يواجهون وضعاً خاصاً ، من جهةٍ يتحملون ضغط الغريزة الجنسية ويرغبون بالزواج المبكر ، لتخفيف حدة الإلتهابِ الغريزي الطبيعي فيهم ، ومن جهةٍ أُخرىٰ لا يتمكنون من الحصول علىٰ زوجة بسببِ فقدانهم للمال اللازم ، ولذا يضطرون لتأخيرِ زواجهم .

إن تأخير الزواج هو أحد النتائج الخطرة للحياة الصناعية ، وله نتائج وخيمة ، وبإمكانِه أن يلقي بالشبان إلى هاوية الفساد والسقوط الأخلاقي ، ويجلب لهم ويلات لا يمكن تلافيها .

تأخير الزواج في المجتمع الصناعي :

«يقول ويل ديورانت : إن النمو الجنسي ، كالسابق ، يأتي بسرعة ، ولكن النمو الإقتصادي يتأخر . إن تحديد الشهوات في الحياة القروية أمرٌ معقول وعملي ، أما في المجتمع الصناعي حيث يتأخر الزواج حتىٰ سن الثلاثين ، فهو أمر صعب وغير طبيعي ، حيث تتمرد الشهوة ، ويصبح كفُّ النفسِ غير ميسور ، أما العفّة التي كانت تعتبر من الفضائل فتُرفَضُ ، ويزول الحياء الذي كان مدعاة لتوثيق المحبة ، ويبدأ الرجال يفتخرون بخطاياهم ، وأما النساء فإنهن يردن مجاراة الرجال في إباحتهم ، فتصبح الفحشاء أمراً عادياً ، وتختفي البغايا من الشوارع ، لا برقابة الشرطة ، بل بمنافسة الهاويات ، وتنهار مبادىء الأخلاق في المجتمع القروي ، ولا يعود المجتمع المدني يقيم لذلك اعتباراً»[١] .

---

(١) مباهج الفلسفة ـ ص ٩٦ .

حياة المدينة وضياع الشباب :

«حياة المدينة جمعت الملايين من الشبان الذين وقعوا فريسة سهلة في أيدي بائعات اللذة . وأصبح الأدب الحديث كما كان الدين في زمن الحضارة اليونانية إباحياً في وصفه للوالدة والنسل . وبدأ الزواج يفقد رونقه وانتشاره وهو الذي كان السبيل إلى المتعة الجنسية والذي إذا تم مبكراً أدى إلى الاستقرار في الحياة الإنسانية . وأخذ الرجال يظنون أن فوائده يمكن الحصول عليها بغير آلامه . أما الأُسرة التي كانت فيما مضى مهد الأخلاق والأساس القوي للنظام الإجتماعي ،فقد أصبحت في الحياة الصناعية في المدينة فردية وتمزقت إرباً ولا تدوم لأكثر من جيل واحد . المنازل التي بُنيت بعرق الجبين لستر الأولاد أصبحت صامتة ومهجورة ، والأبناء لكسب لقمة العيش نراهم قد تفرقوا إلى أماكن بعيدة تاركين الأب والأُم وحدهما في بيتهما الحزين ينظران إلى المقاعد الخالية التي تشكو من فقدان الجو العائلي .

تأخير الزواج وظهور الانحلال :

نحن لا نعلم إلى أي مدى يؤثر تأخير الزواج على الفساد الإجتماعي ولكن وحسب الظاهر أن أكثر المفاسد الإجتماعية تنبع من التأجيل الغير طبيعي للزواج ، وحتى ما يحدث بعد الزواج من الانحلال الخلقي فمرده ما اعتاد عليه قبل الزواج .

إن العلة الأساسية لهذه التغييرات الأخلاقية هي الثورة الصناعية التي كان لها التأثير المباشر لحياتنا إن شراً أو خيراً ، إن التوسعة الصناعية أدّت بالأفراد إلى الخوف وبالتالي إلى تأخير الزواج ، وبهذا التأخير غير اللائق نرى الإباحية والفحشاء في حالة انتشار ، ونرى الملايين من الناس هائمين في بحر حياة المدينة الهائج ، والكثرة السكانية جعلت الكثيرين أكثر أمناً من الفضيحة وسوء السمعة .

الثورة الصناعية جعلت المرأة أكثر تحرراً مما أدى إلى الإختلاط أكثر مع الرجال ونتج عن ذلك تجربة الصلة الجنسية قبل الزواج ، كما أدّى إلى إضعاف أثر الأُسرة الأخلاقي ، وإلى استبدال العفاف بالانغماس في التفسخ الخلقي»(١) .

إن قضية تأخير الزواج وشيوع الفساد أصبحت الآن مشكلة أخلاقية واجتماعية كبرىٰ . ولقد أصبح الإجهاض ، وزيادة الأبناء غير الشرعيين ، والفساد الأخلاقي ، والجرائم ، والإغتصاب ، وتفشي الأمراض الجنسية ، والاختلافات العائلية العميقة ،من جملةالمفاسد التي أصابت العالم الغربي ، وازدادت مع التوسّع المستمر والتطور في الصناعات الآلية .

الزواج المؤقت وحل المشكلة :

ولقد اقترح بعض العلماء في أُوروبا وأمريكا ، لحل هذه المشكلة ، وللحد من تخفيف حدة الفساد ، مشروع الزواج المؤقت ، وهم يعتقدون أن هذا المشروع لو أصبح قانونياً واستطاع الشباب الإستفادة منه بشروط سهلة فإن الكثير من المشاكل الموجودة ستُحل وسينجو الجيل الجديد من هذا الوضع المؤلم والمشين .

«إن (ليندس) الذي كان لسنوات طويلة يرأس محكمةً لتحقيق جرائم الشباب في (دنفر) ، وكانت له مكانة رفيعة في هذا المجال ، اقترح نوعاً جديداً من الزواج أسماه (زواج الرفقة) وقد أشارَ (ليندس) في البداية إلى هذه الحقيقة : إن مانع زواج الشبان هو فقدان المال ، وحاجة المال في الزواج إنما يعود إلى إنفاق قسم منه على تربية الأطفال ، والقسم الآخر هو أنه ليس من المعتاد أن تعمل المرأة لإعالةِ نفسها .

ويعتقد (ليندس) أنه يجب أن يقدم الشبان على الزواج بنوع آخر يمتاز عن الزواج العادي بثلاث خصائص :

---

(١) مباهج الفلسفة ـ ص ٩١ ـ ٨٣ ـ ٩٦ .

الأولى : يجب صرف النظر عن إنجاب الأطفال في بداية الزواج ولكي يتم ذلكِ يجب وضعُ أفضلِ الأساليب لمنع الحمل بمتناول يد الأزواجِ الشبان .

الثانية : طلما لا يوجد أطفال فإنه من السهل الإنفصال بين الزوجين .

الثالثة : وعندما يتم الإنفصال يجب أن لا تكون هناك نفقة . تأييداً لهذه النظرية يقول راسل : لقد قال ليندس الحقَّ ، ولو تم هذا النوع من الزواج وأصبح قانونياً ، فإن الكثير من الشبان ، خاصة الجامعيين ، يبدأون حياة مشتركة مستقرة بعيداً عن هذه العلاقاتِ الجنسية المنحطة . ويقدم ليندس شواهدَ تثبت أن الجامعيين المتزوجين يعملون أفضل من غير المتزوجين . والحقيقة هي كذلك ، لأنه يمكن بسهولة أداء الأعمال مع وجود علاقات جنسية منظمة أفضل من الوضع المضطرب للإنسان الذي يمضي الليالي الصاخبة والإثارات الجنسية التي تتحكم به بفعل المشروبات الكحولية . ولا يوجد دليل علىٰ أن ميزانية الحياة المشتركة لفتاة وشاب أكثر مما لو كانا يعيشان منفصلين . ومع ذلك فإن الأسباب الإقتصادية الموجودة في الوقت الحاضر التي تعيق الزواج قد فقدت تأثيرها وأهميتها .

إنني لا أشك أبداً بأن اقتراح هذا القاضي لو أصبح في إطار قانوني لأثمر نتائج مفيدة للغاية ، ولو قَبِلَ به الجميع لكان مفيداً للمجتمع من الناحِيةِ الأخلاقية»(١) .

الاسلام والزواج المؤقت :

إن مسألة الزواج المؤقت في الدين الإسلامي المقدس ، يعتبر نوعاً من

---

(١) الزواج والأخلاق ـ ص ١٥٦ .

الزواج القانوني ، بشروطه السهلة والبسيطة ، وقد أعلن مشروعيته النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بواقعيةٍ قبل أربعة عشر قرناً . ففي الزواج المؤقت لا يتحمل الزوج طعام ولباس الزوجة وحتى مسكنها ، كما أن الزوج بإمكانِهِ أن يمنع المرأةَ من الحمل ، بالإضافة إلى ذلك فإنه لا توارث بين الزوجين في الزواج المؤقت ، حيث لا يرث أحدهما الآخر أموال مَنْ يتوفىٰ منهما .

إن الهدف الأساسي لواضع تشريع الزواج المؤقت ، كما يستفاد من الأحاديث الإسلامية ، هو الحيلولة دون الفحشاء والفساد . وفي الظروف التي لا يتمكن فيها الرجل والمرأة من الزواج الدائم لعدم توفر شروطه فإنهما يستطيعان الإستفادة من الزواج المؤقت ، وإشباع الغريزة الجنسية في إطار القانون والقرارات ، للإبتعاد عن المفاسد والخطايا .

عن علي بن يقطين قال : سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن المتعة . قال : «ما أنتَ وذاك وقد أغناك اللَّهُ عنها»[1] .

عن الفتح بن يزيد قال : سألت أبا الحسن عليه السلام عن المتعة ، فقال : «هي حلال مباح مطلق لمن لم يُغْنِهِ اللَّهُ بالتزويج فليستعفف بالمتعة»[2] .

تأخير الزواج وانتشار الفحشاء :

نتيجة الثورة الصناعية وتأخير الزواج ، انتشرت مفاسد كبيرة في المجتمعات ، فقد شاع الفساد والفحشاء ، وانساق الكثير من الفتيات والشبان ، بطريقةٍ ما نحو الإنحراف الأخلاقي ، فسقطوا في مهاوي التعاسة ، كما أدّت أعمال هؤلاء القبيحة إلى وجود الإختلافات في العائلة والمجتمع ، فأساؤا لأنفِسهم وللآخرين .

«إن نورما ، التي أصبح اسمها نتيجة لفضيحة لندن الجنسية ،

---

(١) مستدرك الوسائل ج ٢ ـ ص ٥٨٨ .
(٢) الكافي ـ ص ٤٥٢ .

على لسان الجميع ، تبلغ السادسة والعشرين من العمر ، وقد تأسف والداها وأقاربها للأحداثِ التي وقعت ، وقالت أُمها (كاترين راسل) إن ابنتي قد حطمت حياتنا ، إننا من عائلة تنتمي إلى طبقة العمال وكنا نأمل أن تعيش نورما حياة شريفة ، ولكن للأسف لم يحدث ذلك وقال عمها : لقد كانت نورما دائماً سبباً للعار ، فالناس الآن يشيرون إلينا بالبنان ، إن هذه الحادثة كانت مؤلمة جداً خاصة لأُختي الراهبة ولأخي الراهب»[١] .

أفلام الجنس والجرائم :

إحدىٰ النتائج الأُخرىٰ للثورة الصناعية هي الأفلام الجنسية وأفلام الجرائم ، التي لعبت دوراً مهماً في انحراف أخلاق الشباب ، ففي الدول الصناعية تأسست شركات كبيرة ذات رؤوس أموال ضخمة لإنتاج الأفلام السينمائية ، وهذه الشركات تقوم بتعاون عدد كبير من النساء والرجال بإنتاج الأفلام لجميع العالم ، ويحاول أصحاب هذه المؤسسات استغلال رؤوس أموالهم بحيث تدر عليهم أرباحاً طائلة ، وللوصول إلى هذا الهدف ينتجون أفلاماً مثيرة تجذب إليها الشبابَ وترغبهم في مشاهدتها .

إن الغريزة الجنسية وغريزة التخريب والتهاجم قوية لدىٰ الشبان ، وقد استغل أصحاب الأفلام وبمساعدة علماء النفس هاتين الغريزتين ، فأنتجوا القسم الأكبر من أفلامهم في مجال الجنس والجريمة لإشباع غريزة الشباب وجذبهم . ولكي تبقىٰ سوق السينما رائجة ولحث الشباب على مشاهدة مثل هذه الأفلام ، فإن المنتجين ينتجون أفلاماً جنسية أكثر خلاعة من السابق وأفلاماً جنائية أكثر عنفاً .

وكثير ما حدث أن اكتسب الكثير من الشباب أفكاراً جنائية منحرفة وارتكبوا الكثير من الجرائم نتيجة الأفلام . وكم من الفتيات والشبان وقعوا تحت

---

(١) صحيفة كيهان ـ العدد ٨٩٦٢ .

تأثير الأفلام الجنسية فانحرفوا نحو الفساد وسقطوا في مهاوي الفحشاء .

«يواجه الرجال ، قبل سنوات الزواج ولإرضاء وإشباع شهواتِهم ، مؤسسة عظيمة مجهزة بأحدث الوسائل والتنظيماتِ العلمية ، وكأن العالم قد نشط لتنظيم رغبات أُولئك بكل أُسلوب يمكن تصوّره . إننا يجب أن نسعىٰ للتعرف علىٰ النتائج الإجتماعية والحياتية للتقدم الصناعي ونتائجها التي جاءت على يد الإنسان ، ولكن هذا الأمر مخجلٌ حيث يصبح ما يقرب من نصف مليون فتاة أمريكية ضحية الشهوات ، ويصبح المسرح الأدبي نتيجة الاضطراب والفوضىٰ الإجتماعية والرغبات الشهوانية للرجال والنساء المحرومين من الزواج نتيجة التقدم الصناعي ، مصدراً لجذب المال»[1] .

الحرب والأخلاق العامة :

الحرب نتيجة أُخرىٰ من نتائج الثورة الصناعية ، وتؤثر تأثيراً عميقاً في أخلاق الناس ، والحرب كانت موجودة في جميع مراحل حياة الإنسان ، وكانت لها نتائج مدمّرة . ولكن الثورة الصناعية وظهور الآلات القوية ، وقاذفات القنابل السريعة ، والأسلحة المدمّرة ، غيّرت من وضع الحرب بحيث لا يمكن مقارنتها بالحروب السابقة ، وبما أن صناعة الآلات تتطور يوماً بعد يوم فإن الأسلحة الحربية أيضاً تصبح ، كل سنة ، أحدث وأكثر فتكاً ويزداد خطرها . ولهذا السبب فإن خسائر الحرب العالمية الثانية ، التي ابتلي بها الناس على وجه الأرض ، هي أكثر بكثير من خسائر الحرب العالمية الأُولىٰ، فإذا ما وقعت حرب عالمية ثالثة فإن خسائرها ستكون فادحة جداً بحيث لا يمكن تصوّرها وربما أدّت إلى محوِ جميع آثار الحضارة وهلاك أكثر البشر .

«نتيجة التقدم الصناعي ، في العصر الحاضر ، صُنعت أسلحة

---

(١) مباهج الفلسفة ص ٩٢ .

مدمرة فتاكة تكفي لتدمير جميع المجتمعات المتحضرة . وقد زاد اختراعُ القنابل الذرية، والهيدروجينية ، والكوبالت ، والديوتريوم ، القدرة التدميرية للحرب إلى درجة لا يمكن تصوّرها .

فمنذ القرن الخامس عشر ولحد الآن ، ومع ازدياد القدرة التخريبية للأسلحة فقد ازدادت بالتالي وتبعاً لها خسائر الحرب أيضاً ، وإحصائيات خسائر الحرب العالمية الثانية عظيمة ، ومن المسلم به أنه لو قامت حرب أُخرىٰ ستكون الخسائر أعظم من خسائر الحرب العالمية الثانية ، لأن وسائل الحرب الحالية ، كالصواريخ والأقمار الصناعية والطائرات السريعة ، والقنابل الذرية ، لها قدرة تخريبية مرعبة ولو سقطت قنبلة هيدروجينية عادية (وليست متطورة) في مدينة كبيرة مزدحمة مثل نيويورك فإن الدمار في لحظةِ الانفجار يشمل (٢٥٠) ميلاً مربعاً ويقتل ٧,٥ مليون إنسان ، ثم تبدأ أمواج الإشعاع والغبار المميت بتعذيب وقتل الأحياء ، وبعض ذرات الغبار تنفذ حتى إلى باطنِ العظام لدىٰ الحيوانات وتبقى فيها لسنوات وتفسد الجسد»[١] .

الحرب والفساد الأخلاقي :

إن الحرب هي منشأ الكثير من الآلام والمتاعب للعائلات والمجتمعات، قتل ، نهب ، دمار ، خوف واضطراب ، عدم أمن واستقرار ، قلق ، أمراض ، نقص في الأعضاء فقر وجوع ، وعشرات المصائب الأُخرىٰ هي نتائج الحرب . وإلى جانب هذه الويلات فإن معنويات الناس تتغيّر أيضاً ، وينتشر فساد الأخلاق ، وتحل الرذائل مكان الفضائل ، وتزداد المشاكل .

«يقول ويل ديورانت : لقد زال التعاون والسلام اللذين تطورا مع الصناعة والتجارة في الحربِ العالمية الأُولىٰ ، ودفعت الحرب

---

(١) مبادىء علم الإجتماع ـ ص ٣١٧ .

بالرجال نحو العنف والفحشاء ، وقد جاء آلاف الرجال بعد الحرب إلى منازلهم ووطنهم بأمثال هذه الأمراض الإجتماعية ، ونتيجة لعمليات القتل العمياء ، انخفضت قيمة الحياة ، وظهرت الأمراض النفسية ، والجرائم ، واللصوصية الجماعية ، وفقد الملايين إيمانهم بالعناية الإلّهية ، وتركوا الإعتماد على العقائد الدينية .

بعد انتهاء الحرب ومرحلة المثالية ، ظهر جيل مخدوع ألقى بنفسه في أحضان الإستهتار والفردية والإنحلال الخلقي . وأصبحت الحكومات في وادٍ والشعب في وادٍ آخر ، واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها ، واستهدفت الصناعات الربح بصرف النظر عن الصالح العام ، وتجنب الرجال الزواج خشية مسؤوليته ، وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية خاملة ، أو إلى طفيليات فاسدة ، ورأى الشباب نفسه وقد منح حريات جديدة ، تحميه الإختراعات من نتائج المغامراتِ النسائية في الماضي ، وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية في الفن والحياة ، فمشاكل هذا الجيل وحياته جديدة ومختلفة عن الجيل السابق وهو واقع بين براثن الثورة الصناعية التي تعدل عاداته وأزياءه وعمله ودينه وسلوكه . . . فصاحب الخلق وعديم الخلق كلاهما في تغير مستمر ، بين التقاليد الثابتة المولية والعادات الجديدة التي تشق طريقها إلى الظهور ، ولا يعرف أحد بالضبط مدلول الأخلاقية أو اللاأخلاقية وكيف يمكن تعريفهما من جديد لنستعين بهما في فهم سلوك الإنسان في العصر الصناعي والمدني»[1] .

التظاهر بالرذائل :

لقد تركت الثورة الصناعية أثراً عميقاً علىٰ أخلاقِ وآدابِ الناس وقد كانت

(١) مباهج الفلسفة ص ٩٨ .

حصة الشبابِ من هـذا التأثير أكثر من الشيـوخ ، وفقـد الكثيـر من الصفـات والأعمال صورتـه القبيحة ، وأصبـح الناس يتـظاهرون بتلك الصفـات دون اهتمام ، ويرتكبون علانية مثل هذه التصرفات ، وهذا الأمر هـو أحد أسبـاب الخلاف بين الشيوخ والشباب في العائلة والمجتمع .

خطأ في التشخيص :

إن النقطة التي تستحق الملاحظة من وجهةِ النظر الدينيـة والعلمية ويجب أن تـدرس ، ليست أن بعض الأشخـاص لـديهم أخـلاق سيئـة وأعمـال غيـر مرغوبـة فحسب ، بل أيضـاً يخطئـون في معرفـة الخير والشـر والطيب والخبيث والحَسَن والسيء ، ولأن الفرق بين هذه الصفات أمرٌ نسبي ويتبع شروط الـزمان والمكان ، فإن هؤلاء يتصوّرون أخلاقهم السيئة أخلاقاً حسنة ، وكـذلك بـالنسبةِ لتصرفاتِهم ، وهم بأُسلوب تفكيرهم هـذا يستبعد أن يفكـروا في إنقاذِ أنفسِهم ، وإصلاح أخلاقهم وأعمالهم .

بعبـارةٍ أُخرىٰ ، إن البعض يـرتكبون الخـطأ ويعلمـون أنهم ارتكبـوا إثمـاً فيتـألمون ممـا يقومـون به وهؤلاء من المحتمـل أن يعودوا من الـطريق الخاطىء الذي يسيرون فيه ذات يوم ، ويصلحوا أنفسَهم ، وأما البعض الآخـر فيرتكبـون الخـطأ ولكنهم يتصـوّرون أنهم عملوا عمـلاً حسنـاً ومقبـولاً وفي قـرارة نفسهم ارتياح لما يرتكبون ، وهذه المجموعـة بتفكيرهم الخـاطىء يغرقـون في الضياع والضلال بأعمالهم القبيحة ، ويمضون أعمارهم في الخطيئة . ومن الـواضح أن هؤلاء في وضـعٍ أسوأ من وضـعِ الخـاطئين من المجمـوعـة الأُولىٰ ، والقـرآن الكريم يقولُ في هؤلاء :

﴿قل هل ننبئكم بالأخْسرين أعمالاً * الذين ضلَّ سعيُهُم في الحياة الـدنيا وهم يَحسبون أنهم يُحسنون صُنْعاً﴾(١) .

---

(١) سورة الكهف ؛ الآيتان : ١٠٣ و١٠٤ .

عندما تشيع خطيئةٌ بين الناس ، ويرتكبها الناس دون اهتمام فإن قبح هذه الخطيئة يزول نتيجة التكرار ويألفها الناسُ وتصبح مقبولة لدىٰ الجميع ، ولا يمضي وقت طويل حتىٰ يعتبر أفراد المجتمع ذلك العمل شيئاً حَسَناً ، ويُبدون رضاهم في أدائها . وقد تنبأ نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم في حديث له عن حالة الضلالة الخطيرة هذه للمسلمين حين قال صلى الله عليه وآله وسلم : «كيف بكم إذا فسدت نِساؤكم وفَسَقَ شبانكم ولم تأمروا بمعروفٍ ولم تنهوا عن منكر ؟ فقيل له : ويكون ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، وشرٌّ من ذلك ، فكيف بكم إذا أُمرتُم بالمنكر ونُهيتُم عن المعروف ؟ فقيل : يا رسول الله ويكون ذلك ؟ قال : نعم ، وشرٌّ من ذلك ، كيف بكم إذا رأيتم المعروف مُنكراً والمنكرَ معروفاً ؟»[1] .

معيار الحسن والسيّىء :

والآن يمكن طرح هذا السؤال : إذا قَبِلَ المجتمع شيئاً واعتبره حسناً ، فهل يمكن اعتبار ذلك الشيء حَسَناً ؟ وبالعكس إذا رفض شيئاً واعتبره سيئاً فهل يمكن أن يقال عن ذلك الشيء إنه سيِّىء؟ وباختصار : هل أن قبول أو رفض المجتمع يمكن أن يكون معياراً لمعرفة الأعمال الطيبة والسيئة ؟ !

لسوء الحظ أن عالم اليوم قد ردَّ بالإيجاب علىٰ هذا السؤال ، وأن قبول أو رفض الناس أصبح معياراً لمعرفةِ الأخلاق الحسنة والسيئة في المجتمع ، وهذا بحد ذاتِهِ أحد أخطر النقاط الإنحرافية لعالم اليوم .

اهتزاز المبادىء الأخلاقية :

إن الفكرة الخاطئة المبنية على أساس الأخلاق النسبية قد هزّت قواعدَ الكثير من الصفات الحَسَنة والسجايا الإنسانية التي تمثل جذور سعادة الإنسان الفردية والإجتماعية ، كما أفرغها من أية قيمة لفضائل الأخلاق . وقد أشاعَ هذا

---

(١) مشكاة الأنوار ص ٤٩ .

التصوّر الباطل الإباحية ، والإندفاع في الشهوات ، وهي منشأ شقاء الإنسان ومنبع الفساد للجيل الجديد ، كما أنها أزالتْ قُبحَ الأخلاق السيئة .

لقد كانت قضية الخير والشر ومعرفة الأخلاق الحسنة والسيئة ، في الماضي ، تُبحثُ بين الفلاسفة والمتكلمين والعلماء الآخرين . وكذلك كانت تتناولها الكتب العلمية بالبحث والتحليل ، ولكن نتيجة الثورةِ الصناعية والانقلاب الذي حصل في الأخلاقِ الإجتماعية ، فإن مسألةَ نسبية الأخلاق جذبت الإهتمام ، وأخذت تُدرس في الكتب التربوية والأخلاقية ، وكتب علم الإجتماع والنفس باستفاضة .

والمقصود بالأخلاق النسبية هو أن الخير والشر في الأخلاق ليسا شيئاً مطلقاً وثابتاً ، بل شيء يتغير مع اختلاف شروط البيئة واختلاف الزمان والمكان .

الأخلاق ومتطلبات الزمان :

«يقول صموئيل كينغ : إن أفكارنا حول الخطأ والصواب تتعلق بالآداب والتقاليد والسنن المتداولة ، وطبقاً لقول (سمنر) إن الآداب والتقاليد الإجتماعية بإمكانها أن تُظهر الخطأ على أنه صواب ، وما كان في يومٍ ما مقبولاً يصبح في يومٍ آخر مرفوضاً ، وبالعكس . وكذلك إن ما يمكن أن يكون صواباً في مجتمعٍ ، يكون خطأً في مجتمعٍ آخر . ولفهم هذه الحقيقة يكفي أن نقارن بين ملابس السباحة الحالية والتي لا تستر إلّا القليل من الجسم ، مع ألبسة السباحة التي كانت شائعة في السابق والتي كانت تستر معظم جسم المرأة والرجل . ولذا فإننا سنرىٰ أن جميع المبادىء والأفكار الأخلاقية والفضائل ترتبط تماماً بمقتضيات الزمان والمكان ، ولا يوجد أي معيار دولي مطلق لتعيين القيمِ والمبادىء الأخلاقية .

وقد وصلَ (ادوارد وستمارك» في كتابه الموسوم بـ (الأخلاق

النسبية) إلى هذه النتيجة ، وقد أثبتَ عن طريق شواهد كثيرة من مباني وأصول أخلاق المجتمعات البشرية المختلفة ، أن للأخلاقيات جانباً نسبياً ، يختلف بالنسبةِ للمجتمعات من مجتمع لآخر ، وهذا الإختلاف ناتج عن اختلاف التجربة بين المجموعات والمجتمعاتِ المختلفة ، وكذلك مستوى علومهم ومعلوماتهم السابقة»[1] .

الاثم والرأي العام :

أحد أكبر المعايير للأخلاقِ الحسنة والسيئة في عالم اليوم هو رفضُ وقبول الناس ، فهناك الكثير من الشبان والفتيات ، والنساء والرجال ، يرتكبون بعض الخطايا الكبيرة والشريرة دون مبالاة ،وإذا جوبهوا باحتجاج الوالدين والأقارب الذين يريدون صلاحهم ،فإن الشبان يعتمدون على الرأي العام وأساليب الناس ، وطبقاً لنظرية الأخلاق النسبية يوردون مثل هذه الجمل :

- إن أمثال هذه القضايا وجدت لها حلول في عالم اليوم .
- إن الرأي العام في العالم يوافق على هذه الأعمال .
- إن عهد أقوالكم القديمة قد مضىٰ .
- إن عالم اليوم قبل هذه الأعمال .
- كانت هذه الأعمال مرفوضة في يوم من الأيام ، ولكنها مقبولة اليوم في رأي الناس .

تغيير الآداب والتقاليد :

إن هذا لنوع من التفكير حول الآداب والتقاليد الإجتماعية التي ليس لها أي تأثير في سعادةِ وتعاسةِ الإنسان يمكّن من قبولها ، تماماً كعادة وضع القبعة على الرأس أمام الآخرين كانت تعتبر في يومٍ ما دليلاً على الإحترام ، ثم تغيرت

(١) علم الإجتماع صموئيل كينغ ـ ص ٩٠ .

هـذه العادة وأصبح رفعها عن الـرأس دليـل احتـرام أكثـر ، ولكن بـالنسبـةِ للقضـايـا الأخلاقية ، التي هي من أركان سعادةِ الإنسان والمجتمع ، فـإن الأفكار العـامة ليس بإمكانها أن تكون معياراً لحُسْنِهاوقبحِها، وإن رفضها وقبولها من قبـل الناس لا يمكن أن يُغيّر الواقع ، ولكن بإمكانها أن تزلزل القيم الأخلاقية عند اعتبارهـا حَسَنة وسيئة نسبياً ، وبالتـالي تجعل الإنسـان في شكٍّ منهـا فيُغلَقُ أمامـه طريق التكامل .

«لكنت دونـوي يقـول : إن الفكـرة المـطلقـة للحَسَنِ والسيِّء لم تتوضح أبداً ، ولكن كان الضمير الإنساني مـوجوداً منـذ البدايـة ، وقد فسّرَ الفلاسفة هـذين المصطلحين ، وقـالوا : إنهمـا نسبيان ، ولا يـوجد (حَسَنٌ وسيءٌ) بشكـل مـطلق ، فـإن الشيء الـذي هـو (حَسَنٌ) في هذا البلد ربما كان سيئاً في بلد آخـر ، ولكن أن ندع فكرة (نسبية) الحَسَنِ والسيِّء تنتشر بين الناس فإنها خـطرة وتبعث على الأسف .

إن عـدداً كبيـراً من الأذكيـاء تكـون تصـرفـاتهم طبقـاً للقـواعـدِ الأخلاقية ، لأنهم يرون أنهم طالما يعيشون في المجتمع فإن ذلك ضـروري . وهؤلاء رغم أنهم لا يعتقدون بمـطلق الحَسَنِ والسيء إلّا أنهـم لا يضـرون ، ولكنهم لا يعرفـون أن هناك عـدداً كبيـراً لا يهتمـون لتصـرفـاتهم ، وأغلب النـاس يحتـاجـون إلى سـدود من المشاعر الروحانية أو العقلية ، وساحات المحاكم مملوءة بالأطفال والكبار المسنين الذين يفتقرون للتربية الأخلاقية المناسبة .

إن بعض الكتـاب يـرون أنفسهم أكبـر من أنْ يحتـاجـوا لإطـاعـةِ القواعد الـدينية والأخـلاقية ، لأنهم يتصـوّرون أنهم ليسوا بحـاجةٍ لهـا ، ولا يعتقـدون بقيمهـا المـطلقـة . إن تـأثيـر أمثـال هؤلاء الأشخاص وكتاباتهم من الممكن أن تكون مدمرة ، ولكن معظمهم

يجهل هذا الأمر»[1] .

لكي يتضح بحث الأخلاق النسبية إلى حدٍّ ما ، ويحصل الكبار والشباب على معلومات أكثر ، نتحدث عن (الحَسَن) و (السيِّء) وأقوال العلماء عنهما بشيءٍ من الاختصار .

إن إحدىٰ المسائل العلمية الصعبة في عالم الأمس واليوم ، هي تعريف (الخير) و (الشر) ومعرفة (الحَسَنِ) و (السيِّء)، وقد بحث الحكماء والعلماء منذ القرونِ الماضية وحتى الآن في هذا الأمر ، وأوردوا أحاديث كثيرة ، ولكن المعيار الجامع لهما بقيَ مجهولاً .

تعريف الخير والشر :

«يقول أفلاطون : (الخير) لدىٰ العامة هو عبارة عن (إدراك) الطيبات ، وفي رأي الخاصة عبارةٌ عن (المعرفة)»[2] .

«يقول سفسطائيو اليونان : إن معيار الخير والشر هو الإنسان نفسه ، فكل ما يريدُهُ الإنسان هو (خير) ، وما سواه (شر)» [3] .

«يقول لكنت دونوي : (الخير) هو مساعدتُنا صعوداً نحو التكامل ، وهدايتنا من الحالة الحيوانية إلى الحرية ، و (الشر) هو ما يناقض التكامل ، ودفعنا نحو الحيوانية بشكلٍ انحطاطي وإبعادنا عن التكامل» [4] .

اختلاف العلماء :

«يقول الدكتور كارل : لم يتفق علماء الأخلاق في أي عصر وفي

---

(١) مصير البشرية ـ ص ١٥٥ .
(٢) الجمهورية ـ ص ٢٧٦ .
(٣) مسير الحكمة في اوروبا ـ ج ٣ ـ ص ١٣٠ .
(٤) مصير البشرية ـ ص ١٥٨ .

أي بلد على تعريف (الخير) و(الشر)، فالبعض اعتبر (الخير) بموازاة المفيد والصالح، والبعض الآخر اعتبره بما يطابق الطبيعة أو الإرادة الإلهية، و(الشر)، كذلك، مرادفاً للألم والظلم والجهل والتلقين الشيطاني. وعليه فإن تعريف (الحسن والسيِّىء) و(الخير والشر) كان مختلفاً وغير قاطع وثابت»(١).

حول معرفة (الخير والشر) هناك الكثير من أمثال هذه الأقوال لدىٰ القدماء والمتأخرين، ونستخلص منها نتيجة واحدة، وهي أن الإنسان لم يصل إلى التعريف أو المعيار الحقيقي لهما، ولا يعلم ما هو (الخير) وما هو (الشر).

قصور العقل البشري:

إن لدى الحيوانات، نتيجة الهداية التكوينية الإلٓهية، شعوراً بالخير والشر في الحياة، وبقوةِ الغريزة لديها تتعرف على الخير والشر، وعن هذا الطريق تصلُ إلى الكمال الذي تستحقُّهُ. ولكن الإنسان العاقل المتحرر من قيود الغريزة، والذي يمتلك حرية العمل فإنه لا يستطيع أن يحدد الخير والشرَّ في جميع الأزمنة والأماكن، ويعثر على حسنات حياته وسيئاتها. فبعد قرون من البحث والدراسة لم يتمكن الفلاسفة والعلماء من التوصل إلى تعريف كامل وشامل للخير والشر، ولا حتى أن يعرفوا خيرَهم من شرِّهم بواقعية.

وللتعويض عن هذا النقص، فإن الله تبارك وتعالىٰ تفضَّل علىٰ الإنسان بنعمةِ الهداية التشريعية، وأرسل الأنبياء عليهم السلام لكي يبينوا الحق من الباطل، ويُعرّفوا الناس على الخير والشر ويهدوهم إلى طريق السعادة والكمال.

قال الإمام الصادق عليه السلام لرجلٍ شامي: «لو كان الحقُّ على حدّه والباطلُ على حدّه كلٌّ واحدٍ منهما قائمٌ بشأنِهِ ما احتاجَ الناسُ إلىٰ نبي ولا وصي، ولكن خَلَطَهُما وجَعَلَ يَفْرُقُهُما الأنبياءُ والأئمةُ عليهم السلام من عباده»(٢).

---

(١) طريق الحياة ـ ص ٦٩.

(٢) بحار الأنوار ـ ج ١١ ـ ص ٢٢٩.

السعادة ومعرفة الخير والشر :

إذا أراد الإنسان أن يصل إلى السعادة الحقيقية والكمال الذي يليق به يجب أن يعرف خيرَهُ وشرَّهُ في جميع الأُمور المادية والمعنوية ، الجسمية والنفسية ، الظاهرية والباطنية ، الشخصية والإجتماعية ، الدنيوية والأخروية ، لكي يتجنب الشر ويتجه نحو الخير ، ويصل بالتالي إلى التكامل .

لا يوجد إنسان مهما كان مثقفاً وعالماً يحيط بفكره جميع الحسنات والمساوىء ، ويقف على الحق والباطل في جميع الشؤون البشرية . إن مثل هذه المعرفة الواسعة لا يمكن أن تكون إلّا بالهداية التشريعية الإلّهية ، وبهداية من أنبياء الله عليهم السلام .

إن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم قد جمع ذلك في جملة قصيرة قالها في اجتماعٍ حضره جمع من أقاربه : «إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة»(١) .

إن مسألة الأخلاق هي أحد الأركان الأساسية لسعادة الإنسان . إن من يطلب التكامل لا بد أن يعرف الأخلاق الحسنة والسيئة جيداً ، ويميز بين الفضائل والرذائل ، ويتخلق بالأخلاق الحسنة ، ويبتعد عن مذمومها .

إن القسم الأعظم من التعاليم الإسلامية يتعلق بالمسائل الأخلاقية ومعرفة الصفات الحميدة والرذيلة . لقد بُعثَ الرسولُ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ليعلم الناس مكارم ومحاسن الأخلاق ، ويوضِّحَ لهم الصفات الحميدة والذميمة ، ويجعل المجتمع يتخلق بالأخلاق الطيبة .

عن علي عليه السلام قال : سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «بعثت بمكارمِ الأخلاق ومحاسِنها»(٢) .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «بعثتُ لأُتمم مكارمَ الأخلاق»(٣) .

(١) بحار الأنوار - ج ٦ - ص ١٦٤ .
(٢) المصدر السابق - ج ٦ - ص ٣٤٦ .
(٣) سفينة البحار ، مادة (خلق) - ص ٤١٠ .

إن مكارم ومحاسن الأخلاق مؤثرة في جميع الجهات المعنوية والمادية للناس ، فبعض الصفات سبب لتوثيق العلاقات الإجتماعية إذ يبعث على تحسين هذه العلاقات . والبعض الآخر من الصفات له تأثير في السمو المعنوي والتكامل النفسي . وقسمٌ آخر من الأخلاق له فوائد ومنافع من جوانب اخرىٰ .

ومن حيث المجموع إن الهدف الأساسي للإسلام من مكارم ومحاسنِ الأخلاق هو وصول الإنسان إلى السمو والتكامل المعنوي والمادي ، وتأمين صلاح وسعادة الشخص ، فردياً واجتماعياً .

الاسلام والأخلاق النسبية :

أوصت الروايات الإسلامية بتغيير الأساليب الأخلاقية الصحيحة في مواقف خاصة وظروف ومعينة وتجنب القيام ببعض المحاسن ومكارم الأخلاق حيال أُناس معينين وفي حالات خاصة ، يصبّ في مصلحة وسعادة الفرد والمجتمع . وفي الحقيقة أن أولياء الإسلام سلامُ الله عليهم قد عرّفوا مكارم ومحاسن الأخلاق للناسِ بأنها نسبية ، وذلك بأن بعضَ الأخلاق الحميدة والصفات الطيبة مطلوبة في الشريعةِ المقدسة بصورة عامة ، إلّا أنها في ظروف معينة تصبح مرفوضة ، نشير إلى بعضها فيما يلي :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «يا علي إن الله عز وجل أحبَّ الكذبَ في الصلاح وأبغضَ الصدقَ في الفساد»[١] .

وقال علي عليه السلام : «الوفاءُ لأهل الغدر غدر عند الله سبحانه ، والغدرُ لأهل الغدرِ وفاءٌ عند الله سبحانه»[٢] .

وقال علي بن الحسين عليه السلام : «وحق من ساءك أن تعفو عنه وإن علمتَ أن العفوَ يضرُّ انتصرت»[٣] .

---

(١) بحار الأنوار ج ١٧ ص ١٤ .
(٢) غرر الحكم ص ٢٨٩ .
(٣) مكارم الأخلاق ـ ص ٢٣٤ .

وقال علي عليه السلام : «التكبر على المتكبرين هو التواضع بعينِه»[1] .

وعن أبي الحسن الهادي عليه السلام : إنه قال : «إذا كان زمانُ العدلُ فيه أغلب من الجور ، فحرامٌ أنْ يُظَنَّ بأحدٍ سوءً حتى يُعلَمَ ذلك منه ، وإذا كان زمانٌ الجورُ أغلبُ فيه من العدل فليس لأحدٍ أن يَظُنَّ بأحدٍ خيراً ما لم يَعلَمْ ذلك منه»[2] .

الأخلاق النسبية على أساس المصلحة :

يستفاد من هذه الروايات أن نسبية الأخلاق ، بمعناها الصحيح والتي تجلب السعادة ، كما وردت في الإسلام شاملةً لمصلحةِ الفرد والمجتمع ، فالصدق من الخصال الحميدة والمحبوبة لدى الله تبارك وتعالى ، ولكن ليس في كل مكان وزمان ، لأنه إذا كان باعثاً على الفساد فإنه مرفوض عند الله عز وجل ومبغوض ، كما أن الوفاء من الأخلاق المقبولة والصفاتِ الحميدة ، ولكن ليس بصورة مطلقة ، لأن ترك الوفاء لأهل الغدر مقبول وللصالح العام . والعفو والتغاضي من مكارم الأخلاق ، لكن عندما يكون العفو سبباً لتجرؤ الخاطىء ويؤدي إلى الأضرار ، فمن الأفضل معاقبته .والتكبّر من الصفات المذمومة ، ولكن ليس في جميع الحالات ، لأن بعض المتكبّرين ربما كان تكبّرهم له معنى التواضع وجعل المتكبّر يبتعد عن الأعمال غير المقبولة .

الظّنُّ من الصفات الذميمة أيضاً ، حينما يطغى الظلم والفساد على العدل والصلاح في مجتمع ما ، فإن هذه الصفة تكون حميدة .

والقرآن الكريم أوضح بعبارة واحدة الأخلاق النسبية لأتباعِ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم : **﴿محمدٌ رسولُ اللّهِ والذين معه أشداء على الكفار رحماءُ بينهم﴾**[3] .

---

(١) شرح ابن أبي الحديد ـ ج ٢٠ ـ كلمة ٤١٠ ص ٢٩٨

(٢) بحار الأنوار ج ١٧ ـ ص ٢١٦ .

(٣) سورة الفتح ؛ الآية : ٢٩ .

الاسلام ومعيار الحَسَن والسيىء :

إن النقطة التي تجلب الإنتباه هي الفارق بين الموقف الإسلامي وموقف العالم المعاصر من الأخلاق النسبية ، حيث إن المعيار للأخلاق الحسنة والأخلاق السيئة في الإسلام ، هو الصلاح والفساد الفردي والإجتماعي وسمو وانحطاطِ البشر ، ولكن عالم اليوم يقيس الحَسَن والسيِّىء بمقياس قبول ورفض الناس ، دون الإهتمام بالصلاح والفساد والخير والشر للفرد والمجتمع .

بعبارة أُخرىٰ ، إن أية صفة تكون حقاً لصالح الإنسان وتؤدي إلىٰ سعادتِهِ ، فهي خير وحَسَن ، وأيةَ صفةٍ تكون في خلافِ مصلحة الإنسان وتجلب الفساد والتعاسة ، فهي سيئة . وعليه فإن الصدق ، رغم أنه من الصفات الحسنة ، إذا كان باعثاً علىٰ الفساد ، يكون مبغوضاً عند الله عز وجل ، والكذب رغم أنه من الصفات الذميمة إذا كان باعثاً على الخير فهو محبوب لدىٰ الله تعالىٰ . ولكن ، في عالم اليوم ، إن الحَسَن والخير والصلاح في الأمر الذي يقبله الناس ، وإذا رفض الناسُ والمجتمعُ أمراً فهو سيِّىء . ولهذا فإن جميع الأمثلة التي ترد في الكتب عن الأخلاق النسبية فهي مبنيةٌ على أساس قبول ورفض الناس لها ماضياً وحاضراً .

أمثلة على نسبية الأخلاق :

«يقول ويل ديورانت : ونأتي الآن ببعض الأمثلة عن الأخلاق النسبية يقول (سمنر) : كانوا في جزيرة بريطانيا يبيعون لحم الإنسان ، كما يبيعُ قصّابونا الآن اللحم ، على الأقل في بعض جزر (سولومون) أهالي المنطقة يسمنون الوطنيين من البشر كالخنازير وخاصة النساء إعداداً لجعلهم وليمة تُقدَّم للضيوف الكبار .

يُمكنُ بسهولة ذكر أمثلة كثيرة لبيان أن أُموراً غير مقبولة في زمننا

ومكاننا تكون مقبولة في زمنٍ ومكانٍ آخرين»[1] .

«في جزر (موري) ـ مضيق تورس ـ كان الأهالي يرون أن من المستحسن أن يكون عدد الذكور والإناث متساوياً في العائلة وإن تجاوزعدد الذكور والإناث هذا الحد فإنه سيتم قتل الزائدين . وفي (هبريد) الجديدة ، كان عمل النساء كثيراً بحيث لم يكن يقدرن على إنجاب طفلين أو ثلاثة ، ولهذا فإذا زاد العدد عن ذلك فإنهم كانوا يدفنونهم أحياء فور ولادتهم»[2] .

استخدام كلمة حسن :

في عالم اليوم ونتيجة أن الأخلاق الحَسَنة والسيئة وبقية الأعمال تتبع قبول ورفض الناس فإنهم يطلقون كلمة (حَسَن) ، تحت عنوان الأخلاق النسبية حول بيع لحم الإنسان وقتل الأطفال . ولكن الإسلام الذي يقرن الأخلاق النسبية بمعيار مصلحة وسعادة الناس ولا يستخدم كلمة (الحَسَن) للأعمال الشرّيرة ، حتىٰ ولو كانت هذه الأعمال مقبولة لدىٰ مجموعة أو شعب ، أو جميع الناس على سبيل الفرض .

وكما كان إنسانُ الأمس يعتبر بعضَ الأعمال السيئة (حَسَنةً) ويقبلها ، ويعتبرُها عالمُ اليوم أُموراً منكرة ، كذلك يوجد في عالمِ اليوم ، وحالياً ، قبائح كثيرة من أمثال الفحشاء وشرب الخمر والقمار ، وأمثالُها من الخطايا تكون مقبولة لدىٰ الناس ، سيعتبرها عالمُ الغد المتكامل أعمالاً سيئة وقبيحة .

رياضة الملاكمة :

في عصر السيارة ، والآلة ، حيث انخفضت فيه نشاطات الإنسان الطبيعية وحركاته الجسمية ، أصبحت الرياضةُ ضرورية ومفيدة لسلامةِ الجسم وقوته . وفي رأي إنسان اليوم أن (الملاكمة) تعتبرُ رياضة مقبولة في العالمين الشرقي

---

(١) مباهج الفلسفة ـ ص ٨٥ .

(٢) علم النفس الإجتماعي ـ ج ١ ص ٨٣ .

والغربي ، حيث يتجمع عشرات الآلاف من الأشخاص في الملاعب الرياضية لمشاهدة لعبة الملاكمة التي يتواجه فيها اثنان سالمان ليوجه أحدهما للآخر قبضته الفولاذية ، وعندما يلكُم أحدهما عين الآخر ، أو يكسر فكَّهُ أو صَدْغَهُ وتجري منه الدماء يفرح المشاهدون ، ويصفقون بحرارة ، ويضربون الأرض بأرجلهم ، ويصرخون ، ويرفعون الملاكمَ الفائز على أكتافهم ، ويضَعون حلقات الورد حول عنقهِ ، وبعد ذلك يدفعون إليه مبلغاً ضخماً ، ويعتبرون عملَهُ عملاً حَسَناً .

إنه لمن العجب لإنسان اليوم كيف أن الجزيرة الفلانية في العالم ، يُسمّنون النساء كالخنازير لكي يقدموا لحومهن في الحفلات . ومن المتوقّع أن تصبح الملاكمة الموجودة اليوم للإنسان بعد خمسين عاماً عملاً يدفع للتعجب ، ويتساءل كيف أن هذا العمل الخشن ، العنيف ، والخطر ، كان مقبولاً لدىٰ إنسان عصر الفضاء ؟ ! وكيف كان يعتبره عملاً مقبولاً ؟ ! ولِمَ لم تدرس هذه التصرفات وتُحذف (الملاكمة) من جدول الأعمال الرياضية المجازة ؟ !

حكم المجتمع :

من الممكن أن تكون أحكام المجتمع صادقة في بعض المواقع ، ومطابقة للحقيقة ، ولكن لا يمكن اعتبار قبول ورفض المجتمع معياراً للحسنات والسيئات ، أو للخير والشر ، لأن الإنسان يقع في الغالب تحت تأثير أهوائِهِ ورغباتِهِ ، ويرىٰ الخير والشر في زاويةِ أهوائِهِ النفسية ، وقلّما يُعير أهميةً للمنافع والمفاسد الحقيقية .

منذ زمن بعيد أصبحت ، في العالم الغربي ، أهواء الناس مقبولة وصار المعيار في حُسْنِ وقبحِ المسائل الأخلاقية هو ما يوافق عليه أو يرفضُهُ المجتمع ، ونتيجةً لذلك فإن قسماً من المفاسد أصبح مُجازاً بحجّة أنه من الأخلاق النسبية . إن هذا الأُسلوب الخاطىء والمخالف للمصلحة العامة ينتشرُ يوماً بعد آخر ، وقد سرىٰ من عالم الغرب إلى الشرق . والآن اهتزّتْ المبادىء الأخلاقية عند بعض الشبان والرجال المتوسطي العمر ، إلى حدٍّ ما ، وفقدت قيمتها ، وهذا الأمر هو أحد أسباب الاختلافاتِ في العائلة والمجتمع .

إن الـوالدين يقيسـان الأخـلاق الحسنـة والسيئـة بمعيـار صـلاح وسعـادة الأبناء ، بينما معيار الأخلاق الحسنة والسيئة لـدىٰ الأبناء هـو رفضُ وقبول عـالم اليوم . يرىٰ الوالدان أن سعادة أبنائهمـا تكمن في اتباعِ الأخـلاق الفاضلة التي تعتمدُ على أساس المصلحة العامة . والأبناء يـرون سعادتهم في اتبـاع الأخلاق النسبيةِ التي تعتمد علىٰ مبدأ اللذة . الوالدانِ المسلمانِ المؤمنانِ يريدان أن يتبع أبناؤهما مبدأً أخلاقياً ثابتـاً واكتساب رضىٰ الله تعـالىٰ ، ويريـد الأبناء أن تكـون أعمالهم مطابقة للأخلاق النسبية في زمنهم والمؤيدة من الناس .

«يقول جون ديـوي : إن إبداء الـرأي حول عمـل أو تصرف ، مـع ملاحظة ردود فعـل المجتمع بـالنسبة لـذلك العمـل أو التصرف ، شيءٌ مقبـول إلى حدٍّ مـا ، ولكن يجب الإعتـراف أن الإفـراط في الإهتمـام بمـا يفـرضـه المجتمـع من أخـلاق سيؤدي إلى تـزلـزل المبـادىء الأخـلاقيـة إلى حـدٍ كبيْـر ، وتضعف الأخـلاق بشكـل محسوس ، لأن الحكم الذي يُبنىٰ على تشجيع أو تقبيح المجتمـع هـو في الغـالب عـاطفي وليس عقلياً ، وفي الحقيقـة فـإنـه يتبـع الآداب والتقاليد الإجتماعية وليـس التكهنـات العقليـة والمنطقية للخير والشر .

انتقاد المجتمع وتشجيعه :

إن انتقاد المجتمع وكشفه للعيوب يؤلم الشخص المنتقَـد ويدفعـه إلى الشعور بعدم الرضا ، وبالعكس يدفـع التشجيع الإنســان إلى الإستمرار في تصرفِـهِ وعملِهِ ، وهكذا فـإن حكم المجتمع يجعـل الأشخاص وخاصةً الحسّاسين منهم في موقفِ الدفاع مقابل أحكام الآخرين ، الذين يجعلون أُولئك الأشخاص يسعـون إلى أن تطابق تصرفاتهم أحكام المجتمع ، هذا بينما تكون أحكام المجتمع ذات أثر مطلوب إذا كانت محايدة لأخلاق الفرد ، والأشخاص في مثـل هـذه الـظروف يكـونـون في مـوقفٍ دفـاعي بحيث لا تسنـح لهم

الفرصة لكي يحكموا بعدالة على تصرفاتهم»[1] .

إن الفضيلة والرذيلة الأخلاقية أمرٌ واقعي وحقيقي لدىٰ الإنسان تماماً كسلامةِ جسمِهِ أو مرضِهِ . فكما أن أحاديث الناس لا تبدل السلامة إلى مرض والمرض إلى سلامة ، كذلك رغباتنا النفسية ، ونفي وإثبات الناس لا يمكنهما أن يُغيرا الواقعيات الأخلاقية أو يبدِّلا الرذيلة إلى فضيلة أو بالعكس .

القرآن ومعيار الخير والشر :

قال الإمام الباقر عليه السلام ، في هذا الصدد ، لجابر الجُعفي :

«واعلم بأنك لا تكون لنا ولياً حتىٰ لو اجتمع عليك أهلُ مِصرِكَ وقالوا إنك رجلُ سوء لم يَحزُنْكَ ذلك ، ولو قالوا إنك رجلُ صالحٍ لم يسرك ذلك ، ولكن اعرِضْ نفسَك علىٰ ما في كتاب الله فإن كنتَ سالكاً سبيلَه زاهداً في تزهيدِه ، راغباً في ترغيبِه ، خائفاً من تخويفِهِ ، فاثبتْ وابشرْ فإنه لا يضرك ما قيلَ فيك ، وإن كُنتَ مُبايناً للقرآنِ فما الذي يَغُرُّكَ من نفسِك»[2] .

---

(١) الأخلاق والشخصية ـ ص ٢٥٨ .

(٢) بحار الأنوار ـ ج ١٧ ـ ص ١٦١ .

المحاضرة العاشرة :

التباين بين القوانين الإلهية والبشرية

﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويُبشِّرُ المؤمنين﴾ .

[القرآن الكريم]

الاسلام وبعض أساليب الغرب :

إن إحدىٰ المسائل التي جذبت اهتمام الشباب المسلم، والتي جاءت علىٰ شكل سؤال ينتظرون جوابه بفارغ الصبر . هو : لماذا يمنع الإسلام بعض الأعمال الجائزة والمسموح بها في الدول المتقدمة الغربية وتمارس هناك كأمر طبيعي تعتبر في رأي الأُسر الملتزمة بالضوابط الإسلامية محرَّمة ومرفوضة ؟ أو بعبارة أُخرىٰ : لماذا بعض الشباب غير المسلم أو المسلم الغير ملتزم بالتعاليم الدينية لهم حرية أكثر ويتمتعون بلذائذ دنيوية كثيرة بينما الشبان المسلمون المتمسكون بالشرع يجب أن يُحرموا من تلك اللذائذ ؟ هل يُخالف الإسلام حرية التذاذ المسلمين ؟ ألا يريد الإسلام أن يتمتع أتباعُه بحرية ولذة أكثر ؟

علاقات الجنسين :

مثلاً يُقالُ إن الفتيات والفتيان مسموح لهم أن يقيموا علاقات صداقة فيما بينهم وقضاء الأيام والليالي معاً يحتضن أحدهم الآخر وهم قادرون على إشباع

شهـواتهم دون زواج قانـوني ، ثم لهم أن ينفصلوا عن بعض أو يتزوجـوا متى ما أرادوا .

بعض الدول تجـاوز هذا الأمر إلى مرحلة أكثر إذ اعتبـر التمتع بجميـع المسائل الجنسية أمراً قانونياً كيفما كانت العلاقـة طبيعية أو غيـر طبيعية منحـرفة عن مسير الفطرة .

لماذا لا تسمح التعاليم الإسلاميـة بالمعاشرة بين الفتيات والفتيـان بصورة حرة ودون قيد أو شرط ؟ لماذا منـع احتضان وتقبيـل الأجانب ، واعتبـار العملية الجنسيـة حتى ولو كـانت برضىٰ الـطرفين ممنوعـةٍ وغير شـرعية ؟ لمـاذا سمـح الإسلام بإشباع الرغبة الجنسية في الإطار الطبيعي ومنع الأساليب المنحرفة ؟ ثم لماذا سمح الإسلام باكتساب اللذة من قبل الشبـان والكبار في إطـار القانـون ، واعتبر الخروج على ذلك ذنباً أو إثماً ؟

الاسلام ومعيار الخير والشر :

إن الجواب على هذه الأسئلة هو ما ورد إجمالاً في المحاضـرة السابقـة . وهو أن العالم الغربي حدد الأعمال والأخلاق الحسنة والسيئة على أسـاس قبول ورفض الناس ، وبما أن الرأي العام قد قَبِلَ معـاشرة الفتيـات والفتيان والـرجال والنساء قبولاً حسناً فقـد سمح لهـذه الأعمال وأُجيـزت ، وأما في الإسـلام فإن المعيـار هو صـلاح وفساد النـاس ويُقاس الحَسَنُ والسيِّىء بـالمقارنـة مع سعـادة ومصلحة المجتمع ، وبمـا أن تلك الأعمال مخـالفة للمصلحـة الحقيقية للنـاس ومُضرّة بسعادتهم ، فإنها اعتبرت في الإسلام ممنوعة .

إن أسلوب الغرب ينسجم مع الغـرائز الـطبيعية ومـوافـق للرغبـات النفسية للإنسان . ولكن لهــذا الأُسلوب بالتأكيد مفـاسـد وأضرار كبيـرة . إن أسلوب الإسـلام يخالفُ الحـرية غيـر المحـدودة للغـرائز المنـافية لـلأخـلاق ، وهـذا التحـديد ، بحق ، يحفظ الإنسان من الكثير من الأضرار الفرديـة والإجتماعيـة الكبيـرة . إن العقل السليم يُلزم الإنسـانَ بغضّ الطّرفِ عن بعض الحـريـات ،

والإذعان لبعض الضوابط لكي لا يتعرض لعوارض ومصائب كبيرة . بعبارة أُخرىٰ إن الإنصراف عن الحرية المطلقة والحرمان من بعض اللذائذ شيءٌ سلبي ، ولكن العوارض والأخطار الفردية والإجتماعية الناتجة عنها أخطر وأكثر ضرراً . إن الإنسان يمكنه أن يتحمل الضرر القليل لكي ينجو من الضرر الثقيل .

قال علي عليه‌السلام : «ليسَ العاقلُ مَنْ يعرفُ الخيرَ من الشرِ ولكنَّ العاقِلَ من يَعْرِفُ خَيْرَ الشَّرَّيْنِ »[١] .

تسلل الاسلوب الغربي إلى الشرق :

والآن . رضينا أم أبينَا ، فإن أساليب العالم الغربي ، في المسائل الجنسية ، قد تسلّلت إلى الشرق ، إلى حدّ ما ، وتأثر بها الجيل الجديد ، وهذا الأمر أقلقَ الرجال والنساء المتمسكين بالتعاليم الدينية والتقاليد والعادات ، وخلق مشاكل كبيرة ، وأدىٰ في بعض الأحيان إلىٰ اختلافات عائلية وتوترِ العلاقات بين الأبناء والوالدين .

إن الوالدين المسلمين يريدان أن يتّبع أبناؤهما الشبان التعاليم الإسلامية وأن لا ينحرفوا نحو المعاشرة غير المشروعة المخالفة للعفة ، التي تجلب العار للعائلة . بينما بالعكس فإن الفتيات والفتيان ، تجذبهم الغرائز الجنسية ويودّون تجاهل التعاليم القانونية والأخلاقية للإسلام وتناسي العادات والتقاليد ، وسلوك الأساليب الغريبة لإشباع غرائزهم ، بإقامة علاقات بين الجنسين والإختلاط الحر لإرضاء رغباتهم .

الآباء والأبناء :

إن هذا الإختلاف بين آراء الوالدين والأبناء يؤدي بالتالي إلى حدوث مشاجرات وإيجاد عدم التفاهم في العائلات بحيث نسمع من خلال أخبار

---

(١) بحار الأنوار ـ ج ١٧ ـ ص ١١٦ .

الصحف كيف أن طريقة ارتداء الملابس من قبل الفتيات وتصرفاتهن تسبب قلق وعدم راحة الوالدين وتدفعُ بهما إلىٰ الغضب بحيث تجعلهم يندفعون إلى تعنيف أبنائهم ويصل الأمر أحياناً إلى ترك الأبناء العائلة أوالإقدام على الإنتحار.

ولكي يفهم الشبان والكبار منشأ الإختلاف بين القوانين الإلهية والقوانين الوضعية بشكل أفضل ، ويتعرفوا على القيم الحقيقية لتعاليم الإسلام السماوية ويُشخّصوا طريق سعادتهم ، سيدور حديثُنا ، في هذه المحاضرة ، حول وضع القوانين في الإسلام علىٰ أساسِ ضمان سعادة ومصلحة الناس ، ووضع القوانين في المجتمع الإنساني على أساسِ رغبة الناس ، ولتوضيح الموضوع نبدأ بهذا المثال :

تشابه الفرد والمجتمع :

المجتمع يشبه الإنسان ، واحدهما يشبه الآخر من جهات عديدة ، منها أن الإنسان يرغب ، أحياناً ، في شيءٍ له فيه الخير والمنفعة ، وأحياناً أُخرىٰ يميلُ إلىٰ شيء يضره ويفسده . كذلك المجتمع يرغبُ حيناً في أمرٍ فيه الخير والمنفعة للجميع ، وأحياناً لا يكون في ذلك الأمر خيرٌ ومنفعة .

مثال : الإنسان المُنهك يميل بشكل طبيعي للإستراحة ، وهذا ما فيه منفعتُه ، لأن النوم يدفع السموم الناتجة عن العمل ويأتي بالنشاط والقوة ، ويهيء الإنسان لنشاط جديد . المجتمع ، أيضاً ، يرغبُ في أن يكون محيطه آمناً وهادئاً لكي يعيش في رفاه وراحة ، وهذا الأمر لصالحِهِ أيضاً ، لأن أعضاء المجتمع ، مع وجود الأمن والهدوء ، يستطيعون أن ينشطوا في عملهم ويكونوا سبباً للتقدم والتطور .

ربما كان هناك شخص ، وبدافع غريزة الإلتذاذ ، يرغب في أن يلتذ من الحالة التي يولدها الهيرويين ، ولكن إشباع هذه الرغبة ليس في صالحِهِ ، لأن هذه اللذة تكلفه حياته ، وعزّته ، وشرفه ، ومن ثمَّ تؤدي به إلى الفساد والسقوط .

وأعضاء المجتمع ، وبدافعٍ فطري طبيعي ، يميلون إلى أن يكونوا أحراراً تماماً ، يفعلون ما يريدون ، يُشبعون أهواءهم دون قيد أو شرط ، ولكن إشباع هذه الرغبات ليس في صالح المجتمع ، لأن الحرية اللامحدودة تأتي بمفاسد كثيرة ومختلفة تدمّر المجتمع .

إن وضع القوانين في المجتمع ، يعني تعيين حدود الحَسَن والسيء ، والخير والشر ، وإذا ، حدد واضعو القوانين ، الخير والشر بمعيار الصلاح والفساد بين الناس ، وأجازوا ما فيه خير وصلاح الناس بقانون ، ومنعوا ما فيه الشرّ والضرر لهم بقانون فإن هذه القوانين تَجلِبُ سعادةَ وصلاح الناس ، وتدفع المجتمع نحو التكامل .

أما إذا حدد واضعو القوانين الخير والشرَّ بقبول ورفض المجتمع ، وطبقاً لموافقة وعدم موافقة الناس ، دون أن يهتموا بما فيه الصلاح والفساد لهم ، عندها يمكن أن تكون هذه القوانين مضرة للمجتمع وتأتي بالفساد والتعاسة للناس .

التشريع في الاسلام :

إن واضع القانون في الإسلام هو الله تبارك وتعالىٰ خالق الكون والإنسان، المحيط بجميع الحقائق إحاطة تامة كاملة ، اللهُ الغنيُ عن الناس ، لا تنفعه إطاعتهُم ، ولا تضرُّه معصيتهُم «غنياً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم ، لأنه لا تضرُّهُ معصيةُ مَنْ عصاهُ ، ولا تنفعُهُ طاعةُ من أطاعهُ»(١) .

إن واضع القانون في الإسلام ، هو الله عز وجل ، الذي يعرف الخير والشر للإنسان وصلاحَهُ وفسادَهُ ، ولا تخفىٰ عليه حقيقة ، وهو سبحانه يضع القانون على أساس معرفة الصلاح والفساد الحقيقيَّيْنْ ، فيسمح بقانون ما فيه خير وسعادة الناس ، ويمنع ما فيه الشر والضر لهم . وهذا الأمر من أهم المميزات

(١) نهج البلاغة ـ الخطبة ١٨٤ .

القانونية للقرآن الكريم ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم**﴾[1] .

بعث محمد بن سنان رسالة إلى الإمام الرضا عليه السلام وسأله فيها عن أنّ بعض المسلمين يتصورون أن المُجاز والممنوع في الإسلام لا يستند علىٰ أساس مصلحة وفساد الناس بل إنها لعبادةِ وإطاعة الله تبارك وتعالى ، فكتبَ إليه الإمامُ عليه السلام «قد ضل من قال ذلك ضلالاً بعيداً»

وقال عليه السلام ضمن الرسالة عن محرّمات الإسلام :

«ووجدنا المحرَّم من الأشياء لا حاجَةَ للعبادِ إليه ووجدناهُ مفسداً داعياً إلى الفناء والهلاك . »[2] .

يقول المفضل بن عمر سألتُ الإمام الصادقَ عليه السلام : لماذا حرّمَ الله تعالىٰ الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير علىٰ الناس ، فقال عليه السلام : «إن حرام الله وحلاله لم يكن علىٰ أساس الرغبة والزهد ولكنه خَلَقَ الخَلْقَ فَعَلِمَ ما تقوم به أبدانُهُم وما يُصلحهم فأحَلَّهُ لهم وأباحَهُ تفضلاً منه عليهم لمصلحتهم وعَلِمَ ما يضرهم فنهاهم عنه وحرَّمَهُ عليهم»[3] .

يُستفاد بوضوح من هذه الأحاديث ، والأحاديث الأُخرىٰ التي وصلتنا من أولياء الإسلام عليهم السلام ، أن التعاليم الإسلامية تقوم على أساس ما فيه مصلحةُ وفسادُ الناس ، فأحلَّ الإسلامُ ما فيه الخير والمصلحة المادية والمعنوية للناس ، وحرّم ما فيه شرٌّ وضررُ الناس، وحذّر المجتمع من ذلك .

الطبيب ومصلحة المريض :

والرسولُ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لكي يوضح قيمة القوانين الإلهية لسعادة وصلاح الناس ، ويبيِّن حلال وحرام الإسلام اللذين يستندان إلى الخير والشرّ ، وصف القوانين الإلهية بتوصيات الطبيب العالم ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

«يا عباد الله ، أنتم كالمرضىٰ وربُّ العالمين كالطبيب ، فصلاحُ المرضىٰ

(١) سورة الإسراء ؛ الآية : ٩ .

(٢) وسائل الشيعة كتاب الأطعمة والأشربة ـ ص ٢٣٦ .

(٣) بحار الأنوار ج ٣ ص ١١٨ .

فيما يعلمهُ الطبيب وتدبيره به لا فيما يشتهيه المريض ويَقترحُهُ ، ألا فسلِّموا لله أمرَهُ تكونوا من الفائزين»[١] .

إن هذا الوصف أفضل مَثَلٍ يمكنه أن يفصل بين رغبات الناس والمصلحة العامة ، ويُميِّز أُسلوب الإسلام عن أساليب عالم الغرب ، ويكون مصدراً للكشفِ عن الكثير من الحريات المفرطة والمخالفاتِ المعارضة لمصلحة عالم اليوم ويجيب على الكثير من أسئلة الشبان .

عندما ترتفع نسبة السكر عند مريضٍ ما يصاب بضعفٍ شديد ويقع طريح الفراش ، إن هذا المريض يميل طبيعياً إلى المواد السكرية والفواكه التي تحتوي على نسبة كبيرة من السكر والحلوى ، بأمل أن يستعيد قوته ويعوض عن ضعفه ، وخادمُهُ المطيع (النفس) على استعداد لتلبية طلباتهِ وتقديم أي نوعٍ من الطعام والفاكهة والحلوى . فيخالفه طبيبه الذي أجرىٰ التحليلات اللازمة على المريض وعرف سبب مرضه ، يقول له بصراحةٍ، إن طلباتِك تضر بصحتك فالأطعمة والفواكه الحلوة فضلاً عن أنها لن تمنحك القوة ، بل إنها ستزيد من مرضك وضعفك الحالي ، ومن المحتمل أن تكلفك حياتك ، فمن مصلحتِك أن تمتنع عن تناول أي نوع من أنواع الأطعمة والأغذية السكرية بل تناول الأطعمة المناسبة والمفيدة لحالتك حتىٰ تشفىٰ .

إن المريض إذا امتنع عن تناول الأطعمة الضارة ، وحال دون رغباتِهِ المضرة وصرف النظر عن الحريات المخالفة للمصلحة ، عندها يمكنه أن يستعيد سلامته ، ويحظى بالسعادة ، وبالعكس إذا كان طالباً للرغبات المخالفة للمصلحة ، وتناول الأطعمة الضارة عليه عندئذ أن لا يتوقع سلامةً أو سعادة ، بل إنه يعرض نفسه للخطر .

إن القانون الإسلامي يقوم علىٰ أساس مصلحة الناس ، والله عز وجل واضعُ القانون ، كالطبيب المعالج يعيِّن الصلاح والفساد والخير والشرَّ لدىٰ

---

(١) مجموعة ورام ـ ج ٢ ـ ص ١١٧ .

الناس عن طريق التعاليم الدينية ، ويتم إبلاغ الناس بذلك عن طريق الأنبياء .

نحن نعلم أن المريض ومن حوله يجهلون الكثير من إرشادات الطبيب ، ولا يعرفون حقيقتها ، ومع ذلك فإنهم دون أي تردد يُطيعون أوامره برحابةِ صَدْر لأنهم يعتقدون أن الطبيب يعرف حالة المريض ، وأن أوامره لصالح المريض .

المؤمنون أيضاً،رغم أنهم لا يعرفون أسباب الكثير من الأحكام الإلهية ولا يفهمونها ، فإنهم يخضعون لأوامر الله عز وجل ، وينفذون أوامره بلا تردد وينتهون بنواهيه دون قيد أو شرط ، لأنهم يعتقدون أن الأوامر السماوية للإسلام تضمن مصلحتهم وسعادتهم .

عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال : «إعلم أن رأس طاعة الله سبحانه التسليم لما عقلناهُ وما لم نعقلْهُ»[1] .

واضعو القانون في الغرب :

يقاس الخير والشر في العالم ، اليوم ، بموافقةِ ومخالفةِ الناس ، كما يُقاسُ الحَسَنُ والسيِّءُ بمعيار قبول ورفض المجتمع . ففي الدول المتقدمة التي تدار وفق مبدأ الحرية وحكم الشعب للشعب ، فإن مصدر السلطة هو الشعب ، وواضعي القانون هم نخبة الناس ، أو طبق تعريف الغربيين خدّام الشعب ، والخادم يجب عليه أن يطيع سيده وينفذ أوامرهُ دون سؤال ، وإذا تخلف مُنتخَبٌ عن مطالب ناخبيه فإنه لن يحصل على أصواتهم في الانتخابات التالية ويسلبونه سلطته .

«إن اتساع رقعة الولايات المتحدة الأمريكية ، جعل من المستحيل استقرار حكومة يُمكنُ إطلاق معنى (حكم الشعب للشعب) عليها . ولذا فإنهم اتخذوا الجانب العملي فأسسوا حكومةً فوّضوا فيها الأمور إلى ممثلي الشعب . الناخبون ينتخبون بعض الأشخاص

---

(١) بحار الأنوار ج ١٧ ـ ص ٢٠٩ .

المرشحين ، فيصبح هؤلاء ممثلين للأمة ، ويُمنحون صلاحيات ، وهؤلاء يستطيعون الاستفادة من هذه الصلاحيات طالما كانوا يحظون بموافقة ناخبيهم ، والناخبون لديهم وسائل يتمكنون بواسطتها من الضغط علىٰ ممثليهم ويذكرونهم بأنهم وإن كانوا قادة وزعماء للأمة إلّا أنهم خَدَمٌ للشعب . الطريقة الرسمية لبيان قوة الشعب هي الانتخابات ، فالمرشحون للمناصب العامة يقدمون عادةً برنامجاً إلى الأشخاص الذين يتوقعون دعماً منهم . ويشرحون لهم سياستهم ، والمرشح الذي يرشح نفسه مرةً أُخرىٰ يقوم بهذا العمل أيضاً كما يشرح خدماته السابقة . ولهذا لا يمكن أن يغفل هؤلاء عن أنهم ، في الإنتخابات القادمة ، يواجهون ما يشبه (يوم الحساب السياسي) وهذا الأمر يؤثر عليهم كثيراً»(١) .

القانون المرفوض :

واضعو القوانين في الدول المتقدمة ، اليوم هم منتخبو الشعب ، وفي الواقع هم منفذو مطالب الناس ، ومجبرون كالخدم ، على تحويل مطالب سادتهم إلى قوانين ولا يهمهم إن كانت هذه المطالب صحيحة تجلب السعادة للمجتمع ، أو خاطئة تضر الناس أو بعبارة أُخرىٰ أن واضعي القانون في العالم الغربي لا يهمه الصلاح والفساد ، أو الخير والشر الحقيقي بل كل همه وضع القوانين علىٰ أساس رغبات الناس والتصديق عليها ، وإذا حدث أن تجاهل واضعو القوانين رأي الناس ، وصادقوا على قانون مخالف لرغبات المجتمع ، حتى وإن كان مفيداً ، فإنهم سيواجهون برد فعل عام ، وفي النهاية فإن ذلك القانون يُرفض من قبل الناس .

«في المجتمعات المتقدمة توضع العادات والتقاليد في قوانين ، ولكي تكون القوانين مؤثِّرة فلا بد أن تكون مطابقة

---

(١) حكومة الشعب ـ ص ١٥١ .

للعادات والتقاليد الموجودة وإلّا فإنها ستفشل . وأفضل دليل علىٰ هذه الحقيقة قانون منع التفرقة العنصرية في أمريكا ، فهذا القانون قد جاء بنتائج عكسية في بعض الولايات التي لا تزال الآراء فيها مخالفة له ، لأنه يجب أولاً التمهيد للأمر قبل أن يكون بالإمكان قلع أفكار التفرقة العنصرية من أذهان بعض الناس الجاهلين ، ومع ذلك من الممكن أن تكون القوانين مؤثِّرة بالنسبةِ لبعض العادات بشرط أن تكون هذه العادات في حالة انحطاط ولم يعد الناس متعلقين بها ، وفي هذه الحالة فإن المعارضين يُجبَرون بالتدريج على قبول قانون جديد ، ومثالاً على ذلك ما عزمت عليه المحكمة العليا في أمريكا من منع فصل البيض عن السود في المعاهد التعليمية في أمريكا»[١] .

علماء الإجتماع والحكومة الديمقراطية :

يعتقد علماء الإجتماع أن الحكومات الديمقراطية بأشكالها المختلفة في الدول المتقدمة في العالم ، هي أفضل نوع للحكومات ، لأن مصدر القوة فيها هو الشعب ، وصلاحيات أصحاب السلطة فيها مستمدة من إرادة وآراء الشعب ، فأبناء الشعب هم الذين ينتخبون الممثلين لهم ، ويوصلونهم إلى المجلس التشريعي ، وهؤلاء ، الممثلون للشعب ، يضعون القوانين وفق ما يطلبون . وفي الواقع أن الشعب يحكم نفسَه بنفسِهِ في الحكومات الديمقراطية .

«هذا النوع من الحكومات ظهر لأول مرة في انكلترا بعد ثورة عام ١٦٨٨ ، ثم تطور في المستعمرات الأمريكية ، ثم تمَّ تنفيذه بشكل كامل في عهد حكومة (آندريو جاكسون) في أمريكا . لقد قام هذا النوع من الحكم علىٰ أساس متين في أمريكا والدول الكبرىٰ في غرب أوروبا ، كبريطانيا وفرنسا واسكندنافيا ، ومن ثمَّ

---

(١) علم الإجتماع ـ صموئيل كينغ ـ ص ٩٢ .

توسع وانتشرَ في بقية الدول ، ويعتبر اليوم بمثابةِ الحكم المثالي ، وهو ما يسعىٰ إليه العالم بسرعة ، ولا يمضي وقتٌ طويل حتىٰ يشمل العالم بأجمعه»[1] .

حكومات العهود الماضية :

لا شك أن الحكومات الديمقراطية ، اليوم ، مبنيةٌ على آراء الجماهير ومطالبهم ، ولا يمكن مقارنتها بالحكومات الإستبدادية في العهود الماضية . في تلك العهود كانت الجماهير والشعوب كالعبيد أو الحيوانات أسيرة في يدِ بعض الحكومات ، مسلوبة الإرادة وليست لها أية حقوق ، ولا تشعر بأي نوع من أنواع الأمن ، فحياتهم وأموالهم معرضة للخطر . وأما اليوم فإن الشعب هو صاحب الحق ومصدر القوة في الحكومات الديمقراطية ، وله حق عزل وتعيين الحكومة ، والشعب يختار الأشخاص لكرسي الحكم ويعطيهم الصلاحيات أو يعزلهم ويسلبهم الصلاحيات التي منحها لهم . ولكن رغم كل المحاسن يجب أن لا نتصور أن الحكومات الديمقراطية خالية من أي نقص .

ايجابية الديمقراطية :

«هناك مجموعة من علماء الإجتماع تناولت الموضوع بالتحليل العلمي ، وأيّدت أن الديمقراطية ، بالمقارنة مع الأهداف الأُخرىٰ ، هي الأفضل ، والأشخاص الذين يفرطون في المدح بها ، إنما يُصدرون ذلك عن آرائهم الشخصية ، بينما يعتقد (غيدنغر) أن ما تمتاز به الديمقراطية ينحصر في أن الآراء الشخصية لعدد من واضعي القانون هي أقل استبداداً من حكامِ بقية الأنظمة ، ويراعون فيها روح المسؤولية ، ولهذا فهم أقل ظلماً ، ويلاقون احترام الناس»[2] .

---

(١) المصدر السابق ـ ص ١٨٠ .

(٢) المصدر السابق ـ ص ١٨٠ .

«كندي رئيس الجمهورية الأسبق في الولايات المتحدة الأمريكية يقول : طبقاً لقول تشرشل فإن النظام الديمقراطي هو أسوء أنواع الحكومات ، ولكن مع ذلك أفضل أنواع الأنظمة التي رآها البشر حتىٰ الآن»(١) .

إذا أخذنا بعين الاعتبار أن أنواع الحكومات الديمقراطية تضم واضعي القانون المنتخبين من قبل الشعب ، ويجب عليهم أن يضعوا القوانين وفق مطالب الشعب ، يَطرحُ هذا السؤال نفسه : هل أن مثل هذا الشخص الذي يضعُ القانون (وفق طلب الشعب) بإمكانِهِ أن يضمن سعادة الناس من جميع الجوانب ؟ طبعاً سيكون الجواب بالنفي ، لأننا نعلم أن سعادة الإنسان كسلامته هو أمر حقيقي غير نابع من رغبات الناس ، ولا يمكن معالجة مريض دون علاج ولا يمكن أن يصل إنسان إلى السعادة اعتباطاً .

تأمين صلاح المجتمع :

فكما أن سعادة وكمال الطبيب العالم ، الطالب لخير الجميع ، تكمن في اتباع الضوابط التكوينية لمزاج المريض بنظرة واقعية ، وتقديم النصائح والعلاج اللازم ، دون الإهتمام بمطالب المريض الضارة بمصلحتِهِ ، لكي يتمكن من استعادة صحته وسلامته ، كذلك فإن سعادة وكمال القادة وواضعي القانون في المجتمع تكمن في وضع قرارات تكون لصلاح وسعادة الناس ، وتمهد لسموهم وتكاملهم ، دون أن يهتموا بالمطالب الضارة بالمجتمع .

قال علي عليه السلام : «من كمال السعادة السعيُ في إصلاحِ الجمهور»(٢) .

تعامل الأنبياء مع الناس :

إن الانتصارات الكبيرة التي حصل عليها الأنبياء ، طوال تاريخ البشر ،

---

(١) سيماء الصالحين ـ ص ١٧٨ .

(٢) غرر الحكم ـ ص ٧٣٢ .

والإصلاحات التي تمت علىٰ أيديهم ، إنما جاءت لأن رُسُلَ الله ، عليهم السلام ، كانوا يتصرفون مع أبناء أُمتهم تصرفَ الطبيب مع المرضىٰ ، كانوا يقولون ما فيه خير وصلاح المجتمع بصراحة ، ويصرّون علىٰ تنفيذ ذلك ، ويرفضون المطالب التي تنافي مصالح الناس ، ويحذرون الناس من رغباتهم الضارة تلك .

ولو كان الأنبياء عليهم السلام يريدون أن يتبعوا مطالب الناس كواضعي القوانين في الحكومات الديمقراطية ، ويتجاهلون مصالح المجتمع ، لاضطروا إلى قبول جميع الضلالات الإعتقادية والجرائم لدىٰ الناس ،وتأييد جميع أفكارهم وأعمالهم الخاطئة .

ولو أراد إبراهيم الخليل عليه السلام أن يتبع آراء جميع الوثنيين ، لكان عليه أن يبقي على جميع الأصنام والأوثان ، وينظر إلى العبادة الحمقاء للناس دون أن يفتح فمه باعتراض .

ولو أراد نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم أن يتبع رغبات الناس لكان عليه أن يبقي على الأصنام داخل الكعبة . ويؤيد وأد الأطفال والتضحية بهم من أجل معبودهم الخشبي أوالحجري ، لأن ذلك كان مطلباً من مطالب المجتمع وعملاً صحيحاً لدىٰ الناس ، ولكان عليه أن يسمح ببيع النساء كالخراف ويعتبر كل تلك الأعمال قانونية . ومن الواضح أن مثل هذا الأسلوب لا يعدو غير الإستمرار في الجهل والتعاسة بالنسبةِ للناس .

إن تناول المشروبات الكحولية من العادات المضرة والخطرة جداً في حياة الناس ، فالمشروبات الكحولية ، تفقد الإنسان عقلَه ، وتأتي بفسادِ الأخلاق ، وتؤثر في أعضاء البدن ، وتهدد سلامة الإنسان ، وتدبُّ الفوضىٰ في المجتمع ، وتدفع بالإنسان نحو الجريمة ، وهي بالتالي تُحدث المفاسد الكبيرة في الحياة الفردية والإجتماعية .

قال الصادق عليه السلام : «مُدمُن الخمر كعابد وثن ، يورثُهُ الإرتعاش ، ويذهبُ بنورِهِ ويَهدمُ مروَّتَهُ ، ويحمله علىٰ أن يجسُرَ علىٰ المحارم من سفك

الدماءِ وركوب الزّناءِ ، والخمرُ لا يزدادُ شاربُها إلّا كلّ شر»[1] .

الاسلام وتحريم الخمر :

كان شرب الخمر شائعاً في الجزيرة العربية . وكان الناسُ يشربـون الخمر علناً فـي المجالس ، وكان الكثير من العائلات تملك في منازلها أجهـزة صناعـة الخمر ، حيث كانـوا يصنعون منهـا ما يحتـاجون سنـوياً . وكـان للخمر جـانبٌ اقتصادي ، حيث كان البعض يرتزقُ من بيعهـا . وكان شـرب الخمر مقبـولاً في ذلـك العهد من قبل الجميع حيث ينـظر إليه على أنـه ضمن العادات والتقـاليد الاجتماعيـة المهمة .

والإسلام ، بهدف ضمانِ سعادة النـاس . كان لا بـد أن يمنع هـذا العمل الضـار بـالمصلحـة العـامـة ، وأن يحـرّم شـرب الخمـر ، وينقـذ المجتمـع من المساوىء الناتجة عنـه . ولكن هـذا الأمر كـان بحاجـة لفرصـة مناسبـة وظروف مساعدة ، ليصبح تحريم الخمر عملاً مؤثراً ويعطي نتيجـة طيبة ، وجـاءت تلك الفـرصة بـالتدريـج ، حيث أصبح الإسـلام أقوىٰ شيئـاً فشيئاً وانتشـرت التعاليم الإلهية بين الناس ، وتم بذلك التمهيدُ لتحريم شرب الخمر .

ذات يوم دعا سعد بن أبي وقّاص أحـد الأنصار ، وكـان قد تـآخىٰ معه . فتناولا الطعام والشراب وسكـر الإثنان ، وهمـا في حالـةِ السكر يـذكران مفـاخر الجاهلية ، وبالتدريج وصل الأمر بينهما إلى الشجـار ، فتناول الأنصـاريُ عظام فـك بعير كـان على المائـدة وضربَ بـه وجه (سعـد) فَشَجّ لـه أنفه ، بعـد هذه الحـادثة نـزلت آيـة منـع الخمـر : [2]

﴿يـا أيهـا الـذين آمنوا إنما الخمـرُ والميسـرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجسٌ من عملِ الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحـون إنمـا يـريـدُ الشيـطانُ أن يـوقـعَ بينكم العـداوة والبغضـاء في الخمـر والميسـرويصدَّكُم عن ذكر اللهِ وعن الصَّـلاةِ فهل

---

(١) وسائل الشيعة كتاب الأطعمة والأشربة ، ص ٣٣٦ .

(٢) تفسير مجمع البيان ، ج٣ ، ص ٢٤٠ (بتصرف)

أنتم مُنتهون﴾[1] .

مع نزول آية التحريم . زالت عادة شرب الخمر وصناعتها ورحب الناس بهذا الأمر الإلهي ترحيباً حاراً وأراقوا الخمور التي كانت في بيوتهم ، وحطموا كوز الشراب . بحيث إن رائحة الخمر كانت تُشتمُّ في الطرقات لعدة أيام . عندما أعلن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أمر التحريم ، كان هناك شاب فأسرع إلى المنزل ليخبر والديه بالخبر ، وعندما وصل إلى المنزل وجدَ أباه مع عددٍ من الضيوف يتساقون الخمر ، وكان الأب يُقربُ قدح الخمر من فمهِ ، فصاح فيه الابن (لا تشرب يا أبي . لأن الله سبحانه قد حرّم شرب الخمر) فأطاع الأب فوراً وَجَمَع مائدة الشراب ، وهكذا فعل بقية المسلمين .

الاختلاف بين الرسل وواضعي القوانين :

واليوم ، هل يوجد أشخاص يضعون القوانين لصالح البشر في الدول الديمقراطية كما فعل الأنبياء والرسل ؟ هل يقدرون أن يضعوا قوانين تكون في صلاح وسعادة الناس حقاً . وينقذون الناس من التعاسةِ والبؤس ؟ طبعاً الإجابة ستكون بالنفي ، لأن الأنبياء هم رسلُ الله تبارك وتعالى ، وهم أطباء الناس ، والطبيب هو المحافظ على مصلحة المريض وليس منفذاً لرغباتِهِ ، ولكن واضعي القوانين في الدول الغربية هم منتخبون من قبل المجتمع وخدمٌ للناس ، والخادم واجبه تنفيذ رغبات سيده دائماً ، حيث إن هذه الرغبات هي في صالح السيد ومع تحقيقها تتحقق مصالحهُ ولكن عندما تكون الرغبات مخالفة للمصالح ، فإن الخادم يتجاهل المصالح ويلبي رغبات سيده .

مثال : في الظروف الحالية في فرنسا ، هل يستطيع واضعو القانون والحكومة أن يحرموا المشروبات الكحولية ، وينقذوا الشعب الفرنسي من هذا البلاء ؟ للإجابة على هذا السؤال لا بد من ملاحظة ثلاث نقاط :

«**الأخلاق والتقاليد** : في فرنسا تقترن المناسبات الكبيرة والصغيرة بتناول المشروبات الكحولية (الخطوبة ، الزواج ، الضيافة ،

---

(١) سورة المائدة ؛ الآيتان : ٩٠ و ٩١ .

والنجاح) . العادة في فرنسا أنه لا يقام احتفال دون مشروبات كحولية .

الرأي العام : في رأي معظم الفرنسيين أن الإكتفاء بالمشروبات غير الكحولية شيء مستهجن .

المصالح والمنافع : إن أربعة ملايين فرنسي (من أصل ١٧ مليون شخص منتج) يعيشون على إنتاج أو بيع المشروبات الكحولية»[1] .

في هذه الحالة لا يتمكن واضعو القوانين من تحريم المشروبات الكهولية ، لأن الناس يطالبون بها ، وعلىٰ أُولئك أن يلبوا مطالب الناس ، وعلى فرض تصديق هكذا قانون من قبل المجلس النيابي فإنه لن يُنفذ ، لأن رئيس الجمهورية الذي يرأس القوة التنفيذية هو الآخر منتخب من قبل الناس ، وإذا أراد أن ينفذ مثل هذا القانون خلافاً لما يريد الناس ، فإنه بالتأكيد سيواجه بردود فعلٍ شديدة ، وكما قال (مكيافيلي) إن مثل هذه الحكومة مرفوضة ومحكوم عليها بالسقوط .

حظر المشروبات الكحولية في أمريكا :

«منذ عام ١٨٢٨ بدأت حملة في الولايات المتحدة الأمريكية ضد المشروبات الكحولية ، وبالتدريج اتّسعت فكان أن صادقت ، حتىٰ عام ١٨٦٩ ثلاث عشرة ولاية ، على قانون تم بموجبه منع استعمال المشروبات الكحولية ،وأدىٰ ذلك إلى أن تقوم ثلاث وثلاثون ولاية من أصل ثمانٍ وأربعين ولاية بالمصادقة علىٰ قانون تحريم المشروبات الكحولية .

إن المصادقة على هذه القوانين أدّت إلى نشوب صراع بين

---

(١) العلوم الجنائية ـ ج ٢ ـ ص ٩٨٢ .

المؤيدين والمعارضين ، ووصل الخلاف بينهم إلى ديوان القضاء الأعلىٰ . وفي النهاية استعد الرأي العام في أنحاء أتازوني إلى قبول التحريم الوطني للمشروبات الكحولية . وحَدَثَ إصلاحٌ في هذا المجال ، فقد صادق الكونغرس في ديسمبر عام ١٩١٧ علىٰ إصلاح في الدستور جاء فيه :

المادة الأُولى : بعد المصادقة على هذه المادة بسنة سيمنعُ صنع وبيع أو حمل المشروبات الكحولية ، كما سيمنع تصديرها من أتازوني أو إدخالها إلى أتازوني ، أو الأراضي التابعة لإدارة أتازوني .

المادة الثانية : يستطيع الكونغرس ، أو أية ولاية من الولايات المتحدة ، اتخاذ إجراء بالإتفاق أو بتصديق قانون خاص لتطبيق هذه المادة . واقتُرح في المادة الثالثة ، طبقاً للدستور ، أن تصادق الولايات ، التي تعمل وفق الدستور ، خلال سبع سنوات ، علىٰ هذا التعديل وإلاّ فإنه يفقد اعتباره .

في كانون الثاني عام ١٩١٩ صادقت ثلاثة أرباع الولاياتِ المتحدة على التعديل المذكور ، وهذا هو النصاب القانوني الذي يريدُهُ الدستور ، ثم صادقت عشر ولايات أمريكية أُخرىٰ على هذا التعديل ، وهكذا فإن ٤٦ ولاية من أصل ٤٨ ولاية في أمريكا صادقت على التعديل الثامن عشر»[١] .

الرأي العام في أمريكا :

كان الرأي العام للشعب الأمريكي في ذلك الزمن يسير في المسار الصحيح الموافق لمصلحة المجتمع ، فأكثر الناس كانوا من مؤيِّدي منع

(١) العلوم الجنائية ـ ج ٢ ـ ص ٩٧٤ .

المشـروبات الكحـولية عن وعي ، ويـطالبون بـالمصادقـةِ علىٰ قانـون منعهـا . ونتيجة رأي أكثريـة الشعب فإن النـواب في الكونغـرس ، وواضعي القانـون في مجالس الولايات تشجعوا على المصادقة على قانون منع المشروبـات الكحوليـة ووضع نهايةٍ لهذه العادة المدمّرة .

والحقيقة أن قانون الحظر كان مفيداً لدرجة أن ظهرت نتائـج باهـرة خلال مـدة قصيرة ، بحيث إن بعض الأشخـاص المعارضين لقـانون التحـريم أُجبـروا على الإعتراف بفوائد وثمرات هذا القانون .

ثمار الحظر :

«يقـول رئيس جـامعـة هـارفـارد المعـارض لهـذا الحـظر : يمكن ملاحظة شهود ووثائق كثيـرة تـدل علـى حُسـن تأثيرِ التحـريم في كـل مكان ، وقـد ساعـدَ ذلـك على السـلامـةِ العـامـة ، وسعـادة الجميع ، وفي مجالي العمل والصناعة، بل أدّت هذه العوامل إلى الازدهـار ، وقــد تلمس أصحــاب الـصنـاعــات ، الأطبــاء ، الممرضات ، ومن كل الطبقات (في مراكز التعليم ، والمصانـع ، والمستشفيـات)حُسن تأثيـر حظـر المشـروبات الكحـولية في تلك المناطق . إن هذه النتائج رغم التنفيذ الـنـاقص لهـذا الـقـانــون الإصلاحي قد برزت بوضوح في جميع الأوساط .

احتـوى كتاب (جـوردن) وثائق وشـواهد كثيـرة عن نتائـج التحريم الوطني للمشروبات الكحولية ، فطبقاً لتقريـر هؤلاء المحققين فإن النتائج السريعة للتحريم كانت :

زيـادة قـدرة الشـراء لأبنـاء الشعب ، ظهـور أحسن النتـائـج في المصــانـع ، تقليـل الحـوادث أثنــاء العمـل ، انخفــاض عـدد المسجونين وانخفاض عدد الأطفال سيئي السلوك ، بالإضافـة إلىٰ

انخفاضٍ واضح في نسبةِ الوفيات»[1] .

ورغم كل هذه الآثار والنتائج المفيدة فإن المعارضين لم يهدأوا ، وتحالف صانعو المشروبات الكحولية وبائعوها والذين يحصلون على أرباح طائلة من ورائها مع الداعين إلى حرية شرب المشروبات الكحولية ، وقاموا بنشاطات حادة ومن جميع الجوانب ضد قانون الحظر وبمساعدةِ بعض الصحف المأجورة بدأوا هجوماً إعلامياً ، ثم بدأوا بالنفوذ بين الناس، وتمكنوا بالتدريج من تغيير سير الرأي العام ، وأخيراً أوجدوا ظروفاً في الكونغرس تمكنوا من خلالها من إلغاء قانون تحريم المشروبات الكحولية .

إلغاء قانون الحظر :

«إلغاء التعديل الثامن عشر ، قام الكونغرس في العشرين من شباط عام ١٩٣٣ بتدوين التعديل رقم واحد وعشرين في الدستور الأمريكي والمصادقة عليه كما يلي :

المادة الأُولى : يُلغى التعديل الثامن عشر من دستور الولايات المتحدة الأمريكية بموجب هذا القانون»[2] .

تجاهل الحقيقة :

هكذا نرىٰ أن الكونغرس ومجالسُ وضعِ القوانين في المحافظات وبدعمٍ من الرأي العام يحرم في يومٍ صُنعَ وبيعَ وشراءَ واستيراد وتصدير المشروبات الكحولية في كافة أرجاء أمريكا ، وفي يومٍ آخر يقوم الكونغرس وبالإعتماد علىٰ الرأي العام أيضاً بإلغاء قانون تحريم المشروبات الكحولية ويسمح بشربها . والآن هل وضع قانون وإلغاء قانون يغير شيئاً من واقع المشروبات الكحولية وهل تترك موافقة الناس أو معارضتهم أثراً على سُمّ المشروبات الكحولية وتغير من خصوصياتها الطبيعية ؟ أليس قبول أو رفض الناس للخير والشر أو الحَسَنِ

---

(١) المصدر السابق ـ ج ٢ ـ ص ٩٧٦ .
(٢) المصدر السابق ـ ج ٢ ـ ص ٩٧٨ .

والسيِّىء بمعنىٰ تجاهل الحقيقة والإستهزاء بالواقع ؟ .

«يقال إن رجلاً اعترف في نهاية مرحلة منع المشروبات الكحولية أنه صنع وباع (البيرة) وقبل أن يصدر حكمٌ عليه أُلغي قانون المنع ، فكان أن حكم عليه بدفع مبلغ معين ، ثم أخذوا منه عهداً بأن يعمل حتىٰ يدفع المبلغ الذي حُكِمَ به عليه ، وطبعاً كان قصدُهُ أن يصنع المشروبات ويبيعها لكي يحصل على المبلغ الذي حكم به عليه نتيجة صُنْعِهِ لهذه المشروبات»[1] .

اتباع قانون التكوين :

الحقيقة أن المشروبات الكحولية تترك أثراً سيئاً وخطيراً على أنسجةِ الجسم ، وهذا أمرٌ طبيعي ولا يمكن إنكارُهُ أبداً .

فسواء شاء الناس أم رفضوا ، أو صادقَ الكونغرس أم ألغىٰ ، فإن شرب المشروبات الكحولية ليس بصلاح وسعادة الإنسان ، ومن أراد أن يبتعد عن الأعراض السيئة والخطرة لها عليه أن يكون واقعياً ، ويتبع قانون الخَلْق ، ولا يقترب من هذا السُّم المهلك .

إن النقص الكبير في الحكومات الديمقراطية هو أنها تعتبر الحَسَنَ والسيِّىء طبقاً لرأي الناس وتعين موافقتها وممانعتها طبقاً لرأي المجتمع ، ولا تهتم كثيراً للمصلحة الحقيقية التي تنسجم مع القرارات التكوينية ونداء العقل .

إن مطالب ورغبات المجتمع هي معيار الأخلاق النسبية وأعمال الخير والشر في الدول الديمقراطية . وللأسف فإن أغلب رغبات الناس تنبع من أهواء النفس وشهواتها ، واتِّباع هوى النفس ينافي العقل ويسبب الهلاك والتعاسة .

قال علي عليه السلام : «ذَهابُ العقلِ بين الهوَىٰ والشهوة»[2] .

وعنه عليه السلام : «إذا غَلَبَتْ عليكم أهوائُكم أوردتكُم مواردَ الهَلَكَة»[3] .

---

(١) المصدر السابق ـ ج ٢ ـ ص ٩٧٨ .

(٢) و(٣) غرر الحكم ـ ص ٤٢٦ ـ ٤٢٧ .

خطر الحرية المطلقة :

إن عالم اليوم يواجه مصائب كبيرة نتيجة اتّباع الهوى والميول النفسية . إن الحريات المطلقة المخالفة لمصالح الناس تولدُ بلايا مختلفة ، فقد أخذت الجرائم في الدول المتقدمة تزداد يوماً بعد يوم ، وكما يقول الإمام علي عليه السلام : فإن هوى النفس يورد المجتمعات البشرية موارد الهلكة .

ارتفاع نسبة الجرائم :

«لقد جاء في التقرير الذي نشره (إدغارهوفر) رئيس منظمة التحقيقات الأمريكية (FBI) أن عدد الجرائم في أمريكا قد ازداد في عام ١٩٦٧ بنسبةِ ١٥,٣٪ . وقال هوفر في تقريره : ربما لم تصل نسبة الجرائم إلى هذه الدرجة في تاريخ بلادِنا . إن أرقام وإحصائيات هذه الجرائم التي أُخذت من ملفات الشرطة المحلية والشرطة الفِدرالية تشير إلى أنه في عام ١٩٦٧ قد. وقعت أكثر من ٣٨ مليون جريمة عنيفة في أمريكا .

تنقسم هذه الجرائم إلى قسمين :

١ ـ القتل والسلب والإغتصاب والهجوم بالأسلحة .

٢ ـ سرقة الأموال بقوة السلاح .

وجاء في التقرير تأكيد بأن أكثر هذه الجرائم تمت بواسطة الأسلحة النارية فقد حدثت ٧٦٠٠ جريمة قتل بالمسدس ، و٥٢ ألف حالة هجوم واغتصاب ، و٧٣ ألف حادثة سرقة عام ١٩٦٧ .

ومنذ عام ١٩٦٤ وحتى الآن ازداد استخدام المسدس في ارتكاب الجرائم بنسبة ٤٧٪ ، ٥٨٪ للسرقة ، ٧٦٪ للهجوم علىٰ الآخرين .

وبناء على إحصائيات التقرير المذكور فإن احتمال قتل أمريكي

متوسط (شخص عادي في المجتمع) عام ١٩٦٦ كان واحداً من بين خمسين ، فازداد بنسبة ١٥٪ . وذكر في مكان آخر في التقرير أن الجرائم في المدن التي يبلغ عدد سكانها أكثر من (٢٥٠) ألف شخص ازدادت بنسبة ١٧٪ ، وفي الضواحي الريفية ١٢٪ . وتم احتساب معدل الجرائم زمنياً كما يلي : كل ٤٣ دقيقة تقع جريمة قتل ، وكل ١٩ دقيقة عملية اغتصاب وكل دقيقتين هجوم وتهديد بالسلاح ، وكل دقيقتين ونصف سرقة عادية ، وكل عشرين ثانية سرقة بيت ، وكل ٤٨ ثانية سرقة سيارة ، وكل ثلاثين ثانية عملية نشل»(١) .

نعتقد أن ما ورَدَ في هذه المحاضرة يجيب بوضوح على الأسئلة الدينية للشباب التي جاءت في بداية هذا البحث ، كما اتضح لماذا أن قسماً من القرارات الأخلاقية والعملية للإسلام تخالف الأساليب المعمول بها في عالم الغرب ، ولماذا حدد الدين الإسلامي إرضاء المطالب النفسية لأتباعه كما حدّد حرياتهم .

أسئلة الشبان :

يتساءل الشبان المسلمون : لماذا يمتلك غيرُ المسلمين حريةً أكثر ، ويحصلون على لذائذ أكثر ، بينما الشبان المسلمون يجب أن يُحرموا من تلك الحريات واللذائذ ؟ ! ولماذا يُسمح ، في الدول الغربية ، للشبان والفتيات بإقامة علاقات صداقة وتناول المشروبات الكحولية ، ومعانقة أحدهم للآخر وتقبيله ، وبممارسة الجنس والتلذذ دون زواج قانوني إذا شاءوا ، بينما لا تسمح التعاليم الإسلامية باختلاط الشبان والفتيات بدون مجوّز قانوني وتمنع مخالطة النساء الأجانب أو التقبيل والاحتضان ؟ !

ويسألون أسئلة أُخرىٰ مشابهة كثيرة .

---

(١) صحيفة كيهان ـ العدد ٧٥٣٣ .

الجواب على الأسئلة :

للإجابة على هذه التساؤلات نقول : إن عالم الغرب يحدد الخير والشر ، والأخلاق الحسنة والسيئة بمقياس قبول ورفض المجتمع ، بينما يحدد الإسلام ذلك بمقياس مصلحة وسعادة الناس .

عالم الغرب معيارُهُ موافقة ومعارضةُ الناس . بينما معيار الإسلام هو صلاح وفساد الناس بالنسبة للحلال والحرام . إن الذين يضَعون القانون في عالم الغرب هم منتخبو الناس ، ويجب عليهم عملياً أن ينفذوا طلباتهم وأهوائهم النفسية كالخدم ويجعلوا رغباتهم في إطار قانوني . ولكن الأنبياء هم رسلُ الله وأطباء المجتمع وواجب الأطباء المحافظة علىٰ مصالح الناس وعدم الإهتمام بمطالبهم التي تخالف مصالحهم .

إن نتيجة برنامج الأنبياء هي : سعادة وراحة وأمن ورفاه وهدوء جسم وروح الإنسان . أما نتيجة الأهواء والشهواتْ في عالم الغرب فهي : القلق ، عدم الأمن ، القتل ، السلب ، الفساد والسقوط ، ودليل ذلك الإحصائيات المخيفة التي نشرها رئيس دائرة (FBI) الأمريكية في تقريره .

«يقول راسل : لقد فقدت المبادىء والتعاليم الأخلاقية المتوارثة عن القدماء والمبنية علىٰ السنن القديمة نفوذها وسيطرتها السابقة . والنساء والرجال هُمُ الآن في شكٍ بالنسبة لما هو خطأ وما هو صواب ، بل إنهم يشكّون حتى في الخطأ والصواب وأنهما جزء من الخرافاتِ والأساطير . وعندما يسعون إلى حلٍّ مثل هذه المسائل يرونها صعبة جداً ، ولا يستطيعون كشفَ الهدف والمبدأ الواضح الذي يسعون إليه .

الحياة المعاصرة في الغرب :

إن المبدأ الذي يكون ثابتاً في مجتمع ما ربما تجلىٰ سخيفاً في نظر الآخرين (الغرباء عن هذا المجتمع) ، ولكن طالما أن ذلك المجتمع مستقر وثابت فإن ذلك المبدأ يتجلىٰ لأفراد المجتمع

مناسباً ، وهـذا يعني أن جميع أفراد ذلك المجتمـع قد قبلوا ذلـك المبـدأ دون سؤال أو جـواب . وهـذا المبـدأ يُسلّم القـواعـد الأخـلاقية ، كـأوزان شعر ملحمي ، وبكـل وضـوح ، إلى أيـدي الناس . ولكن حياة عالم الغرب اليوم ليست شعراً ملحمياً ، وإنما تشبه (الشعر الحر) ، والشاعـر وحدُهُ هـو الذي يستـطيع فصلهُ عن النثر»[١] .

«كم من الناس الذين أعرفهم يدل مظهرهم على السعادة ، ولكنهم دائمـاً يسعون إلى تسميم أنفسهم بـواسطة المسكّـرات أو وسـائـل أخـرىٰ ، إن الإنسان السعيـد لا يرغبُ في السُّكـر وتسميم نفسِه ، ولا يحسد جـاره ، ولهذا السبب فهو لا يحقد عليه»[٢] .

الشباب على مفترق الطريق :

يقف الشباب المسلم اليوم على مفتـرق طريقين : إمـا أن يتبعوا التعـاليم الإسلامية ، عن إيمان ، ويتقبلوا نصائح الخير من الوالدين المسلمين ، ويغضوا النظر عن اللذائذ غير المشروعة والحريـات الضارّة ، ويعيشـوا في محيط العائلة محبوبين محترمين ، ويمضوا العمر بسـلامةٍ وسعـادة أو يتّبعوا أسـاليب الغرب ، ويتجـاهلوا تعاليم الإسـلام ، ولا يهتمـوا بنصـائـح والـديهم ، ويصبحـوا عبيـداً لشهـواتهم وأهوائهم النفسيـة ، وينساقـوا وراء اللذات والفساد ، والإدمـان على المسكِرات والعادات الضـارّة الأُخرىٰ ، ويحـدثوا المنـازعات والإختـلافات في العائلة، ويعتدوا على حقوق الآخرين في المجتمع ، وبالتالي يمضون أعمـارهم في تعاسة .

اللذة الضارة :

دُعيت قبل سنوات إلى مركز إحدىٰ المحافظات ، وذات يوم جـاءني إلى منزلي شخص مثقف يُحاضر في جامعة تلك المدينـة وقال : «أُحب أن أُطلعـك عـلى أمرٍ تحـذّر الشبـاب من خـطره، من عـلى منـبر الخـطابـة، إذا لـزم الأمـر، وهـو:

(١) الآمال الجديدة ـ ص ١٠ .

(٢) المصدر السابق ـ ص ١٥ .

قبل عدة ليالٍ سُرقت من بيتي كمية من السجاد والأثاث ، فأخبرت الشرطة بذلك ، وقبل ظهر هذا اليوم أخبروني هاتفياً أنهم عثروا على السارق ، وهو تلميذ في الصف السادس العلمي (فرع الرياضيات) ومن المحافظة الفلانية . فلم أصدق أن تلميذاً بهذا المستوى يقدم على السرقة ، فذهبت فوراً إلى مركز الشرطة ، ودخلتُ إلى غرفة الضابط ، ولم يمضِ وقت طويل حتىٰ جاؤا بشابٍ مقيد اليدين وقالوا إن هذا الشاب هو الذي سرق منزلك . فسألتُهُ هل أنت سرقت بيتي ؟ فأجاب : نعم . سألتُهُ : هل أنت تلميذ ؟ قال : نعم في الصف السادس العلمي . ولكي أتأكد من أنه حقاً تلميذ سألتُهُ أسئلةً في الرياضيات ، وكانت بعض الأسئلة صعبة ، فأجاب عليها جميعاً ، فتأثّرتُ كثيراً ، فسألته : لماذا تركت المدرسة وجئت إلى هذه المدينة وسرقت ؟ فأجاب إن رفاقَ السوء دفعوني إلى استعمال الهيروين فأدمنتُ عليه وبما أنني كنتُ وحيد العائلةِ فإنني كنت أحصل بمختلف الوسائل على المال من أبي وأشتري به هيروين حتىٰ اكتشف أخيراً إدماني عندها اضطرب وغضب مني ولم يعد يعطيني مالاً فاضطررت إلى ترك المدرسة والبيت ، وجئت إلى هذه المدينة ، ومن أجلِ الحصول على المال لشراء الهيروين أقدمت على السرقة وها أنا ذا في يد الشرطة . وبعد ذلك قال بتأثر شديد والآن وبدلاً من المدرسة أجد نفسي في السجن ، وبدلاً من أن أجلس على الكرسي في الصف وأستمع لدرس المعلم ، عليَّ أن أقف في قفص الإتهام وأُجيب على أسئلة القاضي ثم بدأ يبكي بشدة ، بينما قادَهُ الشرطي إلى الزنزانة .

قال علي عليه السلام : «اغلبوا أهوائكم وحاربوها فإنها إنْ تقيدْكُم توردكم من المهلكة أبعد غاية»(١) .

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : «إن الشديدَ ليس مَنْ غلَبَ الناس ، ولكن الشديدَ مَنْ غَلَب نفسَه»(٢) .

---

(١) غرر الحكم ص ٤٢٥ .

(٢) مستدرك الوسائل ـ ج ٢ ـ ص ٢٧٠ .

الفهرس